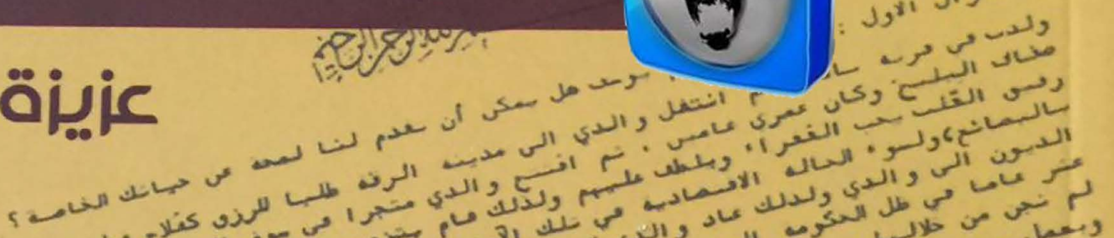
إبراهيم اليوسف

وصفحات من تاريخ الطليعة المقاتلة في سوريا

سيرة وسيرة وحقائق تكشف المستور

عزيزة جلود



أكاديمية العلم و السلم
Academy of Knowledge and Peace

I.A.U
جامعة أريس الدولية
INTERNATIONAL AREES UNIVERSITY

أكاديمية العلم والسلم

من حقك الا تقتنع برأيي ومن الواجب علي ان احترم حقك، ومن حقي الا اقتنع برأيك ومن الواجب عليك ان تحترم حقي .

من نحن ؟

مؤسسة ألمانية مجتمعية غير حكومية تعنى بقضايا الثقافة والإعلام، ونشر الوعي المتحرر من مفردات الاختزال والأحكام النمطية وتدعو الى الانفتاح والحوار والتلاقي ومد جسور التعارف بين الشعوب.

الرؤية:

الحوار أولا وثانياً وثالثاً من أجل إزالة الصور النمطية العدائية المتبادلة بين الغرب والمسلمين وبين الغرب وخلق مكونات علائقية أكثر تسامحا.

رسالتها:

- تكوين ذائقة ثقافية منصفة بين الشعوب بعيدا عن التطرف.
- التأكيد على أن الحل الوحيد لفض المنازعات وتحجيم أي تطرف هو تحكيم العقل.
- بناء علاقة تحترم عقل ومقدس وحق كل طرف .
- إنشاء الدافع الرئيسي لدى جميع أطراف الحوار إصابة الحقيقة وأن يكون الوصول إلى التكامل والتواصل .
- تنمية التفكير الإيجابي التواصلي وصقل شخصية الفرد المنفتح.

وتؤكد أكاديمية العلم والسلم على :

الوعي ضرورة لازمة لنجاح أي مجتمع يسعى نحو الفاعلية، بعيداً عن التطرف المعيق لكل تطور ونهضة.

wilhelm strase7 - 42105 wuppertal
tel: 020269817703 - fax:020269817705

صفحات من تاريخ الطليعة

مسيرتي مع الطليعة

عزيزة جلود

إهداء

لروح كل من شاركني مسيرتي مع مجاهدي ثورة الثمانين.

إلى روح زوجي السابق إبراهيم اليوسف الذي لولاه لما كانت كل تلك المسيرة

إلى روح والدي ووالدتي الطاهرتين. اللذان وقفا معي رغم كل الظروف القاسية، وتحملا من العذاب مالا يُطاق، واللذان قاما على تربية أولادي الثلاثة، ولم تمر عليهما ليلة واحدة دون أن يذرفا الدموع على صبية خلف أسوار أسوأ نظام في العالم.

إلى إخوتي وأخواتي الذين قاسوا من العذاب، وتقاسموا معي القهر والذل، وشاركوا أولادي لقمة عيشهم البسيطة.

إلى أطفالي: فردوس، محمد ياسر، اسماعيل، الذين عاشوا أيتاماً بلا أم ولا أب، وعانوا من الظلم الاجتماعي الكبير. وعاشوا طفولة معذبة الروح، لأنهم في عُرف الظالمين أولاد مجرم...

إلى الرجل الذي خرج من سجن تدمر محطم الروح والجسد. لكنه قال عائلة أخي أنا كفيلها وكافلها. فكان نعم الزوج

والعم والأب الحنون، صاحب العطاء الذى ليس له حدود،
زوجي أخو الشهيد خليل اليوسف (أبو براء).
إلى عصافيرى الثلاثة الذين رزقني الله بهم بعد السجن
فكانوا يبكون إخوتهم لماذا عاشوا بلا أم وبلا أب، والذين
أصابهم الكثير من الألم من تداعيات الثورة الأولى براءة
– براء– ريان....
لكل هؤلاء أهدى كلماتي، لتكون شاهداً أمام الله والناس
على الظلم والقهر والذل الذى عاشوه بسببي ولأجلي، ولم
يخذلوني كما خذلني العالم في محنتي.
كلمات أريدها أن تشهد على نظام مجرم، لم يتورع عن
ارتكاب أي جريمة ليبقى في كرسي الحكم...

عزيزة جلود

المقدمة

وأنا أعيش هجرة ثالثة في عمر امتد لسنوات تعدت الخمسين، كانت مليئة بأحداث شهدها الملايين، ولكن الكثير منهم لم يعيشوا فصول حزنها وألمها، فهي حياة زوجة مثلها ككل الزوجات في العالم، وفي الوطن العربي عامة، وسوريا خاصة، لكنها تزوجت من رجل ذي قضية مات وهو يدافع عنها....

هي واحدة من نساء يعانين من الألم والحزن والعذاب، ولكنهن في الصفوف الخلفية لكل المعارك، لا يذكرهن المنتصر ولا المهزوم....

نساء يحاسبهن المجتمع على أي قرار أو موقف يتخذنه ولا يوجد لهن خيار في ذلك...

نساء يضحين بحياتهن إما بإرادتهن أو مجبرات على ذلك...

نساء يحملن هموم الجبال بصمت وصبر وعزيمة...

نساء يعشن ويعملن ويبقين على قارعة الطريق لا يجدن من يحملهن لبر الأمان...

نساء يعشن في صحراء خالية من العاطفة والحب ورفيق الحياة ومؤنسها...

نساء يتنكر لهن أولادهن بعد كل التضحيات من أجلهم....

نساء ونساء ونساء....

وقد وضعني القدر مع تلك النساء، فكنت مخيرة أو مجبرة، وأصابني من العذاب الكثير. ويبقى الهدف الأسمى الذي قام من أجله زوجي واستشهد في سبيله، ولا يوجد شاهد عليه غيري، فكان من واجبي أن أروي للأجيال ما حصل في الثورة حينها: كيف؟، ولم؟، ولماذا؟، وأين؟...

ثورة غيبت الآلاف من شبابنا في المنافي والسجون والقبور.

ثورة مضى أصحابها بصمت ولم أسمع من تكلم عنهم.

ثورة طاهرة صادقة وغالبية ثوارها كذلك.

ثورة قيل عنها الكثير، ولكن أُغفل جانبٌ عظيمٌ منها بقصد أو تقاعس.

إنها حياة رجل نذر نفسه لتغيير الواقع المر الذي يعيشه الناس، من تهميش وذل وظلم، ولكن للأسف خذله الأقربون حياً وميتاً.

رجل ضحى بزوجته وأولاده وكل إخوته وأخواته ووالديه وأقاربه وتركهم في مهب الريح.

رجل مضى مجاهداً لا يلتفت خلفه، ومضى بثقة لهدفه حتى الرمق الأخير.

عشت هذا الواقع وحصاده المر بكل تفاصيله بصمت وعزلة، ولكن قيام الثورة السورية فجر بركاناً خامداً في داخلي، ثار ونفض كل ألمي وعذاباتي التي لم يشعر بها إلا القليل ممن حولي، ولم أجد عزاءً من أحد.

كانت مأساة شعب تلخصت بحياة امرأة شاركت هؤلاء الشباب مسيرتهم ونهايتهم بكل تفاصيلها.

مأساة أمة مفككة ترفع ألف شعار وهدف.

مأساة أمة تكالبت عليها الأمم وهي مخدرة بأحلام كاذبة.

كتب عنها كثيرون، ولكن ما سأعرضه هنا يُعرض لأول مرة، لأني كنت الشاهدة الأساسية على الكثير من أحداثها.

أحداث شهدتها بأم عيني، أو سمعتها بأذني من الشهيد إبراهيم اليوسف قبل استشهاده، ومن الشباب الذين كنت أعيش معهم.

لهذا سأجعل الكتاب ينقسم لأربع مراحل:

- المرحلة الأولى: تمتد من زواجي من الشهيد حتى ليلة عملية المدفعية.

- المرحلة الثانية: من اعتقالي الأول حتى التحاقي بالشهيد في إحدى القواعد. وهي عبارة عن أجزاء كتبتها في شهر رمضان المبارك على شكل حكايات، بعنوان (حكايا الجدة أم ياسر) وقد نشرتها على صفحتي الشخصية في الفيس بوك.

ـ المرحلة الثالثة: حياة الملاحقة حتى الاعتقال الثاني. وكذلك هذه المرحلة تدخل أحداثها ضمن (حكايا الجدة أم ياسر).

ـ المرحلة الرابعة: حياة السجن، كتبها على شكل ليالٍ حزينة، لامرأة يحدوها الأمل في الحياة، كانت تشبه حياة أسطورة شهرزاد مع الملك الظالم شهريار، فكان عنوانها (ليالي شهرزاد في السجون الأسدية) وقد نشرتها على صفحة في الفيس بوك باسم (جرح الماضي ينزف من جديد)..

ـ المرحلة الخامسة: تداعيات كل تلك المسيرة حتى قيام الثورة المباركة، وأثرها على حياتي بعد ثلاث سنوات من عمر الثورة، وزواجي من أخٍ الشهيد خليل اليوسف (أبو براء)، الذي أمضى ثلاث عشرة عاماً في السجن كرهينة عن أخيه، ولكنه لم يخرج حاقداً عليه، إنما نذر حياته ليرعى كل عائلة أخيه، ويحفظ زوجته من الضياع والتشرد، فكان نعم الزوج والأب والعم والأخ الذي خلف أخاه المجاهد.

ـ الخاتمة: وهي تداعيات الثورة الأولى مع الثورة الثانية، وتداعيات انتقادي لدولة البغدادي على حياتي وحياة عائلتي.

يبدو أن قدرنا أن نكون دائماً مع المظلوم ضد الظالم فيطالنا من الظلم الكثير.

المرحلة الأولى في مسيرتي

صباح ذلك اليوم الخريفي، ومع بداية العالم الدراسي لعام ١٩٧٣، كنت أحضّر القهوة لوالدتي وجاراتها عندما طُرق باب بيت جارتنا التي تزورنا، فذهبت لأرى من هو الطارق بأمر من جارتنا، وإذ بامرأة خمسينية، دعوتها لدخول منزلنا كما طلبت الضيفات، وقالت إحداهن لأمي رحمها الله، هذه امرأة لا يمكن أن تخيب قراءة فنجانها!.

دخلت الضيفة، وقدمت لها القهوة، كنت أخرج وأدخل الغرفة لأسمع بفضول ماذا تقرأ، وماذا ترى؟، رغم أني كنت بالفطرة لا أؤمن بهذه الأمور.

كانت تسرد وتحكي، ووالدتي تقول إن شاء الله. فتناولتُ فنجاناً ورشفت آخره، وقلبته كما فعلن، وهي تنظر إلي، قلت لها: «خالة اقرئي لي، هل سأنجح في الشهادة الإعدادية أم لا»؟! فهذا اليوم الأول للعالم الدراسي.

تناولتْ فنجاني، وكان آخر الفناجين، وبجدية قالت لي: «لن تتابعي دراستك، هناك من يتشاور ليأتي لخطبتك، وسوف تتزوجين».

قلت لها: «لا، لن يحصل ذلك». وضحكتُ، لأني لا أؤمن بهذه الخرافات، كنت متفوقة في دراستي، وقد وعدني والدي رحمه الله بأن أكمل دراستي وأصبح مثل أخي الذي كان في السنة الثانية في كلية الطب البشري.

كانت تلك الضيفة ذكية بما يكفي لتنظر وتعرف أننا مجتمع محافظ جداً، ويمثل هذا المجتمع من الصعب جداً أن تكمل الفتاة دراستها، فإن اقتنع أهلها بإكمال الدراسة لم يتركهم الخطابون. وبالفعل وبعد أقل من شهر، جاءت إحدى قريباتنا البعيدات وطلبتني لحفيدها المدلل، ذلك الضابط في الجيش، لكن والدي رفض.

واندلعت حرب تشرين وعشنا أحداثها من خلال المذياع، ولازلت أذكر الخطاب الأول لحافظ الأسد فيها. في تلك الحرب اُستدعي والدي مع شاحنته ليقوم بنقل المؤونة والذخيرة إلى الجبهات، وعشنا أياماً من الخوف والترقب، فنحن عشرة أولاد، لا معيل لنا سوى والدي رحمه الله، وهو نفسه كان وحيد أبويه.

ولم أنسَ ذلك الضابط الذي طلبني للزواج وقوبل طلبه بالرفض، فهو الآن بطل ككل شبابنا يقاتل عدونا إسرائيل، وخفت أن يستشهد في تلك الحرب، فأي عذاب ضمير سأعيشه لأنه رُفض؟

انتهت الحرب وعاد والدي سالماً، ولكن حرب الاستنزاف مازالت مشتعلة...

كان أبي يلتقي بالأقارب ويسمعهم يتحدثون عن ذلك الضابط، فهو متدين يؤدي فروضه، قوي الشخصية وله كلمة في الخلافات الحاصلة بين الأقارب، كان والدي يسمع كل ذلك وينقله لوالدتي، وأنا أسمع جزءاً منه، وكأن والدي ندم على قرار الرفض.

والدي وحيد أبويه، درس في أرقى المدارس الخاصة، والتحق بصفوف حزب البعث عندما كان الحزب في طور السرية، لقد استطاع الحزب أن يخدع الكثير من الشباب بشعاراته، فضم خيرة الشباب لصفوفه، وكان والدي رحمه الله يسخر مال أبيه ومنزله لخدمة البعثيين المتخفين، فكان فايز اسماعيل أحد الذين كان يؤويهم، ولكن فايز تنكر له عندما طلب مساعدته في أمر لا يكلفه الكثير.

ومن أجل حزب البعث طُرد والدي من المدرسة، وجُرّد من حقوقه الدراسية، وكان في المرحلة الأخيرة من الثانوية، فخسر دراسته في سبيل حزب البعث، فانتقل للعمل مع والده في التجارة والنقل.

وعندما استلم حافظ الأسد الحكم طلب ابن عمتي البعثي من والدي أن يقدم نفسه له، فهو ممن ضحى وقدم في سبيل انتصار البعث، ولكن والدي رفض قائلاً: «كلهم كذابون، وأنا ما كنت يوماً من هذا الصنف المنافق الكاذب».

كان رحمه الله يملك من القيم والأخلاق ما منعه من متابعة ذلك الطريق، وهكذا عاش كفيره من أولاد الأغنياء الذين خسروا أموالهم، فلا يملكون مالاً ولا حرفة، وتمنعهم عزة ذاتهم وكرامتهم أن يعملوا أجراء عند الآخرين، فكانت عنده شاحنة نقل يعمل عليها، ولم يكن هو سائقها.

وبرغم ضيق الحال فقد حاول بكل ما يستطيع أن لا يبخل علينا بكل مال وجهد من أجل الدراسة والعيش الكريم، كان فقيراً بماله ولكنه كان غنياً

بنفسه وقيمه، لقد قدم لنا أكثر بكثير من استطاعته، وتحمل عبئاً كبيراً من تداعيات زواجي ذاك.

وبعد انتهاء الحرب عادت الجدة بالطلب، ولم يثنها الرفض الأول، ولكن والدي كان هذه المرة مهيئاً أكثر من المرة الأولى لقبول هذه الخطبة؛ فوافق. لم يستشرني رحمه الله، فقد كنت صغيرة، لا أستطيع أن أعرف الأصلح والأفضل لي كما كان يقدّر. وتمت الخطبة، ولكني كنت مترددة، أريد إكمال دراستي، والعريس قال إنه لن يمانع أبداً، وسوف يساعدني في ذلك.

لم أكن قد اقتنعت بعد، ولكني لا أستطيع أن أرفض، فنحن من بيئة لا تعترف بحق الفتاة في الرفض أو الموافقة، ورغم أن مجتمعنا سكن المدينة منذ زمن بعيد؛ إلا أنه حمل من الريف كل عاداته وأفكاره ومعتقداته.

كان زوجي الشهيد من مواليد ١٩٥٠، ابن لعائلة تتألف من عشرة أولاد وجدة، نزحوا من قرية تادف، لجفاف المياه فيها وتدهور الزراعة، إلى مدينة الرقة، وكان عمره عامين، عاش مع أهله في قرية الكرامة شرقي مدينة الرقة ٤٠ كم، والتي كانت تشتهر بزراعة القطن، حيث كان والده يستأجر الأرض هناك ويزرعها بالقطن، فكان يمضي الصيف مع العائلة، وفي الشتاء يرجع للمدينة للدراسة.

كان كثير من سكان قرية الكرامة في الثمانينيات يؤيدون البعث اليميني العراقي، واعتقل الكثير منهم لسنوات طويلة وأُعدم آخرون ....لكن المفارقة

الغريبة اليوم أنهم يؤيدون تنظيم دولة العراق والشام، وهم الذين يتصدرون الأحداث في المنطقة الشرقية، والكثير منهم قادة وأمراء في التنظيم.

كان للجو المشائري تأثير سلبي جداً على الشهيد، فحصلت له ومعه مشاكل كثيرة نتيجة الجهل والشحن العشائري، وخلال دراسته التقى برفيق دربه عدنان عقلة، الذي كان والده يعمل في سلك الشرطة، فكان يجمعهما همُّ النزوح والغربة والفقر والإضطهاد المجتمعي، لهذا توطدت بينهما صداقة امتدت حتى الرمق الأخير من عمر كل واحد منهما.

ذلك الظلم والتشرد جعل منهما رجلين، حملا ذاك الهمَّ على عاتقهما، وحصل كل منهما على الشهادة الثانوية، وانتقل عدنان عقلة لمدينة حلب لدراسة الهندسة المدنية، بينما لم يستطع والد إبراهيم أن يقدم لولده تكاليف الدراسة في المدينة الأخرى، ورأى أن ابنه يكفيه هذا التحصيل العلمي، ويجب أن يبدأ بالعمل ويساعده في معيشة العائلة.

إلا أن الشاب الطموح بحث له عن زاوية في هذه الحياة، يمكن من خلالها أن يحقق بعض أحلامه في التغيير لكل المجتمع، وليس فقط في تغيير وضع العائلة، وهكذا التحق بالكلية العسكرية، فهو يملك بنية شديدة، وجسداً قوياً، وهو ابن ريف فقير يغوص في الجهل، وهذه الصفات غير المعلنة التي يرغب بها هذا النظام لمن أرادهم في الجيش.

وبعد عامين تخرج من الكلية الحربية اختصاص مدفعية ميدان برتبة ملازم، وبعد حرب تشرين مُنح رتبة واحدة رغم مجهوده الذي يقول إنه كان

أكبر من غيره، بينما مُنح الضباط العلويون رتبتين، ومن هنا بدأ تتكشف لهذا الضابط خيوط المؤامرة والظلم الذي يمارس على الضباط السنّة.

كل محطة من حياته كان لها الأثر الكبير على مستقبله ومستقبل سوريا كلها، فالفقر والجهل والتمييز عوامل ساعدت في تشكيل فكره، لكن أهم العوامل كان محاربة النظام للدين سراً وعلانية، فعندما أُستدعي لمحاكمة حزبية لأنه يصلي، كانت هذه المحاكمة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، حيث تم نقله لمدينة حلب، ومن هناك بدأت ملحمته.

ومع مرور الوقت بدأتُ أبحث من خلف الكواليس عن هذا العريس، وأراقب وأسأل من يكون وكيف يفكر. كانت هذه الأسئلة أكبر من عمر مراهقة صغيرة. وكان كلما جاء لزيارتنا يستأذن والدتي ليفتح خزانة كتبي ويقرأ ما أكتب، وخاصة دفتر المواضيع الإنشائية، وكان يسجل ملاحظاته كأنه المعلم، ويكيل لي عبارات المديح على ما كتبت، فقد كنت من المتفوقات في كتابة التعبير، وكانت المعلمة تجبر الطالبات من غير شعبتي على كتابة مواضيعي.

ومن خلال ملاحظاته رأيت فيه بعض صفات فارس الأحلام، ورغم صغر سني لم يستهوني المال ولا الجمال في الرجل، ولكن كنت أحب العلم والثقافة، وهي عندي أولوية لن أتخلى عنها، من هنا شعرت ببعض الرضا عن الخطبة، وزاد في ذلك أن أحد إخوتي ذهب لزيارته في دمشق في غرفته التي كان يستأجرها، وأخبرني بأنه يملك مكتبة لا بأس بها، تحوي كتباً

اشتراها من راتبه الصغير، وكان هذا الخبر نقطة التحول الكبير في مجرى حياتي كلها، وشعرت بكامل الرضا عن خطبتي له.

وتزوجت ككل النساء اللواتي يتزوجن ضباطاً في الجيش، فلا غرفة نوم ولا منزل سوى بعض الأثاث الضروري للاستخدام، الخفيف للتنقل.

ومن خلال عشرتي معه، وجدت أنه كان رحمه الله يحمل كل المتناقضات في شخصيته: القسوة مع الحنان، والتدين مع الانفتاح، الكرم مع الحرص. كان لي أباً، ولكن ليس كالآباء، حرية وحرص بآن معاً، قوي وشديد ولكنه ضعيف أمام حزني أو بكائي إذا طلبت موافقته ورفض، فمازلت طفلة لا تحب أن يُرفض لها طلب، فكان يتنازل رغم رجولته وقوته برحابة صدر أمام طلباتي، أي أمر في البيت وخارجه يجب أن أقول رأيي فيه مهما كان ذلك الرأي.

كان يعتذر عن كل خطأ ولا يخجل من ذلك، ويعتذر عني عندما أقوم بخطأ، فيقول: Dأعرف أنك لم تقصدي ذلكC، ويبرر لي عوضاً عن نفسي، فأشعر أني ضعيفة جداً أمام قوة شخصيته، فلماذا لا أكون مثله وأعترف بخطأ ارتكبته؟

كان يكبر في عيني لتلك التصرفات، ولا أستطيع أن أجاريه في ذلك، ولكنها قسوة الحياة وثقل المسؤولية الملقاة على امرأة صغيرة، لم تكن تشعر بقيمة الأشياء. كان يعرف ذلك ويصبر، فمن يتزوج صغيرة يجب أن يصبر وينتظرها حتى تكبر.

كنت شغوفة جداً بالمطالعة، وكان يسعد جداً عندما يراني أحمل كتاباً وأقرؤه، وينزعج جداً عندما أمضي الوقت في الطبخ أو أي أمر أخر يراه تافهاً.

كانت المكتبة تحتوي على كتب إسلامية وثقافية وسياسية، بدأت بقراءة الترغيب والترهيب في الحديث الشريف، وكان له الأثر الأكبر في التزامي الديني، ومن ضمن ما قرأت وأثر في حياتي قصة البوابة السوداء عن تعذيب النظام المصري أثناء حكم الطاغية جمال عبد الناصر لجماعة الإخوان المسلمين، ومسيرة العظماء لماو تسي تونغ، والكثير من الشخصيات الإسلامية: حياة خالد بن الوليد، وعمر بن الخطاب، والسيرة النبوية، وحياة الصحابة، والمعارك والغزوات...

ومن هنا بدأت تتبلور قناعاتي بعيداً عن زوجي وقريباً منه في نفس الوقت، كل تلك الكتب قرأها هو وقرأتها أنا، فالمحصلة الثقافية تقريباً واحدة. كان فرحه بي كبيراً وأنا أفتح كتاباً وأغلق آخر، ولكن ظروفنا المعيشية الصعبة كان لها الأثر الكبير على حياتنا، فبعد إقامتنا عاماً ونصف في بيت أخته انتقلنا لمنزل صغير في حي شعبي يسكنه غالبية أهل قريتنا (كرم ميسر)، وككل المهاجرين من القرى سكنا أطراف المدينة، في بيوت بسيطة، في أحياء تفتقر للخدمات الجيدة.

كان المنزل عبارة عن غرفة كبيرة وأخرى صغيرة جداً، ودرج وسطح، هذا هو المنزل الذي عاش فيه الشهيد إبراهيم اليوسف باقي حياته، ورزقنا

الله بفتاة أسميناها فردوس، وولد أسماه ياسر أول ولادته على اسم أول شهيد في الإسلام، وبما أنه الابن البكر فيجب أن يكون الحفيد على اسم جده، ومن أجل رضا والده أسماه محمد ياسر.

وبعد ثلاثة أعوام ونصف فكرت أن أكمل دراستي فهي هاجسي وحلمي، وأحضرت الكتب، وكنت أدرس خفية عن أعين الأقارب تجنباً للنقد والسخرية، فكيف لمتزوجة لديها طفلان أن تدرس؟ نحن مجمتع يؤمن أن المرأة فقط لتلبية حاجات الزوج ولتربية الأولاد.

كنت بطبعي متمردة، وأريد أن أحقق ذاتي، ومن حسن حظي أن الله رزقني بزوج يؤمن بي وبقدراتي ويشجعني على ذلك، فلم يكبت جماح تمردي، بل على العكس كان يشجعني أكثر.

واستطعت أن أدرس وأقدم الامتحان، وكنت أتمنى أن أصبح طبيبة، فعملها هو الأفضل للمرأة اجتماعياً، أما الآن فقد تغير كثير من قناعاتي بعد تحصيلي لثقافة لا بأس فيها من خلال المطالعة والدرس والحوار، فكانت أمنيتي أن أدرس الشريعة الإسلامية بشكلها الأكاديمي، وأن أتخصص بالفقه، لشعوري أننا في ضرورة وحاجة لفقه يحاكي العصر ويجدد الإجتهادات القديمة، وانتهى الامتحان في الثامن من حزيران عام ١٩٧٩، ولكن بعد هذا التاريخ بثمانية أيام سيختار الله لي قدراً غريباً وعجيباً لم تعهده النساء في سوريا من قبل.

نبذة عن حياة الشهيد ابراهيم اليوسف

أخبرتكم أن الشهيد إبراهيم اليوسف مواليد عام ١٩٥٠، من قرية تادف في ريف حلب، انتقلت عائلته لمدينة الرقة وكان عمره سنتين، درس في مدارس الرقة. وفي الصف الأول الثانوي، بعد نكسة حزيران، فكر مع صديق له أن يؤسسا حزباً إسلامياً لإسقاط النظام البعثي، فبدأا بشراء الكتب الدينية والثقافية استعداداً لذلك، كانت تلك فكرة شاب طموح وغيور على دينه ووطنه، دفعته فطرته للتفكير فيها.

وفي الصف الثاني الثانوي التقى بعدنان عقلة، الذي كان يخدم والده في سلك الشرطة في الرقة، وبعد أن نالا الشهادة الثانوية افترقا، حيث التحق عدنان بالجامعة بفرع الهندسة، بينما لم يستطع إبراهيم أن يسجل في الجامعة لسوء الحالة المادية، فانتسب للكلية الحربية، وهناك رأى انتشار الكفر والطائفية والفساد. وشارك بحرب تشرين التخريبية، كما يسميها هو، ورأى كيف مُنح الضباط العلويون رتباً لا يستحقونها، بينما حُرم منها الضباط السنة، لقد رأى العنصرية بأقوى صورة.

وبعد حرب تشرين عاد والتقى بصديق الشباب عدنان عقلة، الذي لم يكن قد أنهى دراسته بعد، واستمرت اللقاءات بينهما في زيارات الشهيد إبراهيم لمدينة حلب.

وفي أحد الأيام استدعي الشهيد لمحاكمة حزبية، واتهموه بأنه يضيع وقته في أداء الصلاة، فرد عليهم قائلاً: «أنا أصلي في وقت استراحتي، بينما هناك آخرون يشربون الخمر». حاولوا لملمة الموضوع، وبعد فترة قصيرة نقلوه من قطعته العسكرية إلى مدينة حلب، ليخدم في مدرسة المدفعية، مع العلم أن الجبهة القتالية بحاجة لأمثاله أكثر.

كان إبراهيم يشعر بألم وحزن لما لاقه من سوء معاملة، وقد عرف أن نقله لمدرسة المدفعية هو عقوبة له لأنه يصلي، ومن هنا بدأ سفر جديد للشهيد سيكتبه التاريخ بأقلام شتى ورؤى مختلفة.

كان المتدينون في الجيش يعاملون باحتقار وعنصرية، والشواهد على ذلك كثيرة، ومنها ما يرويه أخو الشهيد الأصغر خليل اليوسف حيث يقول: «جاءه -أي إبراهيم- طلاب ضباط يخدمون إلزامياً، وغالبيتهم من كليات الهندسة والطب، وهذه الكليات كانت محسوبة على الأخوان فأرادوا الصلاة جماعة، لكن كان عليهم أخذ موافقة على ذلك، فاختاروا الشهيد لعلمهم أنه لا يرتشي ولا يتكلم كلاماً بذيئاً، وظهر لهم أنه متدين، فسألوه: «هل مسموح لنا أن نصلي جماعة»؟؟ فقال لهم: «لا يوجد قانون يمنع من ذلك». فذهبوا وأقاموا خطبة وصلاة الجمعة، ووصل الخبر للقيادة، وسألوا من سمح

بذلك؟ فقيل: النقيب إبراهيم اليوسف، فجاء ضابط أمن المدرسة محمود المحمود، (الذي اغتيل قبل حادثة المدفعية، بعد هذه الحادثة) فقال: «كيف تسمح لهم بالصلاة»؟ قال: «أنا لا أخالف القانون، وهل يوجد قانون يمنع الصلاة؟؟، أنا سمحت لهم، وأنت اجمعهم وقل لهم إن الصلاة ممنوعة، الآن سأجمعهم لتقول لهم إن الصلاة ممنوعة»!، فرد محمود المحمود: «لن أفعل». فقال له الشهيد: «هل تريد أن تنفذ ما تريد على مسؤوليتي»!.

كان لهذه الحادثة أثر بالغ في نفسه، فعند هؤلاء العلويين تأدية الصلاة ممنوعة، وهم يحاربون الإسلام بكل وسيلة. ووصل تقرير من الشهيد للطليعة، وقامت الطليعة باغتيال محمود المحمود، فهو ضابط أمن المدرسة وممن يحارب كل متدين.

وقصة أخرى حصلت بين الشهيد والضابط محمود المحمود حيث كانا في سهرة معاً، وأثناء حديث الشهيد عن عدد المساجد في حلب قال محمود المحمود: «لماذا كل تلك المساجد؟ هذا استهلاك للمساحة وهدر للكهرباء، وماذا نستفيد منها»؟ سايره الشهيد قائلاً: «معك حق في ذلك، ماذا نبني عوضاً عنها»؟ قال: «منشآت سياحية صناعية، ملاهٍ...» رد عليه الشهيد: «الأفضل أن يقوم مكان المساجد ملاهٍ، هذه فكرة عظيمة، وأنت تأتي ببناتك وأخواتك وزوجتك وأنا كذلك» فقال له محمود: «ماذا تقول»؟! فقال الشهيد: «إذا نحن لم نرتد ما أنشأناه فمن سيرتاده»؟؟ عندها انتهى الحديث وذهب النقيب محمود المحمود غاضباً من الشهيد.

وهناك حادثة لا يمكن أن نذكر الشهيد دون أن نذكرها:

كان الشهيد يراجع التقارير التي تخص الندوة والأدوات المستعملة فيها، وكل يوم يكون التقرير: «استهلك بالتكسير»، واكتشف أن هناك سرقات، وكتب تقريراً بالعريف المسؤول عن الندوة مدعماً بالدلائل، وقدمه لعميد الكلية، وفي اليوم التالي دخل الشهيد للندوة وإذ بالعريف ينادي الشهيد وبيده ورقة، ويقول له: «انظر»!، ومزق الورقة ورماها بين رجلي الشهيد، واكتشف الشهيد أن الورقة هي التقرير عن السرقة بحق ذاك العريف العلوي. لقد شعر بحجم الذل والقهر الممارس على الضباط السنة، عريف يهين ضابطاً برتبة نقيب!.

زار الشهيد عدنان عقلة عدة زيارات في الجامعة، وكانا يتبادلان الأحاديث وهموم الأمة، وعرف عدنان عقلة ما يفكر به إبراهيم، وما يبحث عنه، ألا وهو محاربة هذا النظام، فليس من دواء للخلاص من هذا النظام المجرم سوى القوة. وبعد لقاءات كثيرة وحوارات، عرض عدنان على إبراهيم الانضمام لجماعة مروان حديد، ووافق إبراهيم على ذلك. وكان هذا في الشهر الأول من عام ١٩٧٧، وفي هذا العام رقي الشهيد لرتبة نقيب، وأصبح إبراهيم أحد المنظمين في جماعة سرية، وعليه أن يحتاط لذلك ليستطيع العمل بنجاح أكبر. كانت مهمته أن يكتب مسحاً لضباط المدرسة، ويصنفهم: ضباطاً جيدين وضباطاً سيئين. كان يحاول أن يغير سلوكه ليوهمهم بعدم التدين، ولو لم يفلح في ذلك كثيراً.

وبقي على هذه الحال فترة من الزمن، وكان يلتقي بمسؤول تنظيمي كل أسبوع ليطلعه على المستجدات، وليتدارسوا الأحداث، وليتلقى دروساً دينية. واستمر على هذا المنوال حتى الشهر الثالث من عام ١٩٧٩، عندما لاحق الأمن جماعة مروان حديد وجماعة الإخوان المسلمين، وذلك باعتراف عبد الله طنطاوي بعد اعتقاله. ولكن إبراهيم بقي بعيداً عن الشبهة لأنه غير معروف، ولا يعرفه سوى عدنان عقلة ومسؤوله التنظيمي. ولكن هذا المسؤول اعتقل هو أيضاً، فعاش إبراهيم هاجس الخوف من الاعتقال حتّى إقرار عملية المدفعية، وكان عدنان يمنعه من ترك الجيش، فهو على رأس عمله يخدم الأخوة أكثر من أن يلاحق ويصبح عالة عليهم، فهم يبيتون في كل بيت ليلة أو ليلتين لا أكثر.

بقي عدنان وإبراهيم يفكران بعملية ترد للنظام الصاع صاعين، وكانت تتوالى أخبار التعذيب من داخل السجون، واعتقال كل من هو متدين، حتى أداء الصلاة كان ذنباً يعاقب عليه الأشخاص، إذا اعترف أحد عليهم.

وعرض إبراهيم فكرة أخذ طلاب الدورة التي يقوم على تدريبها كرهائن يبادلون فيهم أسرى، وليعلم العالم بما يحصل في سوريا من استئصال لكل ما هو مسلم ومتدين، بغض النظر إن كان منظماً مع الإخوان أم لا.

وسبق ذلك بشهور إعفاء كل مدرس متدين من التدريس، ونقله لصالح وزارة التموين، لتصبح مهمته القيام بدوريات في الأسواق وكتابة المخالفات التموينية بحق الفقراء من أصحاب البسطات، وذلك ليلعن الناس كل من هو ملتح ومتدين. وتم إعفاء المعلمات المتدينات من التدريس كذلك.

ظل إبراهيم وعدنان وقيادتهما يناقشون العملية وتداعياتها على الوضع العام، وكيفية تنفيذها أياماً عدة، وتوصلوا لنتيجة مفادها أنها ستكون عملية استشهادية، ويمكن أن لا يخرج منها أحد من الشباب حيّاً. وأما عن تداعياتها فهي ستوقظ أهل سوريا، وتوعيهم لما يُحاك لهم ويدبر من تخطيط للاستيلاء على كل سوريا، والتحكم بمقدرات الشعب، ومحاربة دين الله وكل متدين.

وصلى عدنان عقلة وإبراهيم صلاة الاستخارة، واختاروا عدة شباب نذروا أرواحهم للدفاع عن دين الله، وإقامة شرعه، ونشر العدل بين الناس. ولا يحضرني ذكر أسماء أولئك الشباب، فأرجو ممن يعرفهم أن يذكر أسماءهم، رحمهم الله جميعاً.

واستعدوا للعملية، وخططوا لها، حيث يجمع إبراهيم الطلاب في الندوة، بعد أن يُدخل المجاهدين، ويتم حصار الندوة، ويخُرج الطلاب من باقي الطوائف، ويبقي العلويين منهم، فكان هناك ٣٠٠ طالب، منهم ٢٦٠ طالب علوي، و٤٠ من السنة والدروز والمسيحيين، وقام بتسجيل الأسماء أحد الطلاب بطلب من إبراهيم.

وعند تنفيذ العملية جاء الشباب إلى باب المدرسة، كلهم بلباس عسكري، وأخذ إبراهيم لهم إذناً من الضابط المناوب الأعلى رتبة منه، ودخلوا وحاصروا الندوة، وقرأ إبراهيم أسماء الطلاب وأخرج من ليس علوياً خارجاً، ويبدو أن الطلاب أحسوا أن في ذلك شيئ، فقال لهم إبراهيم إنه

من جماعة «مروان حديد، الإخوان المسلمين». (لقد قال إنهم من الأخوان المسلمين ليعبروا عن الخلفية الفكرية لهم وليس الخلفية التنظيمية، لأنهم تربوا على أفكار سيد قطب وحسن البنا). وأنهم رهائن الآن لديه ولدى رفاقه حتى تنفذ مطالبهم.

كان هناك خطة بديلة للخطة الأولى، فإذا لم يكن الوضع يسمح بأخذ الطلاب العلويين رهائن؛ سيقوم الشباب بالضرب وينسحبوا.

حاول أحد الطلاب الهجوم على إبراهيم ظناً منه أنه وحيد، ولكن كان الشباب حول الندوة فبدؤوا بإطلاق الرصاص على الطلاب، وانسحب إبراهيم إلى مخازن السلاح، وملأ سيارة عسكرية بالسلاح وطلب من أحد السائقين أن يخرج بهم من المدرسة، وانتهت العملية التي لم تطل أكثر من عشر دقائق. فلم تكن الغاية قتل كل الطلاب، بقدر ما كانت رداً على النظام، وانتقاماً للشهداء والمعتقلين في السجون، وفتح أعين الناس على عدد العلويين المقبولين في الجيش بالنسبة لعددهم في سوريا، وهكذا استطاعوا الخروج كلهم سالمين، وتفرقوا كل واحد في بيت حدد له قبل بدء العملية في حال العودة سالماً.

أما السلاح فلم يكن في مخططهم أن يغنموه، ولم يؤمنوا له مكاناً لإخفائه فتركوه في السيارة.

كانت ردة فعل النظام مثل ما توقعوا، وأكثر من ذلك، فهم كشفوا مخطط النظام بسيطرة العلويين على الجيش والأمن وكل مرافق الدولة الأساسية،

ولم يتوقعوا أن يجرؤ أحد على القيام بمثل هذه العملية، فهذه طعنة موجعة للطائفة العلوية.

وبهذه العملية بدأ عهد جديد في سوريا، وتاريخ كل سيكتبه من وجهة نظره هو، فالإخوان استنكروا العملية وأدانوها، وتبرؤوا من إبراهيم وادعوا أنه بعثي وليس من الطليعة، حتى نسوا أن من قام بتنفيذها هم شباب مروان حديد الذين انشقوا عن الإخوان، وليس إبراهيم لأنه بعثي وانتقم لأمر شخصي.

وأما باقي شباب مروان حديد فكان حسني عابو غير موافق عليها أيضاً، بحجة أنهم ليسوا مستعدين لمثل تلك المواجهة، مع العلم أنه ملاحق من النظام، ولم يعفه عدم رضاه من حكم الإعدام.

لقد حاول النظام التفريق بين شباب الطليعة، بأن أرسل لهم أنه سوف يعفو عنهم كلهم مقابل تسليم إبراهيم اليوسف فقط للأمن، وتدارسوا الأمر، وكان هناك من فكر بذلك، ومنهم من عرض على إبراهيم الخروج لليمن، فهناك ثورة إسلامية، ويسلم الآخرون أنفسهم، فأجابهم إبراهيم: «وهل انتصرت الثورة في سوريا لأخرج لليمن؟؟ لا والله لا أخرج من سوريا أبداً، فإما النصر أو الشهادة، ما لهذا قمنا».

واستدار للشباب حوله وقال: «يا شباب من يعاهدني على الموت في سبيل الله»؟ فانبرى عدة أخوة وتعاهدوا على ذلك، أذكر منهم عبدالله قدسي، أيمن الخطيب، أخ من بيت أبو صالح، عدنان عقلة، وأعتذر لأن الذاكرة لم

تعد تسعفني لذكر الأسماء كلها. كانت مجموعة من خمسة مجاهدين بدؤوا العمل العسكري والعمليات العسكرية ببارودة فقط وعدة مسدسات، وكانوا يتنقلون كل ليلة من بيت لآخر ومن بستان لآخر

ملاحظة:

بعد انتهاء العملية كتبوا على الجدار: (جماعة مروان حديد، الإخوان المسلمون)

أسس إبراهيم أول قاعدة في منطقة الصالحين وكان غطاء المركز أبو حسن (أحمد كريز) وزوجته وأطفاله. ومن ثم قاعدة السكري تل الزرازير وفيها بقينا حتى وقت كشفها بعد اعتقال عمر خشفة. عندما أتيت للقاعدة بعملية نوعية ذكرتها بحكاياتي كنت وكأني انتقلت إلى عالم آخر، لم أكن أظن أن إبراهيم وشبابه يعيشون فوق الأرض، كنا نظنهم يقبعون تحت الأرض أو في الفضاء، وعندما ذهبت لم يكن كل الشباب يعرفون أن أمير قاعدتهم هو إبراهيم اليوسف، بل كانوا يظنون ظناً، ولكن بعد مجيئنا ومن الأطفال عرفوا هويته، لأن ياسر كان يقول: «هذا ليس أبي بابا عسكري».

كان إبراهيم يحمل الطعام بيديه للشباب، ولم يأكل معنا ولا وجبة طعام، كان حريصاً على نفسية الشباب، وكان النظام يسود قاعدتنا، وكل واحد في المجموعة يعرف مهامه، وينفذها حسب المرسوم له، من الأطفال حتى النساء.

وبعد ثلاثة أشهر من وجودنا معه في المركز استشهد رحمه الله، وقد ذكرت ذلك في حكاياتي فلن أكرر ذلك.

وبهذا انتهت حياة مجاهد عرفه وأحبه الكثيرون لأنهم رأوا فيه مجاهداً شجاعاً مخلصاً، لم يهرب من أول طلقة، ولم يخبئ عائلته ويخاف عليها دون الناس، بل عاش بين الناس ولأجلهم.

لقد ظلمه أقرب الناس، وهضموا حقه، وافتروا عليه بأكاذيب هم يعرفون قبل غيرهم أنها باطلة، وعمدوا إلى طي سيرته، وكان الأولى أن يكون نبراساً لهذا الجيل بالتضحية والشجاعة والفداء، ولكن الله يجعل للمخلصين حياة ثانية، ويهيئ لهم من يعيد سيرتهم للناس، ليذكروا فضلهم ويترحموا عليهم.

المقابلة مع جريدة النصر

ما أشبه اليوم بالأمس !

وما أروع تلكم الثلة المؤمنة التي استشرفت المستقبل من ذلك الأمس.

وعلمت أن هذه الطغمة المتسلطة وجب اقتلاعها قبل أن تكلفنا أثماناً غالية ندفعها اليوم.

يجب أن نعلم أن هؤلاء مروا بنفس الظروف التي نمر بها، وعانوا كثيراً من الأمراض التي انتشرت في مجتمعاتنا، وقد قضوا شهداء ليس بسبب العدو فقط بل وبسبب الصديق، والمدعين، ومتسلقي الثورات.

ولو لا سمح الله لم ننتبه لذلك، ونصلح من أخطائنا وهفواتنا، ونطوق المدعين والفاسدين، لساعدوا العدو الأسدي على وأد الثورة.

ربما سوف نقضي عشرات السنين، بل أكثر من ذلك بكثير، حتى تتجمع أسباب ثورة جديدة على هذا النظام المحمي دولياً.

حيث تكشف هذه المقابلة مع الشهيد ابراهيم اليوسف القائد العسكري لجماعة الطليعة في مدينة حلب عام ١٩٨٠ نوعية تلك الجماعة المؤمنة، وكيف واجهوا المستحيل في انطلاقتهم وعملهم، وكيف تكاتفت عليهم قوى البغي في الداخل والخارج لوأد جهادهم.

وتماماً كما يحصل الآن............

المقابلة من ١٦ سؤالاً، وسنقدمها في جزئين:

ياسر إبراهيم اليوسف

الأخ المجاهد النقيب ابراهيم يوسف في أول حديث شامل لمجلة النصر:

- ثَورَتنا ضدٌّ ما خلَّفهُ وَتركهُ لنا الاسْتِعمار.....

- أوْضاعُ الجَيْش تَمييزٌ طائِفيٌ وحَرْبٌ عَلى الاسلام....

- عملية مدرسة المدفعية استغرقت عشر دقائق

نص المقابلة

بسم الله الرحمن الرحيم

• السؤال الأول: الأخ إبراهيم يوسف، هل يمكن أن تقدم لنا لمحة عن حياتك الخاصة؟

ولدت في قرية تادف، ثم انتقل والدي إلى مدينة الرقة طلباً للرزق كفلاح قطن على ضفاف البليخ وكان عمري عامين، ثم افتتح والدي متجراً في سوق الرقة الشرقي، وكان رقيق القلب يحب الفقراء ويعطف عليهم ولذلك قام بتزويد الباعة المتجولين « الشرشية » بالبضائع، ولسوء الحالة الاقتصادية في تلك الآونة لم يستطع الباعة المتجولون أداء الديون إلى والدي ولذلك عاد والدي كفلاح للقطن في ناحية « الكرامة ». قضينا أربعة عشر عاماً في ظل

الحكومة التي تسمي نفسها بحكومة الثورة «حكومة العامل والفلاح» . . . لم نجن من خلالها سوى المرارة. غير أننا كنا نسمع من المذياع «الارض للي يفلحها ويعمل بها» إلى آخر ذلك من الألفاظ الجوفاء، ثم نأتي في آخر العام وقد ذهب معظم الموسم بين العمل الشعبي، ورشاوى الشرطة وموظفي المصرف الزراعي.

وأذكر مرة أن والدي عاد من المدينة بعد إنهاء إحدى المعاملات للحصول على السماد وفي جيبه عشرات التذاكر من أجل حضور بعض الأفلام في المدينة ذلك أنه لا تعطى المعاملة دون إرهاق العامل بشراء عدد لابأس به من البطاقات.

وأذكر مثالاً آخر على عمليات السرقة التي يتعرض لها الفلاحون فقد جاءت ذات يوم سيارة للإرشاد الزراعي وعندما تجول موظفوها داخل الحقل وقف أحدهم وهو مهندس زراعي أمام مسكبة للقثّاء وقال كيف تزرعون القثّاء إلى جانب القطن هذه مخالفة، ثم دخل البيت ولم يكن والدي يومها موجوداً وطلب مني عشر ليرات ثمناً للبنزين مع العلم أن السيارة ـــ لاندروفر حكومية ـــ وثمة أمثلة أخرى لم أذكرها . . . وكلها تدل على المعاناة التي يكابدها الفلاح في سيادة هذه السلطة.

وعندما اشتعلت حرب ١٩٦٧ كنت في الصف التاسع وفي أيام الامتحانات، على وجه التحديد، أنشئ الجيش الشعبي وبدأ الناس يتدربون على السلاح

فكنت أحضر ضمن صفوف المدربين، ثم استلمت بندقية فرنسية، وكلي أمل في أن أذهب لأقاتل اليهود ... بعد ذلك انكشفت خيانة حزيران فقمت بتسليم البندقية..

* السؤال الثاني: من هي أول شخصية إسلامية تأثرت بها؟

تأثرت وأنا في الصف العاشر بمدرس لمادة التربية الإسلامية وهو خطيب معروف كنت أشعر أن نور الايمان يخرج من عينيه ليستقر في صدري وقلبي وقد كان يومها خطيباً للجامع الكبير. معظم أهل الرقة يحضرون الخطبة عنده وفي تلك الفترة قامت مجموعة الشبان والشابات برحلة إلى الساحل وبموافقة المحافظ فقام هذا الخطيب بمهاجمة المحافظ والطعن بموافقته، فما كان من المحافظ إلا أن استدعاه للتحقيق ثم زجّ به داخل السجن. وكانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها رجلاً من رجال الإسلام يعذب ويضطهد، فكان لهذا الأمر وقعاً شديداً في نفسي، وكنت أجهش بالبكاء كلما تذكرت هذه الحادثة حتى أني أردت تفجير بيت المحافظ بالديناميت.

وكم كنت أعجب لصمت العلماء إذ كيف يسجن أحدهم ومن أجل أقدس القضايا ثم لا يحركون ساكناً ولو بكلمات على منبر رسول الله. ثم أني دعيت مرة لسهرة في أحد البيوت واذا بالمحافظ ووجهاء الرقة مدعوون أيضاً وكان من بين المدعوين الشيخ محمد البحري والشيخ عبد الخطيب، واذا بالشيخ الخطيب يقف ويقول بحرارة: «إننا شعب عربي مسلم يأبى الذل والهوان وأن هذه الأمة المسلمة لن تركع لإسرائيل

وأعوانها». فقلت في نفسي إنه رجل جريء وفصيح العبارة، ولكنه استطرد يقول: «وباعتباركم يا سيادة المحافظ أولو الامر في البلد فقد وجب علينا طاعتكم لأن الله عز وجل يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء/٥٩)»

تأملت حديثه وقلت في نفسي يا سبحان الله أهذا المحافظ من أولي الأمر منا؟ ثم ما هي صفات أولي الأمر وبماذا يحكمون ؟.. وهل من واجباتهم زج الشرفاء في السجون ؟؟..

وبعد أيام التقيت بالشيخ الخطيب في أحد شوارع المدينة فقلت له كيف تصف المحافظ بأولي الأمر وهل تم اختياره من قبل أهل الحل والعقد في هذا البلد، ألم يفعل كذا وكذا ..؟؟ فصمت الشيخ ولم ينبس ببنت شفه وقد صغر في عيني تماماً، وبعد ذلك أدركت تماماً أن من بين هؤلاء العلماء من يشتري بآيات الله عرضاً من الدنيا زائلاً....

- **السؤال الثالث: ماهي نشاطاتك الاسلامية قبل دخولك الجيش؟**

باعتباري انحدرت من أسرة ذات عادات وتقاليد إسلامية فقط ولم يكن لها أي صلة بالجو السياسي الإسلامي، لذلك كانت تحركاتي عفوية نابعة من الفطرة التي فطرت عليها والتي تميزت بالغيرة على الإسلام.

ففي الثانوية وفي درس التوجيه السياسي قال المدرس فوزي شنان: «لقد غالى كتّاب السيرة في تمجيد شخصية الرسول للإقلال من شأن العرب كأمة عريقة ذات عادات وتقاليد»

طبعاً هذا الكلام ليس من عند المدرس فهو مما يحاول به كتاب التوجيه أن يسمم أفكار أجيالنا. فقلت في نفسي إن هذا تهجم صريح على كتاب السيرة وطعن بالتاريخ الإسلامي، وكنا نجلس أنا والأخ الأستاذ عدنان عقلة بالمقعد الأخير لأنه كان مرتفعاً بواسطة البلاط وأثناء الدرس الذي يليه وضعت بلاطة على سطح المقعد بانتظار أن يتابع الأستاذ نفس الموضوع لأهشم رأسه بواسطة البلاطة لكنه توقف عند هذا الحد.

• السؤال الرابع: من المعروف سابقاً أن الثورة التي قامت كانت من أجل التحرر من الاستعمار والسيطرة الأجنبية فما هي طبيعة ثورة الأخوان في سوريا وهي موجهة ضد من؟؟

الحقيقة يمكن أن نسمي الثورة التي قامت ضد الاستعمار بالثورة الأولى أما الثورة الحالية فهي ضد ما خلفه وتركه الاستعمار، ولقد عبر عن ذلك أحد الكتّاب المسلمين عندما قال: «الثورة الأولى تكاد تكون انتهت وهي الثورة على الاستعمار العسكري ــــ والثورة الثانية يجب أن تبدأ وهي الثورة على التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية للاستعمار، وقد كان المسلمون وقود الثورة الأولى وسيكون الإسلاميون وقود الثورة الثانية»

الثورة الأولى كانت بحاجة إلى عواطف كاللهيب، والثورة الثانية تحتاج مع هذه العواطف إلى علم غزير ووعي رفيع، في الثورة الأولى كان أمام المسلمين في أوطانهم هدف حسي، أمّا الثورة الثانية فإن أمام المسلمين فيها ألغازاً وخططاً وأسراراً ومعميات. كان أمام المسلمين في الثورة الأولى كافرون

أجانب من السهل عليهم أن يحاربوهم ولكن أمام المسلمين اليوم مرتدين من أبنائهم وإخوانهم لا يستطيعون أن يحكموا عليهم بسهولة لتلبّس هؤلاء المرتدين بأثواب من النفاق. كانت الثورة الأولى تياراً وطنياً لا يسع أحداً من أبناء الوطن أن يعاكسه، ولكن الثورة الثانية ضد تيار داخل الوطن تغذيه تيارات عالمية جارفة.

الثورة الأولى احتاجت إلى جهد وجهاد، الثورة الثانية تحتاج إلى جهد أكبر وجهاد أعظم. إن على الذين ألقوا السلاح من المسلمين بعد انتهاء الثورة الأولى أن يحملوه مع أسلحة أخرى من أجل الثورة الثانية، لأن الثورة الثانية أعنف وأشد وأكثر آلاماً وأنيناً.

ولئن استمرت الثورة الأولى سنين طويلة، فإن الثورة الثانية تحتاج إلى زمن أكبر، إذ أن أعداءنا في الثورة الأولى دول، وأعداؤنا في الثورة الثانية مؤسسات وأجهزة ومرتكزات وحواجز وأوضاع محلية وأوضاع عالمية وجيوب ومشاكل وفساد وكتل ودول. إنه لابد من الثورة الثانية لإنهاء المؤسسات المأجورة والعميلة التي يغذي جذورها على أرضنا ماء غريب عنها. ولابد من الثورة الثانية لإنهاء المشاكل السياسية التي وضعها الاستعمار أو رعاها ليعيش المسلمون في دوامة من المتناقضات، ولابد من الثورة الثانية لإزالة الحواجز والعوازل بين الأقطار الإسلامية.ولابد من الثورة الثانية لتحطيم الأغلال والأطواق السياسية والاقتصادية التي تخنق المسلمين. ولابد من الثورة الثانية كمنطلق لتحرير الأقطار الإسلامية التي تحتلها الدول الكبرى أو تساند أنظمتها الكافرة العميلة.

◄ السؤال الخامس: متى ولماذا انتسبت إلى الجيش؟؟

بعد حصولي على شهادة الثانوية العامة للفرع العلمي والتي كانت تؤهلني لدخول أحد فروع الهندسة، ولضيق ذات اليد في تلك الأونة لم أستطع إكمال تحصيلي الدراسي، والسبب الأهم من ذلك هو رغبتي أن أكون ضمن صفوف الجيش تحقيقاً للدوافع الفكرية التي ذكرتها سابقاً، وإدراكاً مني بأن هذا الواقع الفاسد لايمكن أن يغير إلا بالقوة.

◄ السؤال السادس: لماذا انتسبت إلى حزب البعث أيضاً ؟

باعتبار أن الجيش كان ومازال حكراً على نوعيات معينة من الشعب تحقيقاً لسياسة النظام القائمة على سيطرة الأقليات على المؤسسات العسكرية، والتي تستوجب ايجاد غطاء سياسي مناسب لتضليل الشعب فقد قام مدير الكلية وهو اللواء ناصر الدين ناصر وطلب منا جميعاً أن ننتسب إلى حزب البعث. ثم أردف قائلاً بالحرف الواحد: «في حدا مابيرضى ينتسب للحزب»! ولما لم يجب أحد بشيء قال: «هذا يعني أن الجميع موافقون.. »

◄ السؤال السابع: كيف استطعت أن توفق بين كونك حزبياً وكونك مسلماً؟؟

الحقيقة أن تلك المرحلة كانت صعبة جداً، ذلك أني كالذي يحمل النار والثلج بيد واحدة لكنها مرحلة لا بد أن تمر حتى أؤدي الدور الذي رسمه لي العمل الإسلامي.

٩السؤال الثامن: ماهي ملاحظاتك خلال وجودك في الجيش؟

يمكن أن أجمل ذلك في الأمور التالية:

١. كثرة النصيريين والتمييز العنصري. إذ لم نجد كتيبة ولا لواء إلا وقائد الكتيبة يكون نصيرياً، وأما إذا كان سنياً وهذا نادر فإن رئيس أكانه يكون نصيرياً ولا يستطيع أن يحرك ساكناً إلا بمشورته، وأكبر دليل على التمييز الطائفي أن طلاب ضباط مدرسة المدفعية كان تعدادهم ٣٢٠ طالباً ٦٠ منهم فقط من مختلف فئات الشعب و٢٦٠ منهم هم من النصيريين. وكيف يمكن أن نتعامى عن هذه الحقائق. أما بالنسبة للعساكر المجندين فإن أي عسكري نصيري يعتبر جاسوساً على جميع السنيين أو يستطيع أن يرفع تقريراً على من هو أعلى منه في الرتبة لأتفه الأسباب، وهذا التقرير كاف لنقل أو تجميد أو تسريح من رفع بحقه هذا التقرير، وأضرب مثالاً على ذلك: كان أحد طلاب الضباط جالساً على المقعد وبيده قلم من الحبر وأمامه مجلة «جيش الشعب» وعليها صورة الطاغية حافظ أسد وبشكل عشوائي ولا شعوري بدأ هذا الطالب يخط بقلمه دونما انتباه وهو شارد الفكر على هذه المجلة ... بعد أسبوع من ذلك إذ بسيارة المخابرات تعتقل هذا الطالب المسكين دون أن يدري سبباً لذلك. وبعد سبعة أيام من العذاب المتواصل والمرير والبرد القارس الذي لاقاه في زنزانة إفرادية، بعد هذا العذاب علم أن التهمة الموجهة إليه هي تشويه صورة الفريق ثم أعيد إلى الكلية لمدة شهر لم يقض فيها دقيقة واحدة دون غمز أو لمز، أخيراً كان مصيره التسريح من هذا الجيش المنكوب.

٢ـ الحرب ضد الإسلام بشكل سافر وعلني، فأكثر من مرة شاهدت أحد الضباط وهو يصب الماء في عنق العساكر الذين يؤدون الصلاة وذلك رغم كون الطقس بارد جداً .... وأذكر مرة أخرى أنه قد جاءني عسكري وعيناه تفيضان دموعاً فقلت له ما الذي يدعوك للبكاء فأجاب بعد الحاح مني: أن الملازم الأول والرقيب أحمد رزوق يجبراني على استضافتهما في البيت بعد أن كنت قد استضفتهما مرغماً في مرة سابقة، وحين إعداد الطعام لهما كانا يختلسان نظرات خسيسة إلى شقيقتي ووالدتي ولما لم أستجب لطلبهما بدأا يمارسان الضغط علي بشتى الأساليب والوسائل للنيل من شرفي.. لقد دعاني هذا الموقف أن أهدد الملازم الأول والرقيب برفع تقرير للمخابرات إذا لم يمتنعا عن ذلك الأمر فما كان من هذين القذرين إلا أن رفعا تقريراً حزبياً بحقي بعد أن كتبا ما كتبا فيه، وبعد أسبوع من هذه الحادثة تم استدعائي من قبل قيادة شعبة الحزب دون أن أعلم لذلك سبباً فعلمت أنها محكمة حزبية ميدانية، عندئذ تساءلت ما الذي اقترفته بحق الوطن ..يالله .. هل سقطت مني كلمة سهواً حتى أدان عليها ..هل قصرت في واجب من واجباتي أم ماذا ؟؟ وفي بداية المحاكمة قال أمين الشعبة: يا رفاق هل نفتتح الجلسة أولاً أم نبحث مشكلة الرفيق (ن)؟ فقلت: لا ابحث في مشكلة الرفيق (ن) إذا كانت هناك مشكلة. فقال: يا رفيق أنت تدعو إلى الدين الإسلامي .... قلت: وما هو الدليل على ذلك هل رأيتني مرة أؤذن في المعسكر أم أني ألقيت خطباً في جمع من العساكر؟ أم ماذا؟! .. فقال:

يا رفيق أنت تطالع كتباً إسلامية فتذكرت أنه شوهد معي كتاب لعباس محمود العقاد .. فقلت: هل هناك حجر على حرية الفكر؟ فأنا أطالع الكتب الإسلامية وغير الإسلامية فما الذي يمنعني من ذلك؟ فقال: رفيق...لا. أنت تصلي أيضاً.. قلت: نعم أنا أصلي وأنا مسلم وهل تتعارض الصلاة مع أهداف ومبادئ الحزب ؟؟... وهل هناك شيئ صريح في دستور الحزب يتنافى والإسلام؟ .. فأجاب: لا ولكن باعتبار أن هذا الوطن يمر في ظروف صعبة ونحن نخوض حرب استنزاف مع العدو فالأجدر بنا أن لا نضيع وقتنا في الصلاة .. فأجبته على الفور أن أطول صلاة لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق بينما أنتم تعاقرون الخمر وتقضون الساعات الطوال تفقدون خلالها كامل أحاسيسكم العقلية أفلا يكون ذلك مضيعة للوقت؟! ثم إذا كانت الصلاة تتنافى وأهداف الحزب فإن سيادة الرئيس إما أن يكون مخادعاً للناس عندما يصلي في الجامع الأموي وهذا لا نرضاه له وإما أن يكون صادقاً فهو لنا قدوة ..فتلعثم ولم يجب.

بعد ذلك قال يا رفيق بامكانك أن تذهب إلى عملك وبعدها تم تجميدي حزبياً لمدة سنتين برتبة نصير. وقد ساءت العلاقة بيني وبين أحد الضباط بعد خلاف على جواز صلاة الجماعة في الثكنات فكان مما قاله لي الضابط: إن عليك أن تمنع صلاة الجماعة لأنها عبارة عن تكتل وإن اتجاهك يا رفيق معروف باستقامته، فأردت أن لا يصل ذلك إلى المخابرات واكتفيت بإعلامك بحقيقة ما يجري خوفاً عليك، كما يزعم، وهذا الضابط

هو ممدوح زهوري وهو برتبة رائد وهو الآن في حالة خطيرة حيث أصيب بارتجاج في الدماغ من جراء عملية الكمين التي نصبها المجاهدون للباص الذي يضم ٣٩ نصيرياً حاقداً.

٩ السؤال التاسع: لقد أثيرت شبهات عديدة وتساؤلات كثيرة حول أعمال الاغتيال التي كانت تجري في سورية في السابق، فما هو بتصوركم سبب ذلك ؟؟

لقد علمت السلطة أنها ارتكبت جريمة كبرى بحق الإسلام والمسلمين وأنها بدأت تتوقع الرد ويجب عليها أن تبعد الصف الإسلامي ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً عن المواجهة الحقيقية.

فبعد أن ألصقت عمليات الاغتيال بالنظام التكريتي مستغلة الجو المشحون بين البلدين سورية والعراق عمدت إلى استغلال الصراع القائم في القطر اللبناني فالصقت التهمة أول الأمر ببعض فصائل المقاومة ثم ألصقتها بالكتائب .. وأخيراً استغلت ذهاب المجرم السادات إلى إسرائيل وركوعه عند أقدام اليهود، واتفاقية كمب ديفيد المخزية لكي يلصق عمليات اجتثاث رؤوس الفساد بأطراف كمب ديفيد.. حتى أوصلت الشعب إلى حالة الملل القاتل من هذه الكلمة. ولكن هذه الأكذوبة لم تلق من يصدقها وذلك بعد أن تجلت حقيقة الأمر وحقيقة الأخوة الذين يستشهدون والمشهود لهم بصلاحهم عند مجتمعهم الخاص والعام والمعروفين على كافة المستويات وأن مثل هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله لا يمكن شراؤهم من قبل إسرائيل

وأعوانها. إن سقوط سياسة الاتهامات هو الذي يدفع النظام للعزف على الوتر القديم، وتر الرجعية والإمبريالية العالمية وما سوى ذلك من الألفاظ الجوفاء التي يعلمهم إياها أسيادهم في أمريكا.

إن الله المتجلي بقدرته لن يتخلى عن العصبة المؤمنة والشعب المؤمن ولن يتركهما في الساحة وحدهما. بهذه الجمل ختم كلامه بالجزء الثاني والأخير من المقابلة، وعلى هذا اليقين تقدم المجاهدون في ساحات الوغى.

• السؤال العاشر: هل يمكن لك أن تعرض بعض الاحداث التي سبقت عملية المدفعية وكيف كان انعكاسها على نفسك؟؟

بعد أن أصبح مألوفاً لدى الجماهير المسلمة أن ترى المخابرات وهي تطوق البيوت وتقتاد الشبان والعلماء، وبعد أن تناقل الناس ما يسمونه عن تعذيب الرهائن والمعتقلين، وعن الطرق الإجرامية التي يمارس فيها هذا التعذيب من جلد على الدولاب وصعق بالتيارات الكهربائية، وتقريض للبشرة بمقارص الحديد وقلع للأظافر، ونفخ للبطن بالمنفاخ وبمختلف الوسائل والأجهزة المستخدمة في موسكو وواشنطن. مع التكتم الإعلامي الشديد.كانت أولى بوارق الأمل تلوح مع ضرب أول دورية للمخابرات في حيّ ميسلون. وكم كانت فرحة الجماهير كبيرة وهي ترى أذناب السلطة مضرجين بدمائهم. ثم تلاحقت عمليات ضرب الدوريات في مختلف أحياء المدينة لتبرز إلى الوجود ظواهر المقاومة الشعبية.

كل هذه الأحداث دارت في مخيلتي وأنا أرى أحفاد النصيريين وهم يقومون بعرض عسكري في ساحة كلية المدفعية مدججين بأسلحتهم الرشاشة. ليقوموا بعد ذلك بقتل وتعذيب المزيد من المسلمين، عند ذلك شعرت تماماً أنه لا فرق بينهم وبين أحفاد صهيون عندما قاموا بعرض عسكري في القدس بعد احتلالها مرددين «محمد مات خلّف بنات».

◂ السؤال الحادي عشر: هل نستطيع القول بأن عملية المدفعية هي رد على هذه الأعمال الإجرامية التي قامت بها السلطة النصيرية الحاقدة ضد المسلمين؟

إن الأمر هو أكبر من حدود الرد الانتقامي بكثير، فالأمر يتعلق بقضية العقيدة والحاكمية والسلطان لله وحده، ولكن عندما تجرد العدو من كامل الشعور بالإنسانية بعد أن أصبح عدد المعتقلين بالآلاف وبعد أن بلغت عملية التعذيب الوحشي أقصاها فكرت للحظة الأولى بأن يحتجز الطلاب كرهائن، وذلك لإسماع صوتنا خارجياً، ولإظهار حقيقة الاضطهاد والتعذيب الذي يتلقاه شعبنا المؤمن، وذلك بواسطة مقابلة تلفزيونية أو إذاعية ولكن كما ظهر من تصرفات العدو السابقة أنه غير مستعد للاستجابة لأي مطلب من مطالبنا لذلك انتهت العملية بنتائجها المعروفة....

◂ السؤال الثاني عشر: كيف تمت العملية بالتفصيل؟

نستطيع القول إن تخطيط العملية تم على عجل نظراً لاقتراب تخرج دورة الصف المتقدم فبعد إجراء الخطة المتفق عليها تم تقسيم المجاهدين إلى خمس مجموعات:

١ ـ المجموعة الأولى مهمتها اقتحام الندوة وضرب الطلاب الضباط.

٢ ـ المجموعة الثانية ومهمتها احتلال المحارس.

٣ ـ المجموعة الثالثة ومهمتها ضرب الضباط النصيريين في دورة قائد كتيبة وتعدادهم ١٦ ضابطاً نصيرياً من أصل ٢٠ بين مقدم ورائد.

٤ ـ المجموعة الرابعة ومهمتها مهاجمة المسبح وكان فيه العميد عساف عيسى مع بعض الضباط النصيريين.

٥ ـ المجموعة الخامسة ومهمتها احتلال المقسم واضرام النار فيه بعد إخراج العناصر واحتلال الإذاعة، إلا أن ضباط دورة قائد كتيبة كانوا في إجازة أثناء ذلك ولم تلتحق حتى ساعة التنفيذ، أما العميد غسان فقد غادر المعسكر قبل تنفيذ العملية بنصف ساعة.

ولقد تمت العملية بعد أن تم فرز الطلاب النصيريين فقط ثم انسحب الأخوة إلى قواعدهم سالمين بعد أن أدت كل مجموعة مهمتها على أكمل وجه..

◂ **السؤال الثالث عشر: ترددت شائعات بأنك لم تقم بفرز بعض الضباط من سنيين ومسيحيين لأنه كان هناك بعض الجرحى والقتلى السنيين والمسيحيين؟؟**

هذا غير صحيح لأن ضباط المخابرات العسكرية وأمن الدولة قاموا بفتح النار على بقية الطلاب الذين جرى فرزهم انتقاماً لما حلّ بالطلاب النصيريين وهذا أدى بدوره إلى قتل وجرح عدد من هؤلاء الطلبة.

* السؤال الرابع عشر: هناك بعض الضباط سجنوا وبعض طلاب الضباط أعدموا فما تفسيركم لذلك؟

بالنسبة للضباط الذين سجنوا أذكر منهم الرائد سليمان طويل والملازم عدنان صفاف، أما الرائد سليمان فقد طلبت منه إذناً بالذهاب إلى الباب الرئيسي بحجة تواجد بعض أقاربي. فسمح لي بذلك وباعتباري ضابطاً مناوباً طلبت السيارة المناوبة وهذا شيئ مألوف وطبيعي عند كافة الضباط، أما الملازم عدنان فليس له أية علاقة فهو ضابط مناوب وأدنى مني رتبة وليس له أية صلاحيات...

والعملية بمجملها استغرقت /١٠/ دقائق فأين لكل منهما أن يستطيع التصرف حيال هذا الموقف الخاطف... أما الضباط الذين أعدموا فأقول إن العدو لم يتورع عن فتح النار وبشكل عشوائي على الطلاب السنيين ودون أدنى تهمة، فهل يتورع عن أن يكيل تهماً اعتباطية وباطلة أصلاً على أي منهم أو ينتزع منهم اعترافات باطلة أيضاً وتحت التعذيب ثم يقوم باعدامهم وهذا ما حصل فعلاً .. أما العريف عبد الراشد الحسين فهو الآخر ليس له دور في العملية وذلك لأنه سائق مناوب فقد قام بمرافقتي دون علم منه لما يجري حوله، وعندما علم بالحقيقة اقتيد بقوة السلاح...

◄ السؤال الخامس عشر: ترددت شائعات بأن الأسلحة المستعملة في العملية كانت من صنع إسرائيل فما مدى صحة ذلك؟؟

إن هذه الشائعات هي مجرد محاولات يائسة من قبل العدو لطمس الحقائق وتضليل الشعب عن حقيقة العصبة المؤمنة، لأن الأسلحة التي استخدمت هي من نوعيات مختلفة منها روسية ومنها رشاشات فرنسية ورشاش أمريكي واحد فقط، وقنابل فرنسية وانكليزية وروسية أيضاً، ومثل هذه الأسلحة متواجدة لدى الشعب وبشكل طبيعي..

◄السؤال السادس عشر: هل صحيح أنك قمت بمغادرة البلاد بعد العملية؟

هذا غير صحيح لأني عندما قمت بهذه العملية مع الأخوة لم تكن هي الهدف الوحيد، ولكنها خطوة واحدة إلى الأمام في طريق الجهاد المباركة ونحن نسعى إلى إكمال هذا الطريق حتى ترتفع راية «لا إله إلّا الله» أو نلقى الله شهداء غير مفتونين.. إن هدف العدو من هذه الشائعة هو أن يظهر للشعب أن هذه العملية قامت بها عصابة بسيطة وانتهت بمجرد أنهم ضربوا وهربوا. وأنها ليست قضية عقيدة أو مبدأ.

• السؤال السابع عشر، إن لكل ثورة مراحل تمر بها وذلك حسب الظروف الزمانية والمكانية والاجتماعية فما هي بعض مراحل ثورتنا الإسلامية؟

لاشك أن كل شيئ يجري بحول الله وقدرته وبتدبير من عنده تعالى، فقد كانت بداية عملنا العسكري صعبة جداً .. ذلك لأن الطليمة المقاتلة كانت تواجه قوى البغي بمفردها. بينما كان العدو يزج في بداية الأمر كافة قواه من مخابرات عسكرية إلى ما يسمى بأمن الدولة إلى قوى الأمن الداخلي وثم جند الحزبيين من أبناء المنطقة مستغلاً بذلك معرفته بأننا لا نقتل السنيين، ولكن هذه القوى أعلنت انسحابها بمجرد تلقي بضع ضربات من المجاهدين، بل إنهم قدموا بطاقات اعتذار للمجاهدين عن هذه الفعلة الشنيعة التي ارتكبوها وأعلنوا استعدادهم للوقوف إلى جانب المجاهدين وبكل ما يملكون، وسرعان ما تفاعلت كافة القوى الشعبية بمختلف قطاعاتها مع فصائل المجاهدين بعد أن أدركوا حقيقة المركة وحقيقة العدو الذي كشف عن وجهه الطائفي السافر عندما زجّ بالوحدات الخاصة وسرايا الدفاع لترتكب الجرائم المتلاحقة بحق الشعب الآمن الأعزل وتقوم بفتح النار على المظاهرات السلمية التي عبر من خلالها الشعب وبعفوية مطلقة عن التزامه بخط الثورة الإسلامية. وكان هذا بمثابة استفتاء حقيقي وغير مزور ونتائجه مجسدة على أرض الواقع وقد سقط الكثير من الشهداء والجرحى من أبناء الشعب معبرين بذلك عن استعدادهم للتضحية بكل

ما يملكون من مال ورجال وسلاح ثم تابع المجاهدون ضرباتهم العسكرية الضخمة بتوفيق الله مما دفع العدو إلى زجّ الفرقة الثالثة المدرعة ودفعها إلى داخل محافظة حلب بالاشتراك مع بعض الألوية الأخرى ظناً منه أنها تستطيع أن تحسم الموقف لصالح الطاغية حافظ أسد. مع العلم أن نسبة النصيريين في هذه القوة كانت مرتفعة جداً ..ناسياً بذلك أن الله المتجلي بقدرته لن يتخلى عن العصبة المؤمنة والشعب المؤمن ولن يتركهما في الساحة وحدهم.

حكايات الجدة أم ياسر

هذه الحكايات نشرتها سابقاً على صفحتي الشخصية في الفيسبوك عام ٢٠١٢ في شهر رمضان المبارك، وعندما كتبتها لم يكن في تفكيري وتخطيطي أن أنشرها في كتاب، ولكني نشرتها في موعد محدد بعد صلاة التراويح، وكان يتابعها الأصدقاء كمسلسل افتراضي في شهر رمضان. كتبت ما كان يخطر على بالي من أحداث، لهذا لم أعرف من أين أبدأ المهم أن أنقل صوراً لما حدث في الثمانينات.

الحكاية الأولى

بما أن غالبية الشباب لا يعرفون كيف بدأت الثورة السورية عام ١٩٨٠ سوف أتحدث لكم بما أعرفه وبما سمعته من الشهيد إبراهيم حرفياً من دون تصرف والله على ما أقول شهيد، لأن حكاياتي هي تاريخ أكثر من أن تكون لتسليتكم في شهر رمضان المبارك.

بعد استشهاد الشيخ مروان حديد تحت التعذيب قرر تلاميذه أن هذا النظام لا يمكن أن يسقط إلا بالقوة فأسسوا تنظيماً سرياً كان الشيخ مروان حديد قد وضع أسسه، وأصبح ينضم إليه كل من كان يؤمن بأن هذا النظام لا يمكن أن يسقط سوى بالقوة، فكانوا يقومون بعمليات نوعية ضد شخصيات

معروفة بإجرامها أو بفكرها المحرض الإجرامي، ولكن هذا التنظيم لاقى من جماعة الإخوان المسلمين اعتراضاً لأنهم لا يملكون القوة على المجابهة، وفضلوا الدعوة، وانشق الكثير من عناصر الجماعة وانضموا لرفاق مروان حديد، وقامت الجماعة بفصلهم من التنظيم، ولكن النظام بعد فترة من التكران للذين يقومون بالعمليات قرروا مواجهة ومحاربة الذين يقومون بعمليات الاغتيال، فاعتقلوا الشيخ عبد الله طنطاوي وساوموه إما أن نعتقل جميع كوادركم أو تقل من يقوم بتلك العمليات. هنا قرر الشيخ أن هؤلاء الشباب منشقون عنا وهم قلة، واعتقالهم أقل كلفة من اعتقال جميع كوادر التنظيم، ووشى بأسماء الشباب الذين انشقوا عنهم والتحقوا بجماعة مروان حديد، هنا اعتقل من اعتقل وهم قلّة، وهرب من هرب، ولكن النظام لم يفي بوعده وأصبح يعتقل كل من له علاقة بجماعة الإخوان، حتى ولو لم يكن منظماً، قريباً.... جاراً... أخاً...، هذا نظامنا من يثق به فإنه غبي وأحمق، لايفي بأي تعهد يقطعه على نفسه مع الآخرين.

وتواترت الأخبار عن التعذيب في السجون وعن الخديعة التي تعرضوا لها، وعن استئصال كل من هو متدين ويصلي، لقد بانت المعركة للشهيد إبراهيم وعدنان عقلة ولآخرين أن المعركة هي حرب لاستئصال الإسلام والمسلمين، فقرروا القيام بعملية المدفعية رداً على النظام ولإيقاظ الشعب السوري بما يحاك لهم بليل مظلم ومن وراء الكواليس. جن جنون النظام واستنكرت العملية حتى جماعة الإخوان.

مسموح للنظام أن يقتل أبناءنا، ويعتقل من هب ودب، ولكن عندما ننتقم لهم نصبح مجرمين وطائفيين، وهكذا تفرق الشباب في الشوارع، لا يوجد من يؤيهم، وملاحقون حتى من أقرب الناس إليهم، واعتقل آباؤهم واخوتهم، وكان للشهيد إبراهيم حصة الأسد من اعتقال أهله وأقاربه، حاول النظام أن يساومهم بأن يسلموا ابراهيم وسيتم العفو عن باقي التنظيم، ولكن شباب مروان لا يمكن أن يقوموا بهكذا عمل، ولن يسلموا أخاً لهم من أجل مصلحتهم، ولكن منهم من عرض عليه الخروج من سوريا، ولكنه رفض. قال لقد لن أخرج من سوريا، إما أن أموت أو ننتصر. والتفت إلى من حوله قائلاً: «من يعاهدني على الموت في سبيل الله؟». قام عدة شباب ووضعوا يدهم بيده وعاهدوه على الموت. (أذكر منهم أيمن الخطيب - موفق سيرجيه عبد الله قدسي- عدنان عقلة - شاب من بيت أبو صالح - وآخرون وليعذرني الناس لنسياني باقي الأسماء).

وأسسوا لحرب عصابات طويلة الأمد، وذلك بإنشاء قواعد سرية، ولم يكونوا يملكون إلا بعض روسيات ومسدسات، فكانوا يضربون دورية الأمن ويأخذون سلاحهم (أول بارودة غنمها الشهيد ابراهيم أهداها لشيخ مسجد الرحمن موفق سيرجيه).

وهكذا بدأ الناس يتعرفون على هؤلاء المجاهدين، وانتفضوا معهم، يقومون بالمظاهرات السلمية، ومنهم من يمدهم بالمال، وبدأت شوكتهم تقوى، وثورتهم تمتد من محافظة لمحافظة، ومن حي لحي، كان المجاهدون

يطلبون من الشعب الإضراب من خلال ملصقات على الجدران، فيستجيب الناس ويغلقون محالهم، فيحاول الأمن كسر أبواب محلاتهم ولكنهم لا يستجيبون ويبقون على إضرابهم، ليفهم النظام أن الشعب مع المجاهدين.

كان الناس ينظرون للشباب على أنهم ملائكة، أو أن ملائكة من السماء تساندهم، ويقصون الحكايات، منها الصحيحة، ومنها الملفقة. وخرج حافظ المقبور في خطاب على التلفزيون يعلن أنه مسلم، كان خطابه خطاب رجل مهزوم، وشعر الكل بذلك، واستبشر الناس بالنصر القريب، ولكن يبدو أن الله يعلم نفوس الناس، فلم يكونوا يستأهلون هذا النصر، فأخذ من الشهداء من أخذ، وابتلى آخرين بالإعتقال، وامتحنهم في ذلك، وخرج آخرون مشردين في بلاد الله.

وللحديث بقية حكايا الجدة أم ياسر...

الحكاية الثانية

مساء الخير المعطر بأحلى وأغلى العطور لكل مجاهد ترك عائلته ليجاهد في سبيل الله ويرفع الظلم عن المستضعفين.

يوم تنفيذ عملية المدفعية

السبت ١٦/ ٦/ ١٩٧٩ خرج من بيته وهو ينظر خلفه، يرى طفليه وهما يرفعان أيديهما الصغيرة يودعانه كعادتهما كل صباح، ولكنهما لا يعرفان أن هذا الوداع قد يكون الأخير، وسوف يكون فارقاً لهم في حياتهما وحياة أولادهما وحتى أحفادهما. هذا اليوم أخذ قراراً سيبقى مثار جدل عبر تاريخ سوريا وسيكتبه التاريخ بأقلام شتى كل يراه من وجهة نظره، منهم من يراه بطلاً، ومنهم يراه مجرماً، ومنهم مخطئاً، ومنهم مصيباً، ثم تختلف تلك الآراء حسب الزمان والأحداث.

سار وهو يعرف أنه ترك عائلة في مهب الريح فهو يضحي بكل شيئ من أجل كل شيئ.

وذهبت كعادتي لبيت أهلي، بت ليلتي عندهم، وعند الظهيرة كنت أغسل الأطفال بالحمام، واذا بالباب يطرق علي، ويقول أحدهم: اخرجي ولا تخافي.

خرجت واذ ببيت أهلي يغص بالجنود المدججين بالسلاح، هذه أول مرة بحياتي أرى مثل هذا المشهد.

نزلت أنا ووالدي وأخي الطبيب، وكان برفقتنا سيارات عديدة مدججة بالسلاح.

وصلنا إلى مبنى، وقالوا إنه أمن الدولة، كانت وجوه الرجال ليست كأي وجوه، كانوا يشبهون الرجال الذين قرأت عنهم بحكاية « البوابة السوداء »، ولكن تلك الوجوه في مصر كيف أتت إلى هنا أيضاً؟

كان الضباط يصرخون ويقولون ويشرحون ماذا فعل زوجي وأنا متبلدة المشاعر، أنظر إليهم ولا أرد ولا أشارك، فقالوا يبدو أنك لا تصدقين ما فعل، خذوها لترى بأم عينها، عندها تكلمت وقلت لا لا أستطيع رؤية هذا، نعم كان حدثاً جللاً كان انتقاماً عظيماً لما حصل ولما يحصل، كيف عرف أن هؤلاء يجب قتلهم قبل أن يستفحل شرهم في البلاد؟؟

كيف استطاع أن يأخذ قراراً كهذا؟؟

ألم يفكر أنهم سينتقمون من عائلته؟؟

كنت وقتها لم أتم العشرين بعد، وأنا حامل في الشهور الأولى، وبعد صراخ وكلام من رجل يقف أمامي جاء رجال آخرون وأخذونا بسيارات مدججة أيضاً لمكان آخر، إنه الفرع العسكري، بما أن الشهيد كان عسكرياً، ودخلت غرفة رئيس الفرع وكان اسمه عدنان رام حمداني، وفي الغرفة حسن خلوف، وأليف وزة، وابن عمتي عبد الجبار شيحان، فهو مسؤول رفيع بحزب البعث، وأصبحوا يشرحون لي ما قام به زوجي، ويجب أن أقول لهم عن كل من دخل

بيتنا وخرج، وأين يمكن أن يكون؟؟ من هذه الساعة يجب أن يكون رأيي أيضاً مثل رأيهم، ويجب أن اعتبره مجرماً، وأن أقطع كل صلة ود به.

قلت لهم لا يأتي لعندنا أحد، فبيتنا صغير لا يوجد به غير غرفة واحدة، ولا أعرف أين يوجد الآن. ولكن هذا الجواب لم يقنعهم، وبدؤوا يزبدون ويرعدون، تارة يكلمونني كأني طفلة صغيرة يريدون خداعها، وتارة بالتهديد بالتعذيب، كنت خائفة في داخلي، ولكن خارجي لا يوحي بذلك، مما جعلهم يحارون في أمري، لا التهديد ينفع معي، ولا الخداع. لهذه الساعة كانوا يستخدمون الأساليب النفسية معي، لأنهم يعرفون أني حامل، ويمكن أن لا أصمد تحت التعذيب وأموت، أو يحصل أي مضاعفات أخرى، ويبدو أنهم اتخذوا القرار الأول، كان ابن عمتي يذهب لبيت أهلي ويسمع من إخوتي الصغار أحاديثهم، وعرف أنه كان عندنا ضيوف، لم يسمح الشهيد لأي ضيف آخر برؤيتهم متعللاً بأي شيء، جاء ابن عمتي وكان يحضر التحقيقات معي، وقال من هؤلاء الضيوف الذين كانوا عندكم؟؟ شعرت أني وقعت بحفرة، هاج الضباط، ووقف رئيس الفرع وهو يصرخ من هم؟، لقد ألهمني الله فقلت ببراءة الأطفال: أني حدثتكم عنهم في المكان الأول، عندها هدؤوا قليلاً وقالوا كل شيء قلته هناك أعيديه هنا. «الحقيقة لم أذكر ذلك هناك» وبدأت أحدثهم أنهم ضيوف من دمشق، أحدهم مريض بمرض القلب ويحمل كيس دواء بيده، كانوا ينظرون لبعضهم ويقولون هؤلاء جاؤوا ليخططوا للعملية، وسألوني عن أشكالهم، فأقول: «والله لا

أعرف، فأنا لا أظهر أمام الرجال». ولكنهم كانوا يريدون أي وصف مهما كلف الثمن. قلت: «رأيت ظهر أحدهم وهو ينزل من السطح، كان طويلاً نحيفاً، يتكلم اللهجة الشامية مع الأطفال وهو يداعبهم». ونزلت الكارثة فوق رأسي، لم يبق ضابط معتقل أو مشبوه، إلا وسار أمامي مطمش العينين، ويسألونه حتى أسمع صوته. يا الله! ما هذه الكارثة!، وكل واحد أظهر به عيباً.

خلال خمسة أيام كان التحقيق بمحاولات نفسية، ولكنهم كانوا يضمرون أمراً، «لم يضعوني بالسجن ولكن في غرف العساكر، أنام وبرفقتي عنصر يجلس بقربي»، كان هذا العنصر المرافق يكلمني وكأنه متعاطف معي، ويسألني إذا كنت أريد أن أوصل خبراً لأهلي، ويكلمني عن ظلم المخابرات، وأنه يكرههم، ولكنه مجبر على تأدية خدمة العلم. في الحقيقة أني صدقته، ولكن ليس لدرجة أن أرسل معه أي خبر. كان في جيبه مسجلة تسجل كل حديث معي، وكان يدخل خلسة ويكلمني ويشد أزري، وفي إحدى المرات رآني أكاد يغمى علي فجاءني خلسة بكأس عصير، وجعلني أشربه بسرعة قبل أن يراه أحد في أحد المرات، دخلت غرفة وكان نائماً فضربه الضابط، وبعد خروج الضابط قال: «هل رأيت ظلمهم؟ ماذا فعلت ليضربني؟» لقد كنت في حيرة عظيمة. سألني مرة قائلاً: «ماذا فعل زوجك؟؟» قلت له: «يقولون قتل الضباط العلوية وترك السنة». وسألني لماذا لم يقوموا بتعذيبك، قلت: «لا أدري ربما سمع زوجي وقام بعمل آخر».

هذا كل ما حصلوا عليه في خمسة أيام، يستخدمون الحيلة معي، وفي اليوم الخامس وإذ بجميع الضباط يدخلون كالوحوش، وينهالون علي ضرباً على وجهي، وعلى رأسي، العلوي منهم يقول: قتل العلوي وترك السني، أما الضباط السنة فكانوا يقولون نحن نخاف من زوجك يا ---ويا--- ويا--

بكل ألفاظ الشوارع المنحطة، ودخل العنصر الذي كان يقوم بالمهمة القذرة، وجاء بدولاب سيارة ووضعوا رأسي وقدمي معاً بداخله، وبدأ ينهال علي ضرباً، ثم جاء آخر يتناوبون على سلخ الغنمة الأسيرة، وهم يسألون: «من تعرفين من أصدقائه، وأين هو المجرم؟...» وبقيت داخل الدولاب اثنا عشرة ساعة، حتى كاد يغمى علي، فأتوا بكأس عصير يجب أن أشربه لأبقى صاحية، ليكملوا المهمة، وضربوني حتى أشربه عشرات الضربات، وأخيراً شربته. كنت أصرخ يا الله، فيكفرون بالله، كنت أقسم أني لا أعرف أين، ولم يعلمني بمكان، ولكنهم يستمرون بتعذيبي أكثر وأكثر.

دخل عدنان رام حمدان وقال والله سوف آتي من يفعل كذا وكذا بك، يهددني بشرفي، أي بالإغتصاب. عندما رأيت هذه الوجوه الكافرة المجرمة «كان قد دخل قلبي رحمة لمن قتلهم» شعرت وأيقنت أن ابراهيم على حق، وأن محاربة هذه الوحوش واجبة، فكفرهم بالله على العلن. لا يمكن لمن بقلبه ذرة إيمان أن يرضى بذلك، ولكنهم يضحكون ويهللون لمن يكفر بالله أكثر. لقد أخذت قراراً بداخلي وأنا تحت التعذيب لا يمكن بأي حالة أن أسلم زوجي، أو أي أحد، فهم على حق وهؤلاء على باطل.

كان الهدوء في الفرع كهدوء المقابر، يقطعه صوت صراخي الذي بدأ يخفت رويداً رويداً. كنت أتمنى الموت، أتمنى أن أسقط جنيني لأتخلص من هذا العذاب، وحوش وقعوا على فريسة، لم أكن يومها بالمرأة الممتلئة العامرة، وكانوا هم يملكون من الأجسام ما يفوقني بعشرات المرات، وهم لا يستحون ولا يخجلون من اجتماعهم علي بالضرب، كنت كخاروف صغير اجتمعت عليه وحوش الغابة، ينهشون لحمه وهو يستغيث ويصرخ، ولكنهم يتلذذون بصراخه وعذابه. وبقيت حتى ساعة متأخرة من الليل (يتبع)

وإلى حكاية من حكايا الجدة أم ياسر....

الحكاية الثالثة

مساء الثورة على كل الجلادين والسجانين بسوريا والوطن العربي

نعم الثورة على كل هؤلاء الجلادين الذين رأيتهم بأم عيني، لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة ولا دين. ماذا يفعلون بهم ليصبحوا بتلك الوحشية؟؟ كنت أنظر إلى عيونهم، كنت أناقشهم وأعرف أن تقارير تذهب للفرع بذلك، أردت أن أكتشف لماذا هم كذلك؟؟ إنهم لا شيء، فراغ في العقلية والنفسية، استطاعوا أن يملؤوه بهذا الحقد والوحشية، كلمت أحد السجانين، طلبني للزواج وعرض علي كل المغريات حتى الهروب من السجن، قلت له: «لا يمكنني أن أتزوج سجاناً وأصافح يداً ضربت وأهانت بريئاً». كلهم عبيد وجبناء، يحاولون أن يظهروا العبودية بأي ثمن كان، حتى ولو كان الثمن كرامتهم، كنت أكرههم وأشفق عليهم.

أعود لأستكمل تلك أحداث تلك الليلة، من كان سجيناً ذلك الوقت في نفس الفرع أظن أنه لازال يسمع صوت صراخي بآذانه، لا أظنه ينسى صوت صراخ امرأة معذبة، يخفت صوتها شيئاً فشيئاً وتقول يالله.

عندما رأوا أن العذاب لم يخرج ما يريدون جاؤوا بألة ولها أشرطة، ربطوها بأصابع قدمي، وشغلوها، وراح جسمي الصغير ينتفض، ثم يكررونها ويكررونها، وجنيني أبى إلا أن يظل صامداً مثل والديه، أنهكني

التعذيب، وانحسر الحجاب عن رأسي وأنا مطوية لنصفين في الدولاب، لا أستطيع أصف أكثر، فهي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن تعذيبي؟

كان والدي رحمه الله لايريد أن أذكر السجن أمامه، أو أي شيء وكنت أحترم رغبته. وأشعر بما يشعر به، فأنا أم ولدي أولاد.

فجأة أخرجوني من الدولاب وتركوني، ولكن ضوضاء وجلبة كبيرة حدثت، كان العناصر يجلبون ألبسة ويضعونها في الغرفة التي أنا فيها، أتذكر نظرات كل العناصر لي، كانت مزيجاً من الحقد والسفالة، ولكنهم ممنوعون حتى من الحديث معي، وكانت هذه نعمة لم تحظ بها سجينة أخرى، لئلا يتطاول علي أحد منهم وأرد كيده وسفالته.

جاء أحد العناصر وقال تعالي، حاولت النهوض والوقوف بصعوبة بالغة، ومشيت حافية القدمين، دخلت غرفة رئيس الفرع وإذ بين أيديهم البذلة العسكرية للشهيد، قالوا لي هل هذه بدلته؟؟ قلت: «نعم»، قالوا: تكذبين؟؟ قلت: «بها إشارة». قالوا ما هي؟؟ أعلمتهم بها، فصدقوا أنها بذلته، فقالوا: «لقد كان هنا وهرب» «الحقيقة لم يكن هو موجود في هذا البيت وهذه البدلة لم يكن هو من لبسها ولكن أحد الأخوة الذين اشتركوا في العملية». أرجعوني لغرفة التعذيب، ولكن لم يقوموا بتعذيبي، غير أنهم كانوا يدخلون ويخرجون ويقومون بتهديدي، كنت ملقاة على الأرض، وضعت حذائي تحت رأسي، كنت متكورة على ذاتي، كان الهواء بالخارج يضرب الجدران والنوافذ، ولم يكن يدخل منه شيء لصدري، أشعر أني

أكاد أختنق، وقلبي الصغير يخفق ويخفق، أضع يدي عليه لأسكته. وكان عنصران يجلسان أمامي يضحكان ويتسامران، وينتظران لحظة البدء بتعذيبي. كلما فتح الباب أرتجف كورقة خريف هزتها الريح لتقع على الأرض. كل لحظة يدخل ضابط ويهددني، انتظري، لم تري بعد التعذيب الحقيقي، كل ما رأيته مزاح... وكنت أتمنى أن يعذبوني لأني أعرف أني لن أصمد كثيراً فجسدي النحيل لم يعد يحتمل، وأدعوا الله في سري أن ينجيني من بين أيدي هؤلاء الظلمة، لقد أيقنت بعدالة القضية التي خرج من أجلها إبراهيم، كيف لايستحقون الموت وهم بهذا الكفر والإجرام؟؟ وقررت قراراً لارجعة بعده، وهو الوقوف مع القضية التي خرج من أجلها الشهيد.

في تلك الليلة هددوا والد همام الشامي إذا لم تقل أين ابنك سنأتي بزوجتك، وسمع صوتاً يقول أعطوها البنطال تلبسه «كانوا يحتفظون بشئ من الشرف لا يعذبون امرأة حتى يعطوها بنطالاً تلبسه»

فظن أنهم أتوا بزوجته فاعترف أين ابنه. كان المنزل في الأنصاري الشرقي، جعلوا الوالد درعاً لهم، واقتحموا المنزل، فقتل أحد الشباب المساعد وأصيب آخران، ولكنهم هربوا جميعهم، حتى الجريح، ورأوا بدلة الشهيد هناك فظنوا أنه هرب، لهذا تعد هناك فائدة ترجى من تعذيبي.

جاء أحد العساكر الذين شاركوا بالاقتحام وجسمه ملطخ بدماء رفيقه، ويحمل بيده بارودة برأسها حربة، ووجهها علي، وهو يبكي قائلاً والله لو يركوني لقتلتك، كانت قريبة مني جداً، واستدار وخرج.

استدعاني أحد الضباط وقال لي: هل تعرفين من قُتل؟؟ قلت: من؟؟ قال المساعد الذي حقق معك البارحة، تصنعت الإزعاج وقلت له كان لطيفاً معي رحمه الله، قال: لتعلمي ماذا يفعل زوجك.

في سري فرحت فرحاً عظيماً نعم كان لطيفاً كالذئب الذي ينظر لفريسته ليلتهمها، عندما خرج قال لرفاقه: سآتي برأس غليص «كان هذا مسلسلاً يذاع بوقته» سمعت ذلك بأذني، وقال لهم: سأقتل إبراهيم اليوسف وأعتدي على امرأته وأترك كل عناصر الفرع يعتدون عليها «المسدس الذي قتل به هو للشهيد كان يحمله قبل الحادثة واشتراه من راتبه فأرسل يقول قولوا لأم العز قتل ذلك المساعد بمسدسها» الكل ينتظر مقتل زوجي ليكملوا ذبح وأكل الفريسة، جبناء ومجرمون والحمد لله الذي نجاني من بين أيديهم وحماني.

وفي المساء جهزوا دورية وأخذوني لسجن حلب المركزي، كنت أذهب برتل مسلح وأرجع برتل مسلح، وأجلس وعن يميني عنصر مسلح وكذلك عن يساري «لم توضع الكلبشات بيدي ولا الطميشة على عيني كنت محظوظة بذلك أيضاً».

ودخلت لغرفة والدة زوجي التي كانت معتقلة أيضاً، ورأت العذاب على جسدي، وبدأت تمسحه وتبكي، وتقول: «لا تحزني، هل قلت لهم أين إبراهيم»؟؟ قلت لها: «لا أعرف، حتى لو عرفت لن أقول». كانت تريد أن تطمئن، كانت امرأة طيبة جداً، كانت أماً، لم تكن حماةً كباقي أمهات الأزواج، والله أترحم عليها صباحاً ومساءً.

استيقت ونمت، وجلست أم الشهيد فوق رأسي تقرأ لي القرآن حتى غطت في نوم عميق، لم أستيقظ إلا على صوت العناصر الذين جاؤوا لأخذي للفرع، قمت فزعة ولبست ثيابي ورجعت معهم للفرع، وأم الشهيد تقرأ القرآن وتنفخ علي، وتشد من أزري، ولكن من الخوف شعرت وكأني سأقع أرضاً، وسبحان الله الذي أعطاني هذه القوة والجلد والتحمل. (يتبع)

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر...

لم يبقى لدي صباح أهديه لأحد، لقد ذبلت كل ورودي وأزهاري، ولم تعد صالحة للإهداء. لقد هرب الفرح من قلبي فلم يعد هناك شيء يفرحني، لقد استوطن الحزن قلبي وخاصة بعد الثورة.

كيف أفرح وأنا أرى الأشلاء تتطاير والدماء تسيل، والأرواح تصعد إلى السماء جماعات جماعات؟. وآنات المعذبين تسكن أذني، واستغاثة الجرحى المتألمين وصرخات وجعهم تهز وجدان وضمير كل مؤمن يرى عذاب الله وحسابه يقيناً لا محيد عنه.

سأكمل حكايتي، التي أصبحت من أصغر الحكايات التي ستروى، مقارنة بما حدث الآن في الثورة، لقد سمعت قصصاً عن عذاب النساء والإعتداء على الفتيات يشيب لها شعر الولدان، ولكن تلك الفترة لم يحكى عنها سوى القليل.

مساء الصبر والنصر لكل الثوار والمجاهدين.

حكايتي هذه كان يجب أن تكون البارحة ولكن أخطأت بنشرها فاعذروني.

لبست ملابسي وأعادوني للفرع، كان الخوف الذي تملكني كافياً لقتل إنسان، خوف من التعذيب، ومن تنفيذ تهديدهم بالإعتداء، وصلت الفرع وأدخلوني إلى غرفة ضابط مجند اسمه محمود استنبولي، كان لطيفاً

معي، وطمأنني أن التحقيق انتهى، ولا تخاف، وسوف نوثق أقوالك، وهكذا حصل. كان يسأل وأجيب وهو يكتب، وبعد أن أنهى الكتابة وضعوني في زنزانات السجن، بل في حمام السجن، ولكن من كثرة عدد المعتقلين لم يبق لي مكان، فقد كنت أنام سابقاً في غرف العساكر، ومعهم، ويحرسني عسكري يجلس طوال الليل والنهار، ويتناوب مع رفاقه في ذلك.

كان معي في السجن الشيخ محمد خير زيتوني، وكان يؤذن لكل صلاة، ويخرجه العناصر ويقوموا بضربه، ويمنعوه من الآذان، كنت أراه من خلال ثقوب الباب، التي أصبحت تسليتي، فأرى من يدخل ومن يخرج، رأيت الدكتور مصطفى عبود وهو عائد من التعذيب ويستفرغ دماً من فمه فوق المغسلة، سمعت تعذيب الطالب الضابط من بيت النجار، يعذبونه فقط لأنه من تادف، ولأن الشهيد أعطاه إجازة قبل العملية، لقد عذبوه عذاباً طوال أسبوع، لم أشهد أحداً تعذب مثله، سمعت الطالب الديري الذي سجل أسماء العلوية من السنة، قالوا له لماذا سجلت قال لهم أمر عسكري، وكذلك هذا الشاب لاقى من العذاب ما لاقى، وعلمت أن النظام أعدمهم، رحمهم الله.

لم أعد أذكر المدة التي قضيتها في زنزانات الفرع، كنت أقرأ ما أحفظ من القرآن وأدعو الله أن ينجيني من بين أيديهم، لقد شعرت ببعض الهدوء والطمأنينة وأنا أرى الشباب المتدين الذي لا يمنعه العذاب من إقامة الصلاة، كنت أفرح لوجودي بينهم، كانوا وكأنهم يشدون من أزري ويرفعون من معنوياتي، وخاصة الشهيد إن شاء الله محمد خير زيتوني، لا زال وجهه

المنير الملائكي في مخيلتي، أحفظ كل ملامحه، والشجاعة التي يتمتع بها قل نظيرها، رأيت والد أيمن خطيب الذي اشترك بالعملية، ووالد همام الشامي.

وسمعت أن أخو الشهيد إبراهيم كان هناك لقد كتب على جدار (التواليت) ذلك. رأيت الكثيرين، ولكن نسيت الأسماء، فقد مضى على هذه الأحداث أربع وثلاثون عاماً.

وبعد عدة أيام أعادوني لسجن حلب المركزي، ولكن بغرفة مقفلة وحيدة وبعيدة عن والدة إبراهيم، وممنوع الاقتراب لأي سجينة كانت الاقتراب مني، كانت التعليمات قاسية من بحقي، فهو سجن نساء فلماذا كل هذا التشديد؟؟

وعرفت مؤخراً أنهم عندما أتوا بي للسجن من بعد التعذيب استلمني ضابط شرطة، ورآني بهذا المنظر المروع، لقد كان وجهي أزرق اللون وعيناي كذلك، هاله ما رأى، فقال لي ماذا تريدين؟ وكان ذلك أمام عناصر الدورية، قلت له أريد ابني الصغير (محمد ياسر) الذي كان عمره عامين وخمسة أشهر وقمت بفطامه من فترة قريبة، وكان متعلقاً بي أشد التعلق، فقال للعناصر: سنأتي لها بابنها وما ذنبها؟؟ ذهب عناصر الدورية ووشوا به، وزادوا وأنقصوا بالكلام، وسألوني ماذا قال لك ضابط الشرطة؟ قلت لهم لم أر ضابطاً، رأيت رجلاً يلبس بيجاما، قالوا: هو ماذا قال لك؟؟ قلت: لا شيء، أنا طلبت منه ابني.

قالوا: ألم يقل لك حرام عليهم لماذا يعذبونك؟؟ قلت لهم: لا.

لم أكن أعرف خلفية تلك الحادثة، لقد استدعوه وقالوا له كلاماً على لساني لم أقله أبداً، ولا أعرف عنه شيئاً، وسجن الضابط وجرد من رتبته، لقد عرفت ذلك بعد سنين، وأقسمت أني لم أتكلم ولا كلمة، فأنا أعرف أن أي كلمة عند المخابرات محسوبة علي، لهذا آثرت الصمت، ولا أجيب إلا إذا سئلت وباختصار. لقد آلمني هذا عندما سمعته، كان برتبة رائد، ولم أعد أذكر اسمه للأسف.

لهذا أصبحت وبرغم وجودي بين الكثيرات، ولكني وحيدة، لا تجرؤ أي سجينة أو شرطي على الاقتراب من غرفتي، يرمون لي الطعام ويبتعدون، كانت بيني وبين السجينات خمس غرف فارغات، لقد كنت في منفى.

لا يوجد أي وسيلة للعيش، لا نار، ولا ماء ساخن للحمام، لقد نزل وزني لحدود مخيفة، حتى عناصر الفرع الذين رأوني لم يعرفوني، كنت حاملاً ولكن لم أعد أشعر بوجود الجنين، فطعام السجن لا أستطيع أكله، ولا يوجد طعام بديل له.

وفي أحد الأيام استدعاني المساعد، داخل السجن، فقد عملوا مفرزة في السجن، كنت قبل الاعتقال قدمت امتحان الشهادة الثانوية فأتوا لي بالنتيجة، وكنت من الناجحات، فرحت لنجاحي أيما فرحة، لأني تزوجت بعد حصولي على الشهادة الإعدادية، وكان حلمي أن أكمل دراستي، ولكن عاداتنا البالية تفضل زواج الفتاة الصغيرة، ولهذا صممت على متابعة الدراسة وأنا متزوجة، كان حلمي أن أدرس الشريعة، وأتخصص بالفقه، لأني رأيت ضرورة لإجتهادات جديدة تواكب العصر وتجددها. (يتبع)

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر.....

مساء الخير لكل المجاهدات الثائرات ضد الكفر والظلم.

قبل أن أخرج لمقابلة المساعد بعدة أيام جاؤوا بعدة أخوات معتقلات، كن يعملن على إيواء الشباب الملاحقين، وخاصة المجموعة التي استشهدت بباب النصر، حيث كن يعملن على إيوائهم كل ليلة في بيت. كانت مهمة شاقة، واعتقلن على أثر هذه المساعدة، الأخوات: ندى محوك وابنتها سوسن مرعشي، ثناء أبو صالح، نعمت قصاص وأختها سمية قصاص، سمر كيخيا. ولتعذرني الأخوات إذا نسيت اسماً. كن جميعهن خريجات جامعيات، وكن على قدر كبير من الدين والعلم والثقافة، وكنت أصغرهن عمراً. لقد تفاجأن بوجودي لأن النظام أشاع أن الشهيد أرسلني والأولاد لتركيا قبل العملية، ولم يعلم أحد بوجودي بالسجن إلا القليل من المقربين لعائلتي.

فرحت وحزنت لوجود الأخوات، فكن يخرقن التوصيات ويأتين أمام غرفتي ويرسلن لي الأشياء. وطلبت الأخت ندى من الضابط أن يسمح لأخيها بالذهاب ليعلم أهلي بالمجيء لزيارتي، كن على قدر كبير من الشجاعة، طلبن لي الطبيب للإطمئنان على الحمل، وكن يجبرنني على تناول الطعام الضروري لكل حامل، كن يخبئن الأطعمة ويؤثرنني به،ا أحمل لكل واحدة منهن ذكرى رائمة، كن أخوات في الله فعلاً لا قولاً فقط. ورأيت

منهن فقط الخالة ندى محوك ولم أرى الأخوات طوال هذه المدة ولكن على الفيس التقيت بالأخت ثناء أبو صالح »

عندما أتيت من مقابلة المساعد أعلمت الجميع أني ناجحة، فرحن لي، واحتفلنا على طريقتنا بهذا النجاح، تمنيت أن يعرف الشهيد بنجاحي فقد كان يشجعني على الدراسة، وعندما أقصر بالدراسة يقول لي: « إذا رسبت سأوزع صينية من الشعيبيات على رسويك »، كان ذلك من أجل تحفيزي أكثر على الدراسة، لم ينس وهو ملاحق أن يرسل من يأتي له بالنتيجة فهو يعرف قيمة العلم ونتائجه على الأسرة والمجتمع، كان يوفر من ثمن طعامه ويشتري كتباً من جميع العلوم الدينية والسياسية والتاريخية، وكنت من محبي القراءة، استطعت بزمن قصير أن أحصل على ثقافة عامة بجميع العلوم.

لقد طلبت الأخوات مقابلة الضابط المسؤول عنا، وطلبن منه أن يخففوا عني، ويفتحوا لي باب الغرفة كبقية السجينات، فوافق. وأصبحت أخرج وأتجول في جناح السجن كالبقية.

وقال لهم الضابط: هل تعلمن من كان ينام ضيفاً عندها؟؟ قلن: من؟؟ قال: حسني عابو، لقد اتفق مع زوجها أن يقولوا لها مريض من دمشق، هكذا قال باعترافاته.

رحمك الله يا أخي لقد أزلت عني أمراً عظيماً، لقد اقتنعوا أني لا علم لي بشيء وأني بريئة مما يظنون أني أخفيه عنهم.

فقالت له الأخوات: وما ذنبها؟ زوجها أخفى عنها. ألم تروها صغيرة ولا يمكن أن يعلمها زوجها بشيء؟؟ قال: نعم. هكذا قال حسني عابو باعترافاته. وأصبحت أمضي يومي كله بين ومع الأخوات، وليلاً أنام بغرفتي.

حتى جاء اليوم الذي أخذوني ورأيت جثامين الشباب الخمسة الذين استشهدوا بباب النصر، لقد أعطيت أوصافهم للأخوات، فعلمن أن هؤلاء الشباب من كن يعملن على إيوائهم، وبعد اعتقال الأخوات لم يجدوا من يؤويهم فكشف مخبر مكانهم، وقاوموا واستشهدوا.

لقد عم حزن شديد على استشهادهم، ولكنا لم نعلم والدة زوجي باستشهاد ابنها اسماعيل، كنت أغطي حزني عليها بأني مريضة، «وبالفعل كنت مريضة، فرائحة الدم تزكم أنفي، ورؤيتهم ماثلة أمام عيني، وهم شهداء ومضرجون بدمائهم، وهي المرة الأولى التي أرى فيها بحياتي أمواتاً وعن قرب».

وطلبت الأخوات مقابلة الضابط المسؤول بإلحاح، وأنه لا يمكن أن أنام وحيدة في غرفتي وأنا على هذه الحالة من المرض والتعب النفسي، فوافق بعد إلحاح شديد، ومن ذلك اليوم أصبحت أنام مع الأخوات وليس بمفردي.

مهما كتبت من كلمات فلا يمكن أن أوفي حق هؤلاء الأخوات، كنت معجبة بهن أشد الإعجاب، كانت كل واحدة منا تتكلم عن زوجها وأولادها وأهلها، وعندما تكلمت لهم عن الشهيد قلن لي تقولين أنك تحبين عمر بن الخطاب وأنت عندك عمر!. تعلمت منهن الكثير، وأكثر شيء تعلمته هو أني أضعت

فرصة كبيرة، وأن الشهيد كان زوجاً لامثيل له بين الأزواج، ولا بين الرجال، هكذا هي الزوجة الصغيرة، لهذا رفضت وأرفض زواج الفتيات الصغيرات.

جميع الأخوات كانت تأتيهن زيارات إلا أنا، فقد كان ابن عمتي البعثي الكبير يقول لوالدي لا تذهب لزيارتها خوفاً على الشباب، وكان يقول للضابط قل لها أهلها تبرؤوا منها، كان من الحقارة بمكان، فولاؤه للنظام دعاه أن يتبرأ من شرفه، مع أننا تربينا كالأخوة. لكن الضابط كان أفضل منه فسمح لأخ الأخت ندى محمود أن يذهب بنفسه لأهلي ويطلب منهم زيارتي.

وجاء أهلي بعد ثلاثة أشهر من اعتقالي، لم أر أولادي خلالها أبداً، وهذه المرة الأولى التي سأراهم، ركضت صغيرتي فردوس وعانقتها وعانقتني وهي تحاول أن لا تبكي فقد أوصتها أمي أن لا تبكي أمامي، ولكن ياسر وقف واجماً لقد كان غيابي وغياب أبيهم المفاجئ صدمة كبرى لم يستطيعوا تجاوزها إلى اليوم، فسألته من أنا؟؟ فقال: ماما. لم يكن عندما تركته يتكلم جيداً ولكن الآن يتكلم بطلاقة، فرحت لسماعه، ولكنه كعادته إلى الآن يسمع أكثر من أن يتكلم، يسمع للجميع ويحلل ويفكر ثم إذا عرف أن كلامه يمكن أن يأتي بنتيجة يتكلم وإلا فيسكت.

حاولت أن أبقى صامدة أمام أهلي لأرفع من معنوياتهم، وانتهت الزيارة وودعتهم، ولكن ناراً اشتعلت بقلبي أكثر من ذي قبل، كنت أنظر إلى السماء من خلال النافذة وأقول يا الله، معقول أن أبقى مدة أطول بعيدة

عن أطفالي؟؟ كيف سأطفئ لهيب نار الأمومة المشتعل في قلبي؟؟ ولكن الله تعالى استجاب دعائي وخرجت مع كل الأخوات بعفو عام، ولكن بقيت تحت الإقامة الجبرية، وكان من أجل وضعي وأنا حامل، لقد اجتاز جنيني الإمتحان الأصعب وصمد.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر....

الحكاية السادسة

صباح الخير لكل المستضعفين في الأرض من الرجال والنساء والولدان.

وهكذا فرج الله عني وعن الأخوات، فرحت للحرية، ولكنها كانت مغلفة بخوف عميق أني سأعود يوماً للسجن كيف؟؟ ولماذا؟؟ وفي أي توقيت؟؟ لا أعلم!. عشت في بيت أهلي كان والدي ووالدتي رحمهما الله يحبون الشهيد حباً كبيراً ويحترمانه، قبل الملاحقة ومنذ تزوجنا، وبقيا على هذا الحب له، كان والدي يؤثر ياسر عن أخي الصغير «عبد الله» وابنتي فردوس عن أختي الصغيرة «منار» لم نعرف أن والدي وضع أحد إخوتي الصغار على أكتافه ولكنه كان يضع ياسر على كتفيه ويحمله، كان حنوناً كريماً رغم ضيق ذات اليد، وحضن أولادي بكل محبة وكرم، «لقد وضعت ابنتي فردوس ولداً

وأسمته على اسمه اعترافاً بالجميل له، رغم كل ما أحاطوني به من رعاية وحنان ولكن الخوف بقي المسيطر علي، كلما سمعت صوت الرصاص أو سمعت إشاعة أن الشهيد قد أصيب، وكلما رأيت دورية مخابرات تقف تحت عمارة بيتنا، كان تأثير العذاب علي كبيراً، وخاصة وأنا حامل، لقد تعرضنا لمحاولة اغتيال ولكن لم تنجح، أحد أخوة قتلى المخابرات يسكن في بناية أمام عمارتنا، وكان يراقبنا لتسنح له الفرصة ليقنص ياسر، فقد كان مستهدفاً حتى من أبناء عمتي البعثيين، فكانت تأتيني التهديدات إذا قتل فلان فسوف نقتل له ابنه ياسر. كنت أنظر إلى ياسر ولم يتم بعد الثالثة من عمره فينتفض جسمي وأنا أتخيله مقتولاً، كل تلك الظروف جعلتني في حالة نفسية سيئة للغاية. كانت دورية للمخابرات تحت عمارتنا ليل ونهار تنتظر خفية أن يقوم الشهيد بزيارتنا فيمدوا لقتله، ولكن الشهيد لم يكن بهذه السذاجة والسطحية ليأتي لزيارتنا، فقد ودعنا الوداع الأخير عندما قرر أن يقوم بالعملية.

كانت حلب تفور وتغلي، لم يبق شارع ولا حارة ولا مسجد وإلا خرج الناس بمظاهرات فيع ضد النظام. لم أر في أي مظاهرة رجلاً يحمل شعاراً أو راية، الكل يصدح بحنجرته وينشد الأناشيد الدينية، وينادون بمدنان عقلة رئيساً وإبراهيم اليوسف وزيراً للدفاع. ومع كل هذه الأجواء الرائعة التي تبشر بنصر قريب كان يراودني هاجس خوف وقلق، كنت أظنه ناجم عن حالتي النفسية والعذاب الذي لاقيته من قبل، والخوف الذي كان يعتريني

من أن ألد طفلاً مشوهاً من الكهرباء، والخوف الذي عشته، كان جميع من حولي لديهم هذا الهاجس. وحان موعد ولادتي، والحمد لله رزقني الله طفلاً، كل من رآه يقول هذا ملاك وليس طفلاً، فرحنا بمولده مع حزن عميق، وتناقل الناس الخبر بأن المجاهدين زادوا مجاهداً، ولكن فرحتنا لم تكتمل فقد استشهد ثمانية شباب بقاعدة الصاخور، وأذكر منهم: «أيمن الخطيب وموفق سيرجيه وستة آخرين لا أذكر أسماءهم»، كانت ضربة موجعة للناس، فهم من خيرة المجاهدي،ن والشهيد موفق يعرفه غالبية أهل حلب، فهو خطيب وإمام مسجد الرحمن، كان المصلون يوم الجمعة يتقاطرون إلى مسجده لسماع خطبة الجمعة من جميع أنحاء حلب. خيم علينا حزن كبير، وطغى على فرحتنا بمولد اسماعيل، الذي تسمى على اسم عمه الشهيد. لقد سمع والده بمولده وفرح لذلك وتقبل التهاني من الناس في كل مكان، وخاصة أنه لم يولد مشوهاً، على العكس كان طفلاً جميلاً وبصحة ممتازة، لقد عوضني الله به عن العذاب الذي لاقيته، ولكن أصبح مع أخيه مستهدفاً للانتقام. مر عشرون يوماً على مولده، وكان ذهابي مع والده بعملية نوعية قاموا بها، سأحدثكم عنها لاحقاً.

والى حكاية من حكايا الجدة أم ياسر....

حكايتنا اليوم تدور أحداثها في إحدى مراكز الطليعة المقاتلة، كان المركز عبارة عن بيت عربي، يقوم المجاهدون بعمل مخبأ سري حسب تصميم المنزل، ويقوم على خدمة المركز زوجة الأخ صاحب المنزل.

جئت لهذا المركز بعد عملية توعية قام بها الأخوة حتى استطاعوا إخراجي من منزل أهلي، لأن المخابرات وضعوا دورية مرابطة تحت عمارة أهلي، فقام الشباب وتنكروا وكأنهم من عناصر الأمن، وشهروا أسلحتهم «لم يكونوا مثل اليوم يحملون أسلحتهم علناً»، وطرقوا باب المنزل، وكان قائد الدورية شاب من اللاذقية اسمه (عبد الكريم مثلا)، وكان يتقن اللهجة العلوية، فقال: مطلوبة للأمن للتحقيق هي وأولادها، وهكذا خرجت من منزل أهلي. كانت الدورية من أمن الدولة هي من ترابط تحت العمارة، فظنت أن الأمن العسكري يريد اعتقالي، فقامت بتفريق الناس الذين تجمعوا، وكان باقي الشباب يحاصرون المنطقة سراً، وهكذا انطلقت السيارات باتجاه كروم الفستق والزيتون، لقد أيقنت أن الموت والانتقام ينتظرانى أنا وأولادي الثلاثة، وتوقفت السيارات، وإذا بزوجي ومعه الشباب المجاهدون، وراحوا يضحكون فرحاً بالفوز والسلامة، وقال لي الأخ الذي يتقن اللهجة العلوية سامحينا يا أختي. وهكذا كنت أنا والأخت صاحبة المنزل نقوم بخدمة المجاهدين. وفي كثير من الأحيان نقوم بالحراسة عنهم، وبعد استشهاد

زوجي بقيت معهم أقوم بواجبي مع الأخت التي كان لديها خمسة أطفال «زوج الأخت أحمد كريز»، كانت غرفة الأخوة مبنية على السطح، أما المخبأ فقد جهز ببناء جدار في الغرفة التي تحت غرفتهم، وكانت فوهة المخبأ وراء باب غرفة الأخوة عبارة عن أربع بلاطات ملتصقات ببعضهن، وفي المنتصف ثقب نضع فيه أنبوب ماء ليسهل رفعه، أثناء التفتيش ينزل جميع الأخوة مع أشيائهم لداخل المخبأ، ونقوم بإغلاق الفوهة، ونضع خزانة صغيرة فوق الفوهة، وعندما يأتي الأمن للتفتيش العام، يفتشون ما شاء الله لهم أن يفتشوا، فلايعثرون على شيء، وبعد انتهاء حملات التفتيش نفتح الفوهة، وتعود الحياة كما كانت من قبل.

في الصباح درس الرياضة، ثم طعام الفطور، ثم يذهب كل واحد لعمله المنوط به، ونحن نعد طعام الغداء، ونقوم بغسل الملابس والإعتناء بالأطفال الثمانية، ولكن عندما يريد أحد الشباب الخروج من البيت يخرج الأطفال واحدانا وراء هذا الأخ، لنوهم الجيران أنه عم الأولاد، وإذا كان هناك سلاح يراد جلبه نخرج جميعنا وراء الأخ وهو ذاهب، ونوصيه بصوت عال أن اجلب لنا خضاراً أو فاكهة من القرية، أو عرانيس الذرة، وفي المساء تأتي الأكياس التي تحوي الخضروات كما أوهمنا الجيران، فنحن عندنا أراض ومزارع، وهكذا تدخل الأسلحة وتخرج سراً بالليل فرادى، وعندما تكون هناك عملية يريدون تنفيذها يكون جميع من في المنزل في حالة استنفار، من اسماعيل وسمية حتى أمير المركز، كل له عمله، ونبقى بحالة قلق وحزن، ونسأل

أنفسنا من يا ترى سنفقد من هذه العائلة الرائعة المتماسكة المتحابة؟ نعد كل أخ باسمه من «أبو فيصل عبد الكريم دانيال -أو عبد الكريم مثلا أبو قاسم -أو أحمد ريحاوي أبو عمر -أو أبو سليم نذير زنابيلي -أو أبو ثابت لاأعرف اسمه الحقيقي إلى الأن -أو أبو هيثم شاب من منق (عبد الرحمن عثمان) كان مهندساً زراعياً - و أبو سالم عمر خشفة وقد اعتقل وأصبح عميلاً وهو حي إلى الأن - أو صاحب المنزل أو زوجي إبراهيم اليوسف أبو خليف أمير المركز» وهكذا حتى تنتهي العملية المخطط لها، وعندما يرجعون سالمين تغمر الفرحة أركان المنزل، وتعم البهجة بالإنتصار والأمل أن الله سينصرنا مهما طال الزمن، ومهما قدمنا من تضحيات. كان الأخ أبو ثابت هو أستاذ الأولاد «لقد سمعت أنه الحي الوحيد من عائلتنا وأبحث عنه ولا أحد يجده اذ لا أعرف اسمه» لقد قال من الظلم أن يبقى الأولاد من دون تعليم، فاشترينا لوحاً خشبياً، وفي ساعة محددة يصعد الأولاد «فاطمة كريز - بدرية كريز - هدى كريز - فردوس اليوسف - ياسر اليوسف» يحملون دفاترهم وأقلامهم وهم بكامل النظافة والترتيب، ويقوم الأخ بتدريسهم، والكسول يعاقب، والمجد يكافأ. بقيت عائلتنا سعيدة رغم الخوف والقلق، حتى فقدنا أميرنا الشهيد رحمه الله إبراهيم اليوسف.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر.....

مساؤكم خير محمل بعبق الورود الدمشقية الحمراء التي اصطبغت سوريا كلها بلونها، لون دم الشهداء الأبرياء.

حكايتي اليوم سأحاول فيها نقل صورة عن إحدى المعارك التي كان يخوضها شباب قاعدتنا بالتنسيق مع قواعد أخرى، وأتمنى أن أستطيع ذلك ببساطة ووضوح.

العملية هي ضرب دوريات المخابرات على الطريق الواصل بين بستان القصر والطريق المؤدي لكاراجات الباصات. بدأ التحضير والتخطيط لها قبل ثلاثة أيام وذلك بالتنسيق مع قاعدة أبو ربيع وقواعد أخرى، صحيح أن جميع عملياتهم كانت ضرب الدوريات أينما وجدت، ولكنهم الآن يجب أن يخططوا للعمليات لتكون الضربة أقوى وأقسى. كانت قاعدتنا مثل خلية النحل، فمنهم من يخرج ليكتشف أرض المعركة، وأين سيقف كل مجاهد، وكيف ستتم عملية الانسحاب، فهي الأهم بعد انتهاء المعركة، وأي الطرق ستسلك لئلا يتتبعهم أحد حتى يصلوا قواعدهم سالمين. لم يكن الخوف من العدو هو الأهم ولكن الخوف الأكبر كان من المخبرين المنتشرين في كل حارة، لقد اشترى النظام ذممهم ببضع دريهمات كما اشترى الآن ذمم آخرين، فالنظام باع سوريا ليبقى في الحكم، وهو مستعد للتضحية بكل طاقات سوريا وتبديدها من أجل بقائه بالحكم.

كان كشف أي قاعدة مصيبة على كل التنظيم، فثمن المركز ممكن أن لا يعوض، والسلاح الذي سيبقى لأنهم لن يستطيعوا حمله، والشباب الذين سيتشردون من الصعب إيواؤهم في قواعد أخرى ريثما يتم تجهيز قاعدة جديدة لهم، ففي هذا خطر على القاعدتين إذا اعتقل أحد ما، لهذا كان الانسحاب بعد المعارك من أصعب مراحل المعركة.

كان لهذه العملية صدى كبيراً ورهبة، فالشهيد إبراهيم لن يشارك بها بنفسه، ولكن سوف يقود المعركة عن طريق اللاسلكي، يوجه المجاهدين ويعطيهم الأوامر، وسيكون قريباً من أرض المعركة، في إحدى البيوت التي استضافته لذلك.

هذه المعركة رسمها الشهيد على الخريطة، وثبت عليها مكان كل مجاهد، وطرق الانسحاب، وهي منشورة على ما أظن بإحدى المجلات.

كان شبابنا رحمهم الله على أتم استعداد، فليست هي المعركة الأولى التي يخوضونها، ولكنها الأولى بدون الشهيد.

أما نحن فكنا كعادة كل النساء ننظر للجميع نظرة مودع، ونقول من سنفقد منكم؟؟ ونحبس دموعنا لئلا يراها أحد، وكانت مهمتنا أن نقوم بالحراسة عوضاً عن الشباب، ونراقب باب المنزل لنستطيع إدخال الشباب من دون أن يلمحنا أو يشعر بنا أحد من الجيران.

وخرج الشباب الواحد تلو الأخر، كل بطريقة ما، فالخروج والدخول للقاعدة من أصعب المهام، من أجل أمن المركز.

انتشر المجاهدون في مجموعات صغيرة، مؤلفة من خمسة مجاهدين، يربطون طريقاً طويلاً يوصل بين عدة مناطق، وبدأت المعركة بإطلاق إحدى المجموعات طلقات بالهواء، ليعلموا الأمن بوجودهم بتلك المنطقة، فيوقعهم بكمين نصب لهم، ثم يطلبون العون فتأتيهم المؤزارة من طريق آخر، فيقع الآخرون بكمين أخر نصب لهم على غير ذلك الطريق، ومن ثم تطلق مجموعة أخرى الرصاص بالهواء فتأتي المؤازرة وتكون مجموعة من الشباب الآخرين قد نصبوا لهم كميناً آخر، وهكذا أوقعوا دوريات عديدة في فخ لايستطيعون الخروج منه، وكل مؤازرة تأتيهم تقع في كمائنهم. كان الشهيد يعطي التعليمات للمجاهدين عن طرق اللاسلكي، وكان الأمن يسمعون صوت إبراهيم اليوسف وهو يوجه شبابه، كان صوته رعباً آخر يفوق رعب الضربات، وانتهت المعركة بحصيلة وفيرة من القتلى، وانسحب الشباب بهدوء كل لقاعدته سالماً، ولم يستشهد أي واحد منهم، وكانت هذه هي الفرحة الكبرى. وعم فرح كبير بالنصر والسلامة وكانت هذه المعركة علامة فارقة في الثورة.

لقد عرف النظام أن الشباب في تطور كبير في إدارة المعارك، فقام باعتقالات لأقارب إبراهيم، منهم إخوتي الثلاثة الذين كان أكبرهم لا يتعدى الثامنة عشر، وقد قاموا بتعذيب أخي الصغير عذاباً استغربه كبار السجناء في التنظيم، وذلك ليستطيعوا أخذ معلومات عن مكان وجود الشهيد، وهل لهم صلة به وبي وأين؟؟، ولكن الحقيقة لم تكن لي وله أي صلة بالأهل والأقارب خوفاً من ذلك.

قد يقول أحد شباب اليوم أني أبالغ بما أتكلم به عن خوف النظام من الشهيد، ولكن الجيل الذي عاش تلك المرحلة يعرف صحة ذلك، لقد كان أسطورة للنظام والناس يتحدثون عنه ويطلقون لخيالهم العنان بوصفه، ولكنه كان مجاهداً عادياً لا يخاف في الله لومة لائم، وكان جميع المجاهدين على هذه الدرجة من الإيمان والشجاعة.

رحمهم الله جميعاً وحمى الله مجاهدينا الآن، ووحد صفوفهم، ونقاها من الحيف والغرور والأنانية.

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر .....

مساء الخير والبركة لكل إخوتي وأبنائي.

سألني بعض الأخوة أن أشرح لشباب اليوم الطريقة المتبعة لعمل المجاهدين أيام الثورة الأولى.

كان كل سبعة أو ثمانية شباب يسكنون بيتاً يسمى قاعدة انطلاق لعملياتهم، وتحتضنهم أسرة تغطي على وجودهم. أول قاعدة أسسها الشهيد بمنطقة الفردوس قرب مدرسة الصناعة، يعيش الشباب داخل المنزل حياة عسكرية بكل ما للكلمة من معنى، يجب أن تكون الجاهزية دائماً موجودة، ويخطط القائد للعملية، ويقوم عدة شباب بالاستطلاع. قد تستغرق العملية أكثر من أسبوع إذا كان الهدف كبيراً، وذلك توخياً للحذر من أن يصاب مدني واحد بالعملية. كانت عملياتهم على الغالب تقوم على ضرب دوريات المخابرات بكل مكان وجدوا فيه، ولما عجز النظام عن اعتقال الشباب بكل الوسائل، جاء بوحداته الخاصة، ولكنهم لاقوا مصيراً أسود، فقرر إنزال الجيش وتطويق كل حلب وتفتيشها بيتاً بيتاً، كنا نسكن بمنطقة تل الزرازير بالسكري، بالمركز التي حدثتكم عنه، وبدأت طائرات الهليوكبتر برمي المناشير، التي تعطي التعليمات للناس، ومنذ الفجر قام الشباب بتجهيز كل أشيائهم وانزالها للمخبأ، كان التطويق بعيداً عنا تقريباً، ولكن وجود المنزل ذي الطابقين في مثل هذه الحارة الفقيرة كان محل شبهة، وفجأة

ونحن بانشغالنا طُرق الباب، ولم يكن الشباب قد دخلوا المخبأ بعد، وركضت بنات صاحب المنزل نحو الباب، وقالوا لعناصر الجيش نبحث عن المفتاح، ركضتُ بسرعة البرق، ونزل الشباب إلى المخبأ وغطيت عليهم الفتحة، ووضعت خزانة صغيرة فوقها، وبما أننا تأخرنا بفتح الباب راحت دبابة تهدر أمام المنزل، وسيارة الإسعاف يدوي صوتها مرعباً القلوب، وصوت مايكريفون يطلب من الناس الابتعاد، كانت غرفة الشباب تغص بأشياء تدل على وجودهم، استجمعت كل قواي وطرقت على فوهة المخبأ أن استعدوا يمكن أنه كشف أمرنا، فتحت الفتيات الباب وقال عناصر الأمن لهن هل تخبؤون سلاحاً، قلن لا. ولكننا أضعنا مفتاح المنزل لئلا يخرج أخوتنا، صعد العناصر السطح فما كان مني وبهداية من الله إلا أن حملت فراشاً كبيراً ووقفت بباب الغرفة، وقلت للعناصر نحن نقوم بتنظيف الغرفة «نعزل باللهجة الحلبية».

سأل الضابط صاحب المنزل هل عندك زوجتين قال له لا هذه أختي جاءت لمساعدتنا لأن زوجتي قد ولدت، قال له من هم أولادك قال هؤلاء وأشار إلى أولاده، سألهم هل يوجد لديكم مثل هذا، يقصد البارودة، قالت لا. سأله صاحب المنزل هذه طفلة، تخيل أنها قالت نعم ماذا كنتم ستفعلون؟، قال سنهدم المنزل فوق رؤوسكم. ونزل الضابط وعناصره، وصعد آخرون، وبين أول دورية والأخرى، رأيت مسدساً وطلقات ومجلات نسيهم الشباب، أخذهم أبو حسن ودفنهم بكومة تراب موجودة على السطح، وصعد أحد

العساكر ونظر لكومة التراب وأخرج المسدس والطلقات وأعطاهم لصاحب المنزل قائلاً ضعهم عند النساء، بكى أبو حسن وأراد تقبيل المجند المدجج بالسلاح، وقال لي أخفي هؤلاء وهؤلاء، وقال اتركوا باب المنزل مفتوحاً لئلا تأتي دورية أخرى تفتش، ونزل الدرج، ونحن في حالة ذهول، وهكذا أصبح فراش الأخت مليئاً بالذخائر، وكانت قد ولدت منذ أسبوع طفلة أسماها أبو قاسم (عبد الكريم منلا) سمية.

ذهبت الدبابة وجميع العسكر من حارتنا، لقد ظنوا أننا نخبئ سلاحاً، لكنهم لم يروا شيئاً، ورأوا أطفالاً ونساءً وامراة نفساء في فراشها، ونحن نلبس لباس القرويين الفقراء. كنت أقول والله هذا الضابط أعرف من هو ولكن من هول الموقف لم أتذكر أين رأيته، «كان ضابط المخابرات أليف وزة يحمل صورتي ويبحث بين النساء لم يخطر بباله أن هذه القروية هي أنا من يبحث عنها ليعلم مكان زوجي»، وبعد ساعة أصبح رتل العسكر بعيداً عن المنزل، فتحنا فوهة المخبأ، كان ابراهيم الأول في أعلى السلم، ويحمل قنبلة منزوعة الصاعق حتى لو كشف أمرهم يكون الأول ويرمي القنبلة، ويكون الفدائي الأول، خرج والدموع تملأ عينيه، وهو يقول منصورون بإذن الله، منصورون، ثم خرج باقي الأخوة من المخبأ وتوضؤوا وصلوا شكراً لله، وتلا ابراهيم آيات من سورة الأحزاب ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب/١٠-١١)، حقاً لقد زلزلنا

زلزالاً شديداً وعرفنا أن كل احتياطاتنا لا تساوي شيئاً إذا لم يحفظنا الله ويرعانا.

كانت مرجوحة صغيري أحد أطرافها مدقوق في جدار المخبأ وصوت صريرها يتماهى لوالده وهو يبكي، وأنا مشغولة عنه بغرفة الشباب ولملمة الأغراض وإخفائها، قال له «لك الله ياولدي لك الله ياولدي وعيناه تدمعان وهو يسمع بكاءه» أما الأخت صاحبة المنزل فكانت في كرب عظيم، وتخفي تحت فراشها مخزن أسلحة وأشياء وأشياء، لا أستطيع ببضع كلمات أن أصف حالة كل من بالمنزل، لقد عبرت عنا الآية الكريمة أشد تعبير وأصدقه، كان صوت هدير الدبابات يهز قلوب الناس هلعاً وخوفاً فكيف نحن؟؟ مواجهة الموت ليست بالأمر السهل كما يظن الآخرون، فالمجاهدون يخافون وترتعد قلوبهم، ولكن هذا الخوف لايثنيهم عن خوض غمار الجهاد، لقد عظم الله أجر الشهيد لعظم الموقف الذي يتعرض له، وهو بكامل إرادته، لا مجبراً عليه. وانتهى هذا اليوم العصيب، ولازل قلبي يخفق عند سماع صوت يشبه صوت سلاسل الدبابة وهي تهدر.

وإلى حكاية من حكايا الجدة أم ياسر.....

مساء الفل والياسمين لكل أحرارنا وثوارنا ومجاهدينا.

اليوم سأخرج من أجواء الحزن والخيانة وسوف أحكي لكم ما كان يجري معنا من نهفات مضحكة، لا تظنوا أن كل حياتنا همٌّ وقلق وحزن، على العكس، كنا نعيش لحظات فرح وسعادة كما كل الناس.

في أحد الأيام جاء لقاعدتنا اثنان من الشباب، ولكنهما لم يكونا مدربين على حمل السلاح، وبما أنه قد تمت تزكيتهما فقد وصلا إلينا «لأنه لا يمكن لأي أحد أن يأتي لقاعدتنا بدون تزكية من كثيرين»

قرر أمير المركز أبو قاسم أنه يجب تدريب الشباب على الرمي، وكذلك نحن النساء يجب أيضاً أن نتعلم كيفية استعمال السلاح والرمي، وقرر أنه في اليوم التالي يجب أن نذهب نحن والشباب لحقل الرمي، جهزنا أنا والأخت بعض الطعام مما يوجد عندنا، وفي الصباح الباكر جاء أحد الأخوة «للأسف نسيت أسماء من رافقنا بتلك الرحلة ولو كانت الأخت أم حسن قريبة كانت ساعدتني في ذلك» بالطريزينة (وهي وسيلة نقل بدائية)، وركبنا نحن والأطفال والأخوة، وسارت بنا ساعات حتى وصلنا المكان المطلوب، كان الحقل سهلاً واسعاً بعيداً عن المدينة، وأخذ الأخ المدرب يعلم الأخوة، ومن ثم قام بتعليمنا فك وتركيب المسدس والبارودة الروسية، ثم

أخذ الأخوة يتدربون على الرمي، وكنا نراقبهم ونعتني بالأطفال وطلباتهم، وجاء دورنا وتدربنا على الرمي، وأطلقنا الرصاص الحي، لم يكن الأمر سهلاً، لكنه كان ممتعاً، وكانت نتائجنا ممتازة، وكنت متفوقة في ذلك، لأني كنت أتدرب بالبيت على بارودة الصيد (الخردق)، كان الشهيد يأمر الكل بالتدريب عليها، وانتهى الدرس وأكلنا ما جئنا به من طعام، وركض الأطفال في هذه السهول وكأنهم كانوا في سجن، وعند العصر لملمنا أشياءنا لنعود للبيت، وقبل ذلك كان أحد الأخوة قد ذهب وآتى بتنكة مملوءة بالطلقات لا أعرف من أين وبواريد، حاولنا أن تكون رحلتنا عادية لا تثير الشكوك، فالظاهر عليها رحلة عائلية فيها نساء وأطفال ورجال، كلنا يلبس اللباس القروي، ونحن في طريق عودتنا تعطلت الطريزينة، ماالعمل؟ كيف يمكن لنا أن نركب غيرها؟ وكيف سننقل السلاح منها لسيارة أخرى قد يكون سائقها مخبراً ويدل علينا؟ فكرنا كثيراً وضحكنا لهذه السيارة الحديثة العجيبة. ونحن في ارتباكنا هذا مرت طريزينة أخرى عرض الأخوة على السائق أجراً مجزياً بأن يجرنا نحن وطريزينتنا، وافق صاحبها دون تفكير، وطلب منا الأخوة أن لاننزل منها ونبقى بجانب السلاح، وحملوا رأس طريزنتنا ووضعوها خلف الأخرى، وأصبحنا وكأننا جلوس على سفح جبل، ولكم أن تتخيلوا هذا المنظر، كنا نضحك جميعنا على هذا المنظر الذي نحن به «وسار السائق بنا وهو يجرنا جميعاً «لم يجدوا حبلاً يربطوا الواحدة بالأخرى فوضعوا رأس هذه فوق الأخرى»، كنا كلما مررنا بجماعة

من الناس ينظرون إلينا باستغراب عجيب هل نحن أقرباء لجحا؟؟ لم نستطع أن نتمالك أنفسنا من الضحك والقهقهة جميعنا، كل ينظر لمنظر الآخر ويضحك، حتى مررنا على جمل حملق بنا ومد رأسه إلينا، كأنه استغرب هذا المنظر، وسائق الطريزينة يجر ويجر هذا الحمل الثقيل حتى وصلنا أمام المنزل، نزلنا منها وأنزل الأخوة السلاح الملفوف بأشيائنا، كان الوقت قد أصبح متأخراً بعد المغرب، لقد بلغ قلق الأخوة أقصى درجاته، ولو تأخرنا بعدُ قليلاً لخرج الأخوة من المنزل احتياطاً خوفاً من أن نكون قد اعتقلنا، وعاتبنا الأمير على تأخيرنا، كان يؤنبنا والكل يضحك، غضب الأمير وبدأ يصرخ ما بكم؟؟ واستجمع الأخوة قواهم وحكوا له ما حصل معنا فهدأ روعه، وتخيلوا معنا كيف كان منظرنا وماذا قال عنا الناس الذين رأونا، وكأننا في حكاية من حكايات جحا.

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

الحكاية الحادية عشر

صباح الخير محملة بعبير الشوق لكل الأحرار

اعذروني يا أولادي ويا أخوتي فأنا أنبش الذكريات من ذاكرة غشاها النسيان. اليوم سأعود بالأحداث للوراء لتكتمل لديكم صورة ماحدث بثورة الثمانينيات، لقد كان عدنان عقلة (رحمه الله أو فرج الله كربه) قائد التنظيم في مدينة حلب، وكان الشهيد ابراهيم اليوسف (رحمه الله) القائد العسكري في مدينة حلب، ولم نعلم أبداً أن خلافاً حصل بينهما، فهما يكملان بعضهما، وكل منهما غايته الجهاد لا المناصب الوهمية، ولا الزعامات، وفي إحدى المرات اشتد الخلاف بين عدنان عقلة والإخوان على رئاسة التنظيم، فهم يريدون أن يقودوا الثورة بما يرون، وأن شبابهم هم وقود هذه الثورة، وعدنان يرفض، لا حباً بالزعامة ولكنه لا يثق بهم، فهذه الثورة ولدت طفلاً ضعيفاً، والشباب هم من رعوها حتى كبرت، ولا يمكن أن يسلموها من كان لا يؤمن بها، لهذا طلب عدنان من إبراهيم أن يسلمه القيادة فهو أحرص الناس على هذه الثورة، فقال له أرجوك استلم عني وريحني من هذه المسؤولية، ولكن إبراهيم رفض قائلاً: أنا رجل عسكري وليس لي في السياسة، رجاه كثيراً أن يحمل عنه هذه المسؤولية، ولن يستطيع أحد منازعته على القيادة فهو محل خوف ورهبة، لقد أرهب ابراهيم الأصدقاء قبل الأعداء، باستقامته على الحق، وعدم المحاباة في

دين الله، أذكر أني بعد خروجي من السجن الأول، من كثرة ما سمعت من الأساطير عن الشهيد، بدأت أخافه وأقول معقول تغير وأصبح كما يروى عنه من الوحشية والإجرام (هكذا يقول النظام)، ومن الشجاعة الخارقة الأسطورية (كما يقول الشعب)، ظننت أني سأرى رجلاً آخر غير الذي كنت أعرفه، ولكني عندما رأيته نظرت إليه لأرى أي الرجلين أصبح؟؟

لم يكن هذا ولا ذاك، كان يرسل الرسائل للشخصيات التي تثبت حكم الأسد ويرجوهم الانشقاق عنهم، ويطلب منهم أن يتركوا هذا النظام الكافر الجائر قبل أن يهاجمهم، كان يحرص كل الحرص على الأرواح البريئة، لم يكن إذاً أبداً هذا المجرم الذي يستهتر بأرواح البشر.

أنظر إليه لأرى ذاك الرجل الأسطوري الذي لا يخاف الموت، ولا أي شيء، ولكني أراه إنساناً عادياً، يخاف وقد يطرق قلبه خوفاً، ولكن هذا الخوف لايثنيه عن متابعة طريقه، كان حنوناً، فعندما يذكر أخاه الشهيد تدمع عيناه، ويقول هذا اسماعيل الشهيد العفيف الشريف، كان يبكي لفقد عزيز، ولبكاء طفله الذي يعرف أنه سيتركه للقدر يفعل به ما يفعل، كان الزوج الحريص على مستقبل زوجته، وهو الغيور الذي لا يجاريه في غيرته أحد، فهو يخطط لها مستقبلها، فهو اختار طريقه من دون أن يوقفه عن ذلك ما يمكن أن يحصل لها بعد استشهاده، لهذا يجب أن يكون لها من تفكيره وتخطيطه نصيب.

في إحدى المعارك التي كانوا ينوون القيام بها، طلب الشباب المجاهدون منه أن لايشارك معهم، ورجوه في ذلك، وعندما ذهب الشباب لم يجلس أبداً على الأرض، كان يقف فوق تلة الحراسة ويصغي لصوت الرصاص، ليعرف كيف تدور المعركة، كان قلبه يخفق بصوت مسموع يسمعه من يقف بجواره، وبقي على هذه الحالة حتى عادوا سالمين منصورين، واستقبلهم بالأحضان ودموعه تملأ مآقيه. كان رجلاً يوقن ويؤمن أنه قام لاحباً بسفك الدماء، ولكن أمراً من الله بجهاد من يحارب دينه ويظلم الناس، ويكرههم على الكفر.

في إحدى المرات كان له موعد مع عبد الله الطنطاوي، والأخ أتى بصور لأولاد ابراهيم ظناً منه أن إبراهيم لا يراهم، فقال له ابراهيم الأولاد وأمهم أصبحوا عندي، (قال أم العز لا أراها إلا بعز)، وشكره على الصور، وجاء ورمى لي الصور.

والآن وبعد استشهاده لا يعرفه أحد؟؟ هذا التشويه للشهيد وطمس جهاده وحياته لا يمكن أن نغفره لهم، لأنهم تعمدوا ذلك، من منهم لايعرفه (البيانوني الذي عندما لاحق النظام تنظيمه رجاه أن يساعده) أم من؟؟ إن لم يكن هذا حق الناس فهو حق للعائلة التي فاقت تضحيتها كل التضحيات في ذاك الوقت، هذا حق أولاده وأحفاده وهم يطالبونهم، لماذا تشويه وطمس سيرته؟ الشهيد لا يهمه من ذلك شيء فهو جاهد ليرضي الله وليس البشر ولكن هذا حق العائلة.

لقد جاء أحد الأيام والكآبة على محياه، سألته ما بك؟ قال لم أصدق ما سمعت اليوم. قلت: ما هو؟ قال: يوجد للإخوان قواعد ولنا قواعد يعني أننا مقسمين، ويحاول عدنان الوحدة بيننا. قلت له: ولماذا؟ استدار بوجهه ولم يجبني، ولكن خيبة كبيرة تبدو عليه، وأراد أن ينوي بالصلاة ليهرب من أسئلتي. قلت: له هل أنت نادم على انضمامكم للجماعة؟؟ قال: لا ولكن كيف يمكن أن يحصل هذا ونحن بحالة جهاد؟ كيف نكون متفرقين؟؟ وأكمل صلاته. وبعد الصلاة بقي صامتاً مفكراً متجهماً، وكأن مصيبة حصلت.

الآن عرفت معنى هذا الفرقة والاختلاف، يعني الهزيمة والخسارة في المعركة، لقد استشعرها قبل أن تحصل، فهو يحفظ الآية الكريمة «ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم»، وحصلت والحمد لله بعد استشهاده، ولم يريه الله ذلك اليوم الذي أعلن فيه حافظ المجرم أنه قضى على الجماعة المؤمنة المجاهدة، وحكم على كل من يقول رضيت بهذا الدين حياة وحكماً بالموت أو بالسجن، إني أسوق تلك القصص لتكون للشباب الآن عبرة وعظة، لماذا خسرنا ثورة الثمانينيات؟ نعم بتفرقنا واختلافنا على المناصب والقيادة. واليوم إذا بقينا على هذه الفرقة فلن ينصرنا الله أبداً، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر....

الحكاية الثانية عشر

صباح الخير محملاً ببركات شهر رمضان الفضيل عسى الله أن يجعله شهر وحدة ونصر وتمكين. كثيراً ما سئلت وطلب مني أن أكتب ماذا كان موقف الإخوان المسلمون من الثورة الأولى؟؟ يا إخوتي ويا أبنائي لست منظرة ولا أجيد التحليلات السياسية، ولا الإجتهادات الفقهية، وإنما أنا امرأة عاشت تلك الفترة قريبة من جميع الأحداث والشخصيات البارزة في الثورة، ومن هذا المنطلق أكتب ما رأيت وما سمعت فقط من تلك الشخصيات، ولا أستطيع الخوض أكثر وأعمق، وأقول رأيي الشخصي وأنا مسؤولة عنه أمام الله: من هم الإخوان: هم جماعة قامت بالدعوة لتحكيم شرع الله في الأرض وكان شعارها: الله غايتنا ومحمد قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أحلى أمانينا.

كان ينضم لها خيرة الشباب المؤمن المتدين في سوريا، وكانت تسعى للحكم بالدعوة التي تهيء الشعب لقبول تشريع الله، ولكن عندما جاء حزب البعث للحكم قام بالسعي لاستئصال كل ما هو متدين، وعمد إلى التضييق على شباب الدعوة، وسجن غالبية قادة الإخوان، من أجل ذلك كانت دعوة الشيخ مروان حديد رحمه الله ومن معه، واعتقادهم أن هذا النظام ينشر الكفر ويحارب الإسلام، ويجب جهاده بالقوة، فهو يحاربنا بقوة الحكم الذي استولى عليه، ولكن كانت حجة القادة أننا غير مستعدين

لهذه المواجهة، ولا طاقة لنا بها، ولكن الشيخ مروان بدأ يعد العدة لمواجهة هذا النظام، فاعتقلوه وعذبوه واستشهد بالسجن.

كثير من شباب الإخوان الذين تربوا على تلك الشعارات رأوا أن الوقت حان لنعد العدة للجهاد ضد هذا النظام، ولكن تنظيم الإخوان فصلهم لأنهم خرجوا عن طاعته وأوامره، وتشكلت جماعة مروان حديد من شباب الإخوان الذين تربوا على الدين والخلق في المساجد، وبدؤوا يعدون العدة سراً بتنظيم صفوفهم وتدريبهم العسكري، وقرروا المواجهة السرية مع النظام، وذلك بالقيام بعمليات اغتيال لشخصيات مؤثرة في النظام. بقي النظام يعرف ويؤجل المواجهة، وكان لايعرف من يقوم بتلك العمليات، ولكنه توصل أخيراً لفكرة شيطانية فاعتقل قادة من الإخوان في مدينة حلب، وقايضهم بترك التنظيم وعدم اعتقال كوادره مقابل أن يعرف من يقوم بتلك الاغتيالات، فرأى الشيخ عبدالله طنطاوي «على حسب اجتهاده» أن يسلك أخف الضررين فاعترف بأسماء الشباب الذين انشقوا عنهم والتحقوا بجماعة مروان حديد. ولكن نظاماً كافراً كنظامنا لن ينفذ اتفاقاً، فغدر بالتنظيم وأخذ يعتقل، ليس كل من له علاقة بالتنظيم فقط، ولكن كل من كان يحضر جلسات القرآن بالمساجد، ومن كان يتهم بأداء الصلاة فهو متهم أنه إخوان، وهكذا اعتقل من شباب جماعة مروان من اعتقل وهرب من هرب.

أقولها وللتاريخ، ولتعلمها كل الأجيال، أن شباب الإخوان غالبيتهم كانوا وقود الثورة وقادتها، وهم من رأى أن الجهاد الذي تربوا على حبه قد حان، فضحوا بالنفوس، ولكن كان لقادتهم رأي آخر واجتهاد آخر، فوقفوا ضد الثورة، وخاصة بعد عملية المدفعية، فقد استنكروها وأدانوها، ولايزالون حتى اليوم، وبذات الأساليب يستنكرونها علناً، ويقولون لأولادهم إن العملية كانت سبب تشردهم، مع العلم أن غالبية قادتهم كانوا يتسابقون للقاء الشهيد ابراهيم اليوسف، ولكن بعد استشهاده أنكروا كل معرفة به، أو من أي مدينة هو، ولكن شباب الإخوان لم يلتفتوا لقادتهم والتحقوا بالعمل العسكري، وكانوا خيرة المجاهدين بالخلق والدين والثقافة، كانوا يرون أن قادتهم يؤجلون الجهاد إلى أجل غير معلوم ولا يستعدون له.

وحصلت مفاوضات بين الجماعتين وتوحدوا للعمل ضد هذا النظام، ولكن هذا الإتفاق لم يدم كثيراً، وبسبب الإختلاف على القيادة، ومع من تكون القيادة؟؟ فهم يريدون أن يستنسخوا تجربة الخميني ويقودوا الثورة من الخارج، وعدنان عقلة يرى غير ذلك، وأن القيادة يجب أن تكون من الداخل.

أما الشهيد إبراهيم فلم يكن منظماً بالإخوان، ولكنه يحمل فكرهم وعقيدتهم، غير أنه يرى كما كان مروان حديد أن لا سبيل لتحكيم شرع الله وهذا النظام موجود، فانضم لجماعة مروان حديد عن طريق صديق صباه عدنان عقلة، وحرص عدنان على إخفائه لأنه يعرف أن إبراهيم كنز

من الشجاعة والإخلاص والوفاء والدين، لهذا عندما قام بعملية المدفعية لم يكن يعرفه أحد، ولكن بعدها الكل عرفه، وأكبر شجاعته، ولكن لماذا أنكروا معرفته بعد استشهاده فهذا أمر يعود لهم ولا أعرف له سبباً!!!!

كان الشهيد إبراهيم قد التقى الكثير من قادة الإخوان، ورفض القيادة عندما طلب منه عدنان أن يستلمها، لأن به قوة وبأساً وهو يقود العمل العسكري بنجاح، وهكذا اختار الله إبراهيم للشهادة ولم يدخل فتنة الخلافات، ووقاه الله تلك الفتنة.

هذا ما أعلمه وبكل بساطة ومن دون تعقيدات وتحليلات واجتهادات.

نعم كان الشباب الذين رباهم تنظيم الإخوان في المساجد هم وقود الثورة، وهم قادتها، وهم الشهداء المنسيين وأطفالهم وآهاليهم، يحق لجماعة الإخوان أن تقول إنها هي من قدمت الشهداء في الثورة الأولى، ولكن ليس تحت جناحها وليس بوقوفها بوجه النظام ومع المجاهدين، فمن خرج من سوريا لم يخرج ليعود ويشارك بالثورة، وإنما لأنه لا يريد أن يشارك، وهكذا انطفأت جذوة الثورة بآلاف الشهداء الذين لم تستثمر أرواحهم بالجهاد الموعود، وبقي الجهاد شعاراً يردد بالأفواه، والسيف شعاراً مرسوماً على الورق. هم يجتهدون في ذلك ويرون أن لهم أجر المخطئ إذا أخطؤوا، والله يعلم المفسد من المصلح.

الكثير يطلب منهم فتح الماضي ووضع النقاط على الحروف، فهم أمام الشعب متهمون بالتقصير، وحتى درجة الخيانة، وأستغرب منهم لماذا

يتركون ذلك، لماذا يخافون من فتح ودراسة ومراجعة تلك الحقبة بما لها وما عليها؟؟ هم كما يقولون اجتهدوا فأخطؤوا أين العيب في ذلك؟؟ نصحني الكثير وانتقدني كثرون لحديثي عن تلك المرحلة، وأستغرب ذلك منهم فلا يوجد لدي ما أخفيه أو أخافه، وليس لي مصلحة بمنازعة أحد على القيادة، ولا أبغي تشويه سمعة أحد بما ليس فيه، فلماذا أخاف من الحديث؟؟ أليس هذا من حقي؟؟ ألا يحق لي أن أقول من منع الدعم عن القواعد لمجرد الخلاف على الزعامة، حتى أن شباب القواعد لم يعودوا يستطيعون شراء البيوت فتشتتوا في الشوارع، واستشهد من استشهد واعتقل من اعتقل؟؟ ألا يكفي أحد عشر عاماً من السجن لنكون شجعاناً في قول ما نريد؟؟ لم يبق لي من العمر ما أخاف عليه، ولا منصباً أسعى إليه، ولكن أشهد الله أني لم أقل إلا الصدق وما علمته، وهناك أمور أعرفها ولا أرى مصلحة للإسلام والمسلمين في ذكرها لا الآن ولا في المستقبل.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

الحكاية الثالثة عشر

مساء الخير لكل الثوار والمجاهدين المجهولين الذين يعملون بصمت ولايعرف بهم أحد، ولكم إخوتي وأبنائي. حكايتنا اليوم هي من وحي العنوان الذي اخترته لأصبح عليكم:

هناك من المجاهدين من يعمل والفضل الكبير يرجع له، ولكن لا أحد يعرف هؤلاء الجنود المجهولين، وبطل قصتنا واحد منهم، كان له فضل كبير على الثورة الأولى، ولكن لايعرفه أحد حتى أنا لا أعرف اسمه ومن يكون؟ وهل هو حي أم ميت؟ سمعت حكايته من الشهيد وهو من قال « الفضل الذي نحن فيه يعود لهذا الرجل ولست أنا » هكذا يروي الحكاية إبراهيم:

كنا بعد عملية المدفعية مشردون ننام ليلة هنا ليلة هناك، وفي إحدى المرات نمت فوق شجرة، كنت متعباً، وحرست نفسي، ولكن النوم غلبني ولم أستيقظ إلا والشمس قد كشفتني، استيقظت فزعاً، كان من الممكن أن يعتقلوني «لم يكن يخاف الموت» وأنا نائم، وسرت بشوارع حلب بباب النيرب، وطرقت أحد الأبواب أطلب ماءً ورغيف خبز، أعطوني ما طلبت ولكن لم أكد أخرج من الحارة إلا وقد أصبحت مطوقة بالجنود، استطعت الخروج من الطوق بسلام، لم يكن معنا شيء، لا مال ولا رجال ولا بيت يؤوينا، نهيم على وجوهنا في الطرقات، كل مسؤول عن نفسه، لقد ضاقت علي الدنيا بما رحبت، فلا أهل ولا زوجة ولا أولاد، وأنا شريد طريد في

الحارات والشوارع. وفي أحد الأيام كنت أنا وعبد الله قدسي «الساعد الأيمن للشهيد والذي رافقه لشهور عديدة لا يفترقان حتى جاء أمر بأنه يجب أن يفترقا واستشهد بعده بيومين فقط» نسير في كروم الزيتون على غير هدى، ونحن نتكلم، وإذ برجل يخرج علينا، وهو يحمل سلاحاً يشهره في وجوهنا، فما كان مني وكرد فعل وبعفوية قلت له: إخوان أخي إخوان!، فرد علينا قائلاً: الله معكم.

رجعت إلى البيت المقرر أن أنام فيه وأنا أفكر بهذا الرجل، فهو ممن يتعاطف مع ثورتنا ضد هذا النظام، وقررت أني سألتقي به في الصباح، حاول الشباب ثنيي عن الذهاب، ولكني أصررت، وقلت لعبد الله قدسي على ماذا نخاف؟؟ على النوم فوق المزابل؟؟ أو على الشجر؟؟ سأذهب.

عندما لم يستطيعوا إقناعي بعدم الذهاب رافقني عبدالله (شاب آخر نسيت اسمه) طرقنا الباب، فخرج وقال: من أنتم؟ قلنا له نحن الذين مررنا بك البارحة ليلاً. استقبلنا بفرح غامر وقبلنا والدموع تنهمر من عينيه، ولكنه طلب منا طلباً راجياً أن نجيبه بصدق، قال طمئنوني على إبراهيم اليوسف لقد سمعنا أنه مصاب جريح، قال له الأخوة هو بخير «لايكشفون عن شخصيته أبداً حتى المركز التي كنا فيها أول من كشف عن شخصيته أنا كنت أناديه باسمه وليس أبو ياسر لم أكن تعودت على ذلك فعرفوه يقيناً ولو أن الظن كان يغلب عليهم فجئت لأؤكد ظنونهم» فقال

له إبراهيم: أنا هو. وكشف له عن شخصيته، فقام الرجل يقبله وهو يبكي ويحمد الله تعالى. قال إبراهيم شعرت بثقل المسؤولية الملاقاة على عاتقي، فقد وضع الناس كل ثقتهم بأن أكون الرجل الذي يدافع عنهم ويخلصهم من هذا النظام المجرم الكافر.

وبعد ذلك عرفنا أن الرجل يعمل بتهريب السلاح، وأصبح يجلب لنا السلاح على قدر المال الذي بحوزتنا وهو قليل، ولكن استطعنا أن نبدأ العمل ونؤسس له، وكان له الفضل الأكبر في انتصاراتنا، ولكن بعد فترة سمع أنه اعتقل، لقد حزن عليه وتمنى أن تكون تهمته كأي مهرب سلاح وليس تهريب السلاح للمجاهدين.

لقد روى لي الحكاية بتؤثر بالغ، وقال: هؤلاء الرجال يجب أن يمجدهم الناس ويتحدثوا عن بطولاتهم، وليس بطولاتنا نحن، فلولاهم كنا مانزال ننام على الشجر، ونسير في الطرقات على غير هدىً.

قد يكون هذا الرجل حياً فيقرأ كلماتي ويعرف أننا لم ننسَ فضله على الثورة الأولى، أو يكون شهيداً فأذكر به الناس ليطلبوا له الرحمة والمغفرة، لما له من فضل كبير خلال الثورة الأولى.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

حكايتي اليوم حزينة ولا تستطيع الكلمات وصفها. استمرت حياتنا بالمركز على هذا المنوال من خوف وقلق ورجاء وفرح ومحبة، لا أظن أن هناك بيتاً ضم بين جدرانه أشخاصاً من أماكن شتى يجمعهم حب وإخلاص كما كنا نحن، كان الشهيد إبراهيم يرفض أن يتناول الطعام معي ومع أولاده حرصاً على مشاعر الأخوة، فهم لا زوجة لديهم ولا أولاد، كان يحمل الطعام لهم بيديه، يتناولون منه الطعام وهم يضحكون، ويقولون كيف يحمل القائد الطعام لجنوده؟، كان يرفض أن يبقى ويخرج المجاهدون لتنفيذ العمليات، لقد طلب منه عدنان عقلة أن لا يخرج قائلاً: نخاف عليك وعلى معنويات الناس إذا أصابك مكروه، ولكنه كان يرفض ذلك. طلب منه ابنه ياسر الذي لم يتجاوز الثلاثة أعوام لعبة فرفض قائلاً: هل كل أطفال الشهداء والمعتقلين اشترينا لهم ألعاباً حتى أشتري لابني؟!، وبقي ياسر يحلم بتلك اللعبة إلى الآن، كان يريد أن يقول اشترى لي أبي لعبة من يده. وفي الثاني من شهر حزيران استيقظنا مثل كل يوم، وحمل إبراهيم طعام الإفطار للشباب، ومن ثم نزل بعد فترة قصيرة ليس كعادته، وبدأ يوصيني وصايا مودع، سألته لماذا هذا الكلام الآن؟ قال لقد رأيت رؤيا والعلم عند الله سأستشهد. وقد أوصيت الشباب، وها أنا أوصيك. فزعت من كلامه كأي امرأة، وبكيت. قال لا تبكي سوف تنسين، وإن أردت أن تتابعي طريق الجهاد بإمكانك أن تبقي

هنا في المركز، واسترسل قائلاً: لقد جاءني سلاح جديد سيكون فارقاً في المعركة، البركة بالشباب، واسترسل وهو ينعي نفسه قائلاً: إذا مات بلال بطل الآذان؟! إن لهذا الدين رب يحميه.

كنت أنظر إليه والدموع تملأ عيني، وهو يحمل الصغير إسماعيل الذي لم يتجاوز عمره الثلاثة أشهر قائلاً: لك الله ياولدي، لك الله ياولدي، وخرج من الغرفة قائلاً: لدي موعد. ومن ثم سآتي لآخذك لمنزل آخر، وسار باتجاه باب المنزل ثم التفت وراءه ينظر إلينا ونحن بباحة المنزل، ولكنه استدار صوب باب المنزل. عمل هذه الحركة مرتين، وقال انتظريني عند السكة أنت والأولاد عصراً لآخذكم إلى بيت آخر، لأن في حارتنا بلبلة، وقد يحدث تفتيش ويعرفني أحد العناصر أو الضباط.

وحان الموعد وخرجت للسكة الحديدية التي كانت وراء منزلنا، ولكن بعد فترة قصيرة سمعت عدة رشقات من الرصاص آتية من طرف منطقة الصالحين، (كنا نعرف الجهات لاننا كنا نساعد بالحراسة).

خفق قلبي وأصابتني حالة من الهيستريا، وبدأت أركض يميناً وشمالاً، أريد أن أهرب، أريد أن أتخلص من أولادي، أريد أن أتركهم وأهيم على وجهي، لا أعرف ماذا أصابني، جاء الأخ صاحب المنزل ورآني أصرخ بأولادي، قال: ما بك يا أختي؟ قلت: سمعت رشقات رصاص. قال: من أي ناحية؟ قلت: من منطقة الصالحين. قال: معقول أنت تقولين ذلك؟! صوت الرصاص يملأ الدنيا، ما الغريب في ذلك؟ نعرفك أقوى وأصلب وأصبر.

قالت الأخت زوجته: انظري لوجهك كيف أصبح لونه أصفر، لم يخفف عني كل ما قالوه، لأني شعرت أن الرصاصات اخترقت قلبي، وأشعر أني في النزع الأخير، لم يأت أبو ياسر وعدت أدراجي للمنزل، وتكلم الجميع عن حالتي ولم يعرفوا لها تفسيراً. وبعد قليل بدأ إطلاق الرصاص بالهواء من جميع أنحاء حلب، والألعاب النارية في السماء، استنفر كل الشباب ليعرفوا سبب إطلاق الرصاص، سألت الأخ أبو قاسم هل يوجد منزل يلتجئ إليه أبو ياسر، قال صلي على النبي يا أختي، منازل حلب كلها مفتوحة له. قلت لهم: أيمكن أن أبو ياسر استشهد وهم يطلقون الرصاص فرحاً، أجابوني نفس الإجابة. واستمر إطلاق الرصاص طوال الليل، ولم ينم أحد منا، كان قلبي يخفق ورجلاي ترتعشان، والكل مستغرب لحالتي، لم يروني منهارة مثل الآن. ومع الفجر هدأت أصوات الرصاص ونمنا، فتحوا المذياع وإذ بالمذيع يقول: تمكنت قوات الأمن من قتل المجرم إبراهيم اليوسف. جاء الأخ صاحب المنزل وقال هل تستمعين إلى الراديو؟ قلت: لا. قال: هل ممكن أن تعطينا إياه؟ ناولته المذياع، أعطاه للشباب، وخرج أحد الشباب مسرعاً ومن ثم عاد، ثم ذهب الأخ صاحب المنزل، ولكن كانت الوجوه تخفي أمراً جللاً، وجاء مسرعاً وصعد لغرفة الشباب والدموع في عينيه، صعدت الدرج أنا والأخت ننتظر خروجه لنسأله، كان في زاوية السطوح جرة فخار موضوعة بعناية هبت ريح وكسرتها، نظرت للأخت وتشاءمت من ذلك، فُتح باب غرفة الشباب وخرج الأخ أبو حسن وبرفقته أبو قاسم (عبد الكريم مثلا)

ونزلوا الدرج ونحن ننزل وراءهم، ودخلوا غرفتي، وجلسوا والدموع تنزل من عيونهم. بدأ الأخ أبو قاسم بمقدمات، عرفت وكذبت نفسي، قلت له: أخي ماذا لديك؟ بدون مقدمات. قال لله ما أعطى ولله ما أخذ، إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، وأجهشنا جميعنا في البكاء. قال يا أختي نريد أن نغادر المنزل بسرعة لأن اثنين من الشباب كانا يرافقانه ولا نعرف مصيرهما، (نذير زنابيلي وشاب من منق لا أذكر اسمه) ونحن في حالة صدمة وذهول، نريد أن نكفكف دموعنا لئلا يرانا الجيران، ونريد أن نغادر المنزل بأقصى سرعة، قد يكونا معتقلين، من يدري؟ وهكذا خرجنا من المنزل الواحد تلو الآخر، لمنزل احتياطي كان قد جهزه أبو ياسر من أجل الطوارئ، لم يكن يعلم أن استشهاده هو ذاك الطوارئ، نعم كانت ضربة قاصمة كما قال المقبور حافظ، لقد كسرنا العمود الفقري للإخوان المسلمين، كان يظن أن الإخوان سيحزنوا على استشهاده، ويجعلوا منه رمزاً للأجيال، ولكنهم أنكروه بعد استشهاده وأنكروا معرفتهم له وبه، وبهذا تحققت رؤياه، وكان يدعو دائماً اللهم لا تتركني حياً لفتنة النصر، فاستجاب له ربه دعاءه.

في الحكاية التالية سأحكي كيف استشهد من عدة رواة .

وإلى حكاية من حكايا الجدة أم ياسر ....

سأتابع رواية فصل من فصول التراجيديا السورية: لقد استقبلنا خبر الفاجعة ونحن في صدمة وذهول وبكاء، ركضنا بسرعة البرق لنلبس ثيابنا، ونخرج من المنزل بأقصى سرعة ممكنة، تسألني ابنتي فردوس (كان اسمها الحركي ليلى) ماما هل صحيح أن بابا مات؟ أجبتها والدموع تنهمر من عيني لا حبيبتي من قال هذا؟، لقد سافر مثل سفره السابق « أقصد الفترة التي كنا عنه بعيدين قبل مجيئنا إليه »، قالت لماذا تبكين؟ قلت أبكي على عمو أبو سليم (نذير زنابيلي وعمو أبو هيثم (عبد الرحمن عثمان) لانعرف أين هم. خرج الشباب فرادى، وخرجنا أنا والأخت أم حسن والأطفال، رآنا الجيران قالوا ما بكم أجابتهم الأخت أن أخاها عمل حادث بالتراكتور وهو في حالة خطر بالمشفى ونحن ذاهبون للقرية، وهكذا ذهبنا لمنزل قد أعده الشهيد احتياطاً. أيضاً كان المنزل في منطقة الفردوس في حارة شعبية، وقد حفروا به خزاناً للمياه لأن المنطقة لم يصلها بعد مياه الشركة، ويعتمد الناس على تخزين المياه في خزانات محفورة تحت الأرض. ولكنا نحن لن نستخدمه للمياه وإنما ليختبأ به المجاهدون أثناء حملات التفتيش الكثيرة، لم يكن يوجد أي أثاث في المنزل سوى حصائر وبطانيات ووسادات فقط، وليس بالعدد الكافي. أرخى الليل سدوله على الكون، لم نكن أبداً نحن جزءاً منه، كنا خارج التاريخ والجغرافيا، لم يكن يشعر أحد بنا، كانت حلب هادئة

هدوءاً عجيباً، وهي المدينة الصاخبة، إنها في حالة صدمة وذهول وانكسار لأن فارسها التي تروى عنه الأساطير قد رحل، ومعه كل أسراره وحكاياته الأسطورية. كان الشباب في غرفتهم، وأنا والأخت معاً، لم يكن يقطع هذا الصمت الرهيب سوى بكاء طفلي اسماعيل وسمية ابنة الأخت. نام الأطفال، ولكني كنت وحيدة تجتر ألمها ومصيبتها لوحدها، تغفو عيني ثم أصحو، وأسأل الأخت ألم يحن الفجر بعد؟، فترد إنه بعيد. أعود للبكاء حتى أغفو مرة أخرى، وأعود للسؤال. لم أر ليلاً طويلاً كهذا الليل، ما أطول الليل على الحزانى!. وطوى الليل سجادته السوداء، وأقبل فجر جديد. لن تعود تلك الليلة أبداً حتى يعود الشهيد للحياة، وهذا أمر مستحيل، لقد أصبحت ذكرى وتاريخاً أرويه. وفي الصباح أرسل أمير المركز شباباً ليستطلعوا ويعرفوا ماذا حل بالأخوة الذين كانوا يرافقون الشهيد. لقد أصبح نائب الشهيد هو القائد الآن «نعم القائد كان ونعم الأخ» إنه أبو قاسم عبد الكريم مثلا، كنا مازلنا في حالة وجوم وصدمة لم نفق بعد من هولها، كان الكل مشغول ببكاء اسماعيل فهو جائع، ومن الصدمة غار الحليب في صدري، ولم يكن يرضى أن يشرب الحليب الصناعي، فهو أصيل يحب الأصالة، ولن يرضع إلا حليب أمه، كان يُحمل من يد ليد، ولكنه يصرخ ويصرخ ليسمع كل الكون صراخه، عاد الشباب من جولة الاستطلاع يرافقهم الشباب المفقودون، فرحنا بهم فرحاً عظيماً، ورووا لنا ماحدث: كانا يرافقان الشهيد في كل مواعيده، ولكنه عندما أراد الذهاب لاستطلاع البيت الذي حضره للطوارئ، ويسكن به رجل

عجوز ابنه معتقل، قال للشباب انتظروني خارج المنطقة لئلا يعلموا المكان، ولكنهم لحقوا به وأصروا على ذلك، ولكنه منعهم وأمرهم بعدم مرافقته، وقف الشباب ينظرون إليه كيف يتركونه يذهب وحيداً فهم رضوا بأن يكونوا كبش الفداء أمامه، ولكنه استدار إليهم وقال إذا استشهدت فاقرؤوا على روحي الفاتحة، وهكذا غاب عن أعينهم في حارات كثيرة ضيقة، وإذ بهم يسمعون صوت إطلاق الرصاص، وذهبوا بعيداً ينتظرون ولكن أتت دوريات الأمن فذهبا واختبآ في الكروم القريبة، لقد فتح الشهيد باب المنزل وإذ بدورية مخابرات أطلقوا عليه النار، وعندما عرف أنه كمين استدار ليخرج وأطلق عليهم النار، ولكن طلقة استقرت برأسه وأسلم روحه إلى بارئها. لقد أراد الله أن يريحه من عناء الجهاد، وقد أثبت إخلاصه وعمله، ونجح في زلزلة عرش أكبر طاغية في هذا العصر، لهذا كافأه الله ورزقه الشهادة إن شاء الله ..

اختبأ الشباب في بئر قديم، وهم مختبؤون بداخله مر جنديان للنظام، وأرادا إلقاء قنبلة في البئر، والشابان يسمعان حديثهما، ولكن أحدهما منع رفيقه، ونجا الشابان وعادا إلينا سالمين.

ومما روي بعد، أنهم أخذوا والده السجين ليتعرف عليه، وابنة خاله السجينة أيضاً، وأخي الطبيب في مشفى الرازي أخرجوه من غرفة العمليات وكان خبير روسي يجلس فوق رأسه ليتأكدو أنه هو « إبراهيم اليوسف العدو الأول لهم »

اعذروني أخوتي وأبنائي فأنا أعيش الآن أثناء الكتابة تلك الأحداث بكل مشاعري، لم يكن زوجاً ولكن كان أباً، كنت صغيرة السن ومشاكسة ومتمردة فكان يعاملني كأب، تارة بالتنبيه وتارة بالضحك وامتصاص الغضب، عندما اعتقلت بعد المدفعية «الاعتقال الأول» كانت معي أخوات معتقلات، وكانت تدور بيننا أحاديث عن الأزواج، لم يكن ابراهيم كأي زوج منهم، شعرت يومها بقيمة ما فقدت، وحدثتهن عنه فيقلن لي تحبين شخصية عمر بن الخطاب؟ هو عندك!. ولكني كنت في حالة ندم ماذا ضيعت؟؟ لقد قصرت معه، ولم أكن زوجة كباقي الزوجات، ولكنه لم يظهر لي امتعاضه أو غضبه، وكان يصر أن يسمع رأيي بكل الأمور، ويقول لي أنت صاحبة رأي صائب، وعندما أغضب منه أمنع ذلك الرأي ولا أبديه، كان يعتذر عني له إذا أنا أخطأت، في سري كنت أتمنى أن أكون قوية مثله فأعترف بخطئي وأعتذر.... المهم كان أباً حنوناً رحيماً لهذا شعرت بندم عظيم ودعوت الله أن ألتقي به فقط لأكفر عن أخطائي، لقد استجاب الله لي والتقيت به ولكنه لم يكن يشعر يوماً أني مخطئة أو مقصرة، لقد كان يضحك ويضحك كثيراً لما كنت أشعر به من ندم وتقصير، وعشت معه ثلاثة أشهر فقط لم أتغير أنا وهو أيضاً بقي ذلك الأب الموجه المسؤول ..لهذا أحسست عندما فقدته باليتم، لقد كنا أربعة أيتام أنا وأولادي، وذهب معيلنا ومعلمنا ومربينا، ما أصعب الشعور باليتم! نحن أحوج ما نكون للشفقة، نحن تائهون في بحر الحياة ولا ربان لسفينتنا يقودنا لبر الأمان، وأنا على تلك الحالة

من الأحساس بالضياع كنت أحضر طعام الإفطار للمجاهدين، ولا يوجد لدينا الكثير من أدوات المطبخ، حضرت إبريقاً كبيراً من الشاي ووضعته على الطاولة، ووضعت صحناً كبيراً من الجبن لتسخينه على غاز أرضي وأذ بإبريق الشاي المغلي والمحلى ينسكب فوق رأسي، كنت ألبس كوفية مثل نساء القرى صرخت أستنجد لرفعها فهي موضوعة على الرأس بإحكام ووضعت رأسي تحت الماء البارد، وركضت الأخت وركض الشباب يقفون خارج المطبخ لايدرون ماذا يفعلون، ويسألونها ماذا حصل؟ ويوجهونها ماذا تفعل، لقد احترق رأسي ورقبتي وظهري يا الله ماذا يفعلون؟ أين يأخذوني والمخابرات مستنفرة بعد استشهاد إبراهيم؟! لقد خيم حزن آخر على المنزل. لقد نسينا الشهيد لأننا في مصيبة أخرى، ولكن الشباب قالوا لصاحب المنزل اذهب وأحضر دواءً للحروق، لقد كان خروجه مخاطرة كبيرة، والحمد لله سلمه وعاد بالدواء، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، كان الحرق هو ملهاة لنا عن مصيبتنا، والحمد لله على كل الأحوال.

والى حكاية من حكايا الجدة أم ياسر ....

واعذروني على الإطالة

مساؤكم صبر وأمل وتفاؤل.

بعد خمسة عشر يوم تقريباً أمضيناها في هذا المنزل بعد استشهاد إبراهيم، هدأت الأوضاع في الشوارع، لأنهم كانوا في حالة استنفار كبيرة لئلا تكون هناك ردة فعل من الشارع على استشهاد (أبو خليف هذا اسمه الحركي) وانتشرت الإشاعات منذ أول يوم أن الخبر عار عن الصحة، ولكن من أول يوم لاستشهاده طبع الأخوة في القيادة منشورات ولصقوها على جدران الشوارع تنعيه تؤكد خبر استشهاده، ولكن المخابرات كانت تركض محمومة وتمزقها، وسرت الإشاعات بين مكذب ومصدق، لقد عم الحزن كل بيت، وبكته العيون المتعطشة للحرية والكرامة، فهو رمز لها ولكن لم يحدث أي شيء خاف منه النظام، لقد أحس الناس بالهزيمة المرتقبة ونصر النظام عليهم، لأنه كان الشعلة والقائد الذي يسير خلفه كل الأحرار والمجاهدين.

لملمنا أشياءنا الصغيرة وعدنا إلى قاعدتنا الأولى، دخلنا بصمت وخشوع لأن ذكرى الشهيد مازالت في كل زاوية من المنزل، لقد عدنا جميعنا بخير إلا هو، لقد غادرنا إلى غير رجعة، غرفتنا التي لم يكن فيها من الأساس سوى جزء من خزانة اقتسمناها مع الأخت أم حسن، وفراش وحصيرة ومرجوحة في زاوية الغرفة، هذا كل ما تركه من إرث، وبنطال كان قد علقه بيده (بقي

معلقاً حتى تركناه مع المنزل) ، لم يكن شخصاً عادياً ، كان يتفقد كل صغيرة وكبيرة، ويمازح الكل، ويحل مشاكل الأطفال التي تحدث بينهم/ لقد حدث مرة أن الشباب كانوا يمزحون مع ياسر، وأثقلوا عليه بالمزاح فبكى منهم، ولكنه تكلم عليهم بكلمة غير لائقة، لقد قال « كلبين » ضحك الجميع لهذا الجمع، ولكن والده لم يضحك وناقشه في هذا الكلمة البذيئة وطلب منه أن يعتذر للشباب، ولكن ياسر كان مصراً أن يعتذروا هم منه، ومن ثم هو يعتذر، عاقبه والده بأن وقف على تلة رمل موجودة على السطح يقف الشباب عليها أثناء الحراسة، ولكنه لم يعتذر، فقاطعه جميع من في المنزل ولكنه أصر على موقفه، كنا نضحك بسرنا على ثباته بالمطالبة بحقه « كان عمره ثلاث سنوات وأربعة أشهر »، وكثرت الشفاعات من كل الأطراف ليعفو والده عنه، ولم تنفع، كانت حرباً صامتة بين جيلين، ولكن ياسر صمد وصمد وهو يطالب بحقه أولاً ، وانتهت المعركة بين الإثنين وخرج ياسر منتصراً لأنه يثق أنه هو صاحب الحق، فرحنا لصموده الأسطوري، ولكنه قال إنه لن يعيد التلفظ بهذه الكلمة البذيئة.

كان رحمه الله يتابع حتى أدق التفاصيل في المركز ، الطعام، الفاكهة لكل واحد حبة واحدة، لهذا كان مكانه كبيراً ، لا يمكن لأي شخص أن يملأه. جاء في أحد الأيام وقال لدي موعد واحد، وطلب مني مرافقته والأولاد لنخرج في رحلة، نظرت إليه باستغراب كيف؟؟ قال نأخذ بعض الطعام ونمضي اليوم في أحد البساتين، رفضت قال: تخافين أن تسيري معي؟

كذبت وقلت: لا. قال: إذا ماذا يمنعك؟ وافقت لئلا أظهر جبانة، وحضرنا أشياء من المنزل وحملت مسدساً مثلهم، ورافقنا الأخ «سابقاً نسيت اسمه ولكني نبشت الذاكرة أبو بصير أحمد جميل زرقا -وأبو سليم نذير زنابيلي» ذهبنا سيراً على الأقدام إلى أحد البساتين القريبة من المدينة، وجلسنا بطرفها، وبعد فترة قصيرة جاء الرجل صاحب الموعد وقف بعيداً عنا لم نتأكد من ملامحه، وذهب أبو خليف ومعه مرافق، وبقي أبو بصير يرافقنا عن بعد، كان صاحب الموعد كلما أتى يجلب لنا كيساً من الموالح الممتازة، فكنا نفرح لموعده، وبالفعل لم ينسَ هذا الأخ الموالح، وبدأنا نتسلى ببعضها لنترك للآخرين، وطال الموعد وهم يتكلمون ويسيرون ببطء، والمرافق إما أمامهم أو خلفهم وانتهى الموعد «لا أعرف قد يكون هذا الأخ حياً فيقرأ كلماتي ويعرف عن نفسه أو أنه استشهد رحمه الله» وتناولنا غداءنا، الذي كان عبارة عن علب طون وبندورة وجبنة، واشترى لنا من صاحب البستان خساً، ولكن صاحب البستان لم يأخذ ثمنها، كنت أنظر له باستغراب فصوت الدبابات والحواجز والرصاص يملأ الدنيا، وأعرف أن الكل يبحثون عنه، كان الخوف يملأ قلبي، وهو شعر بذلك ولكنه يريد أن أكسر حاجز الخوف هذا، وعند المغيب انتهت رحلتنا، ولكن أبو خليف لا يمكن أن ينسى صاحب البستان الذي أهدانا الخس، فملأ له صحناً من الموالح، وأرسلها مع أبو بصير وأعطاه إياها، ورجعنا سيراً كما أتينا، ولكن صاحب البستان لم تصدق عيناه هل هذه العائلة القروية تملك مثل هذه الموالح؟ وقف متسمراً

ينظر تارة للصحن وتارة إلينا، كنا ننظر إلى استغرابه ونضحك ونراقبه سراً. وابتعدنا عنه وهو مازال واقفاً في مكانه، ورجعنا إلى البيت، لن أكذب وأقول أني كنت سعيدة في هذه الرحلة العجيبة، فالكل يحمل السلاح ما عدا الأطفال، من يدري ربما قام بها ليترك لنا ذكرى ورسالة أنه يتمنى أن يقدم لنا كل السعادة. نعم لقد أصبحت ذكرى جميلة مع أنها في ذلك الوقت لم تكن كذلك، هكذا هو الإنسان لايعرف معنى الأشياء إلا بعد أن تمضي.

كان كل شيء حزين في المنزل، من سيحمل الطعام للشباب ضاحكاً ممازحاً؟؟ من سيحل مشاكل الأطفال؟ من سيخطط العمليات؟؟. لقد كان حملاً ثقيلاً على الذي بعده، ترك فراغاً لن يستطيع أحد ملأه أبداً. واستلم القيادة من بعده الأخ أبو قاسم (عبد الكريم مثلا) لقد كان ساعده الأيمن منذ تأسيس أول قاعدة انطلاق للعمل العسكري فهو يعرف كل أسراره تقريباً، وسار العمل، واستطاع أن يمسك القيادة، ولو أنها لم تخلُ من بعض من يحاول التمرد على بعض الأوامر، مع الشهيد لم يكن أحد منهم يعترض أو يرفض، لاخوفاً ولكن ثقة به.

ورجعنا لحياتنا مثلما كانت، نحن نقوم بالخدمة والتغطية على الشباب، وهم يقومون بواجبهم الجهادي، ممكن أن نستشهد جميعنا ونلحق به، من يدري، فنحن مجاهدون، ننتظر النصر أو الشهادة، وهذه غاية كل مجاهد في سبيل الله.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر....

مساء الخير لكل من عاش زمن الانكسار.

تمنيت أن أنقل ما حدث بكل أحاسيسي ولكن لم أستطع فانهمرت الدموع من عيوني وبكيت وبكيت زمن الهزيمة والانكسار والذل والهوان. كنا نعيش وكأننا آتون من كوكب آخر، ومن بلد ودين آخر، لم يكن يربطني بالعالم الخارجي سوى أم مكلومة وأب يعيش ذل وجود شرفه بين أيدي أقذر خلق الله، ولا يملك لها سوى الدعاء، وأخوة ملأ قلوبهم حقد لا يعرفون كيف ينثرونه على كل خلق الله، إلا على الشهيد فهو في قلوبهم الطهر والتضحية والصدق، وما زالوا حتى اليوم لا يرون أحداً مجاهداً في سبيل الله بإخلاص إلا هو، وعزفوا عن الاشتراك بالثورة الآن لأنهم ينظرون إلى المعارضة الخارجية كنظرتهم للنظام. كنت أستنكر ذلك منهم، كانوا يقولون هل نضحي من أجل أن يأتي هؤلاء ليحكموننا؟ لقد كان غالبيتهم في سن المراهقة واعتقل وتعذب وأهين لسنوات وهو يرى شرفه بين أيدي النظام، وكانوا مسؤولين عن تربية أطفال وهم لا يملكون من المال شيئاً أبداً، إنهم ضحايا زمن الهزيمة والانكسار، كان هذا الشعور هو السائد لدى غالبية الناس الذين اشترك أبناؤهم في الثورة، لقد كانوا يشعرون أن الكل خانهم وخذلهم وأسلمهم لعدوهم، الكل خان دم الشهداء، الكل خان وترك عائلات الشهداء والمعتقلين لمصير أسود، فالنظام حارب تلك العائلات حتى بلقمة

عيش ترمى إليهم، تكفيهم ذل السؤال. كانت المخابرات تستدعي العائلات وتحقق من أين تعيشون؟؟ ومن يعطيكم؟؟ وكيف؟؟ كانت حربهم على اليتامى والأيامى والمشردين الذين صودرت بيوتهم، فالأم تعيش في كثير من الحالات عند أهلها، وأولادها عند بيوت جدهم أو أعمامهم، ومن ترفض ترك أولادها تتسول في الشوارع، لايقل أحد أن هذا لم يحصل لقد حصل وأعرفهم، لقد كانت عائلات الشهداء وكأنهم مرض يهرب منهم أقرب الناس إليهم، إما عقوبة لوالدهم على ما فعل، أو خوفاً من سؤال المخابرات والمسؤولية. لقد كانت حرباً على حاضر وماضي ومستقبل عائلات الشهداء والمعتقلين.

كان هذا هو الجو السائد في ذلك الزمان، لازلت أذكر منذ خمس سنوات كانت ابنتي فردوس تحضر فرحاً، وعرفت إحدى الحاضرات من هي فجاءت امرأة وقالت لها أأنت ابنة المجرم إبراهيم اليوسف؟؟ أجابتها ودافعت عن والدها وجاءتني تبكي أباً لم يعرف الكثير قيمة جهاده. قالت لي: هل هؤلاء بشر يستاهل أن يضحي والدي بروحه وبنا من أجلهم ؟؟ نعم إنها عاشت هذا الذل والإنكسار من بداية طفولتها الأولى، ألف نصر الآن لن يجبر ذلك الانكسار والخوف الذي عاشته ومارسه المجتمع عليها، لقد عاشت نقيضين، فهي تربت أن والدها بطل ورمز، لتخرج إلى المجتمع المنافق ليقول عنه ذلك المجرم، كيف لطفلة أن تعيش هذا التناقض؟؟

أما ياسر فكان يعيش صمتاً حزيناً، وحرباً ممن حوله عليه، وكان يجابه هذه الحرب بصمت الرجال، كان رجلاً صغيراً في صبره وحلمه وأناته.

البارحة واجهت معركة في البيت فالكل يطلب مني ترك الكتابة وترك النت، ولكني لم أستسلم لطلبهم، لقد أخرسنا النظام عشرات السنين ولم نستطع أن نبوح بما عانينا وجاءت الفرصة فهل أتركها؟؟؟ أريد أن يعيش معي الناس آلامي، أن يواسوني، أن أجد كلمة عزاء كنت أود أن أسمعها منذ أربع وثلاثين عاماً. ما أحكيه عن عائلتي ينطبق وينسحب على كل عائلات المجاهدين والشهداء.

كل من بقي من ذلك العصر مشوهون من داخلهم، لا يمكن أن ينسوا تخاذل الناس، ولا يمكن أن يسامحوا من كل قلبهم من خذلهم وخان دم آبائهم، نعم يتصنعون السماح ويحاولون ذلك، ولكن إذا دخلت إلى أعماقهم لن ترى ذلك السماح البريء.

أعرف أن كلامي هذا سيشعل غضباً في نفوس الكثيرين، وسيتهمونني بأبشع الاتهامات، ولكني أريد أن أنفث جميع سموم الماضي على الورق وأتخلص منها إلى الأبد.

إخوتي... أبنائي من هذا الجيل، هكذا كنا زمن الانكسار، ولهذا يجب أن لايعاد ذلك الزمن مهما كلفنا من تضحيات، فهل تعرفون لماذا نقلت لكم الحالة النفسية التي عاشها جيل الهزيمة والانكسار؟ أريد أن تتعلموا منهم، أن لا تتركوا الراية والسلاح حتى يسقط هذا النظام المجرم، الذي سيكتبه التاريخ كأبشع نظام مجرم على مر التاريخ الحديث والقديم.

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

الحكاية الثامنة عشر

مساؤكم خير ووحدة أيها الثوار المجاهدون.

تتصارع الذكريات وتتزاحم، كل منها يود الخروج للنور، لقد ملت العتمة والإهمال والتهميش، أقول لها صبراً يا ذكرياتي فما زلنا في بداية الثورة، فلتبتعد تلك الحزينة منكم قليلاً، ولتقترب الفرحة، لكن للأسف أراها قليلة. منذ يومين زارنا ابن خال الشهيد إبراهيم، وكان مراهقاً أثناء الثورة الأولى «الكل يعرفه أبو النصر نصري»، ونحن نتكلم بأحاديث الذكريات طلبت منه أن يروي لي كيف نجا من معركة استشهد فيها إثنان من إخوته وأربعة من الشباب المجاهدين، وانفتحت قريحته وبدأ يقص علي ما حدث حتى السحور، كهذا نحن جيل النكسة لا يلزمنا إلا إشارة من أحد بالحديث حتى نسرد الكلام ولا نتوقف.

لا يمكن أن نذكر الثورة الأولى ولا نذكر «أبو ربيع وليد حماد ابن خال الشهيد» كان هذا المجاهد من أوائل المنتسبين لجماعة مروان حديد، قبل ملاحقة النظام للتنظيم، وكان مقرباً من الشهيد ومن عدنان عقلة أيضاً، عندما حدثت عملية المدفعية اعتقله الأمن مثلما اعتقل جميع أهل وأقارب الشهيد، لقد أظهر من الشجاعة النادرة بتحديه للسجانين وللضباط وكان يحاسبهم على اعتقاله فهو بريء، كانوا يحاولون تهدأته، ولم يقوموا بتعذيبه كالآخرين، وأثناء اعتقاله جاء أحد السجانين ورأى بيد أخو إبراهيم ورقة مكتوب عليها شعر لهاشم الرفاعي:

أبتاه ماذا قد يخط بناني والحبل والجلاد ينتظراني

فأخذها السجان وبدأ يحقق معه حول من يرسل هذه الرسالة لأبيه « شيء مضحك فعلاً هي أبيات من الشعر كتبها المرحوم هاشم الرفاعي عندما كان سجيناً » وأخرج مصطفى اليوسف للتحقيق، وعندما تأخر مصطفى قام أبو ربيع وبدأ يصرخ على السجانين، وهاج السجن صخباً وتماطفاً، وبدؤوا يطرقون الأبواب بالملاعق، حتى جاء أحد السجانين ووقف يشتمهم، فما كان من أبو ربيع ومن خلال قضبان الحديد إلا أن أمسك بتلابيب السجان وضربه ضربة أوصلته للحائط المقابل، ارتفعت معنويات السجناء لهذه الضربة وبدؤوا بالتكبير الله أكبر « في ذاك الوقت كنت معتقلة مع أخوات في سجن النساء وسمعنا التكبير وأصبحنا في قلق ماذا يحصل عند الشباب لتعلو أصواتهم بالتكبير »، وأخبر السجانون الفرع، وجاءت دورية لتأخذ أبو ربيع، وخرج أبو ربيع غير مبالٍ بما سيحصل له، وقابله رئيس الفرع سائلاً لماذا فعلت هذا يا وليد؟؟ فأجابه نحن أناس أبرياء ولا تزر وازرة وزر أخرى، هدأه الضابط والحمد لله لم يقم أحد بضربه أو تعذيبه أثناء التحقيقات.

كانت تأتي اعترافات للأمن عن شخص بأوصاف معينة، ولكن لم يظن أحد أن هذه الأوصاف تنطبق على أبو ربيع وهو موجود بين يديهم، المهم رجع أبو ربيع للسجن معززاً ومكرماً، وعمت الفرحة جميع أرجاء السجن بهذا النصر المؤزر، وتحسنت معاملة السجانين للسجناء بعد هذه الحادثة، وبعد أشهر خرج أبو ربيع وعدد من أقارب إبراهيم من السجن « بقي من هو

قريب من الدرجة الأولى» ولكن أبو ربيع لم يهرب خارج سوريا، بل أسس قاعدة وجاء بزوجته «رابعة حماد» لتقوم بخدمة المجاهدين والتغطية عليهم، وأثناء حملة التفتيش الكبرى في مدينة حلب وفي الصباح الباكر داهمت قوات النظام المركز وكان أبو ربيع خارج المنزل يشتري لوازم البيت، لم يكن في المركز مخبأ ليختبؤوا فيه، قال أحد الشباب للباقين أنتم اهربوا وأنا أغطي عليكم وأشتبك معهم «أحمد كرمو مهندس من تادف». وهذا ما حصل. حيث بقي يقاوم، وتساعده أم ربيع وتملأ له مخازن البارودة حتى استشهد، وأصيبت أم الربيع بساعدها واعتقلها الأمن وترك طفليها بالشارع «أحمد وعبير»، ولكن أبو ربيع لم يثنه اعتقال زوجته ولا تشرد أولاده «أخذهم أحد الجيران وسأل عن بيت جدهم وأوصلوهم لهناك» ولكنه استمر بجهاده، وأسس قاعدة أخرى «لم يكن التأسيس يحصل مثل الآن ولكنه تحت إشراف القائد العام وهو إبراهيم»، وكانوا يقومون بالمعارك بالتنسيق مع القيادة والقواعد الأخرى، وخلال المعركة يعرف كل مجاهد أين يقف، وما هي مهمته، ومن يتهاون بتنفيذ مهمته يوبخه القائد توبيخاً شديداً وينذره قائلاً: من يجاهد فإنما يجاهد لنفسه ومن لم يجد القدرة على العمل سأصرفه من الاشتراك بالمعارك، فنحن في حالة جهاد وأي خطأ يعرض الآخرين والعمل كله للفشل.

وهكذا كانوا، جيشاً منظماً موحد القيادة والعمل.

المهم نرجع لأبو ربيع، كانت قاعدته في أحد كروم الزيتون والفستق الحلبي، وصاحب الكرم هو صاحب المنزل يغطي عليهم ومن الصعب المجيئ بامرأة تساعدهم في ذلك «كانت المرأة عنصراً أساسياً في الجهاد في تلك الثورة» وبعد أشهر من تأسيس المركز، استطاع أحد المخبرين بالصدفة أن يكتشف وجود عدد من الشباب في الكرم، فقام بإخبار الأمن بذلك «وأظن بشهر تموز حصل هذا» وفي أحد الأيام وبعد صلاة الفجر نام الشباب، ماعدا الذي يقوم بالحراسة، وإذ برجال يزحفون على أيديهم وأرجلهم مثل النمل بين الأشجار، أيقظ الحارس الآخرين، وظنوا في البداية أن تفتيشاً عاماً يحصل، وليسوا هم المطلوبون، نزلوا للمخبأ، وبقي صاحب المنزل، وسمعوا إطلاق الرصاص فعرفوا أنهم هم المقصودون، واستشهد صاحب المنزل.

كان أبو ربيع قد زرع عبوات حول المنزل، فقام بتفجير العبوات، وتطاير الجنود، وابتعد الباقون، قاوم جميع الشباب وكانوا ثمانية هم :«وليد حماد أبو ربيع، محمد حماد أبو عامر وهو أخ وليد، نذير زنابيلي أبو سليم، هذا الأخ كان من شباب قاعدتنا ولكن كسرت قدمه وغرفتهم على السطح ولا يوجد دورة مياه فأخذوه لهذا المركز، أبو أحمد الدملخي، وحسين شاشو أبو قصي، وحسن شاشو أبو قصي، تسمى باسم أخيه بعد استشهاد أخيه، أبو مرعي صاحب البيت، محمود حماد أبو النصر أخو وليد أيضاً» أصيب أبو ربيع بيده وقدمه، وطلب من الآخرين أن يهربوا وهو يغطي عليهم. واستشهد

محمد حماد أمام أخوته وحسين شاشو وبقي أبو سليم وأبو ربيع يقاومان، وانسحب الأخوان الصغيران محمود حماد وحسن شاشو وبقي الأخوة يقاومون حتى استشهدوا جميعهم، واستطاع الأخوان النجاة، ورووا تفاصيل ما حصل، لقد جاءنا خبر استشهادهم وكنت أصوم ذلك اليوم على ما أذكر يوم الإثنين، بكاهم كل من في المنزل، فأبو سليم هو من شبابنا يعني أحد أفراد عائلتنا في المركز وكنا ننتظر رجوعه إلينا سالماً معافى، نعم يمكن أن لا تصدقوا أننا كنا نشعر أننا عائلة واحدة، نحن أهلهم واخوتهم ورفاقهم، لا يمكن أن أنسى وجوههم فدائماً أستحضرها خوفاً أن أنسى تلك الوجوه الغالية النيرة. ودعنا ثلة من فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى، رحمهم الله جميعهم وألحقنا بهم شهداء مقبلين غير مدبرين، فقد طال الفراق.

أيها الأحبة أبكيكم الآن كما بكيتكم زمن استشهادكم، يمكن أني لست أهلاً للشهادة، فأرجو الله أن تكونوا لي شفعاء يوم القيامة.

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر...

«اعذروني للإطالة فهذه حكايا وذكريات وأحداث لم أستطع اختصارها أكثر»

الحكاية التاسعة عشر

صباح الخير لكل الشرفاء والمخلصين.

وعدتكم البارحة في منشور، أن أحكي لكم عن رجل اشتهر بخيانته لله أولاً، فمن يجاهد ثم يخون فقد خان الله قبل الناس، ومن ثم لمن شاركهم الجهاد، ونام وأكل وشرب معهم لأكثر من عام ونصف، إنه: (عمر خشفة) رأيته أول مرة عندما جاء الشباب لإخراجي من بيت أهلي، في عملية نوعية، فكان أحد الشباب الذين اشتركوا في العملية. كان طويلاً أسمر اللون، عريض الكتفين، يوحي منظره الخارجي بالقوة والشجاعة، كان أحد شباب المركز الذي كنت موجودة فيها حتى ساعة اعتقالي، بسبب اعتقاله.

لم أكن موجودة لحظة تأسيس المركز ولكن عرفت فيما بعد أنه أخو زوجة الأخ (عبد القادر حربلي): المسؤول التنظيمي السابق لإبراهيم، وأختُه: (دلال خشفة): إحدى المعتقلات، وأخوه: منشد الثورة، ومحبوب الناس في ذلك الزمان: (أبو دجانة). كل هذه المزايا جعلته من شباب إبراهيم اليوسف.

لا أحد من الشباب المجاهدين، كان يظن به أي سوء، وهو كان كذلك، ولكن في إحدى المرات رأيته ذاهباً مع الشباب، إلى معركة، - وذكرتُ سابقاً شكله الخارجي الذي يوحي بالقوة والشجاعة- فقلت لإبراهيم:

ما شاء الله! يبدو هذا المجاهد شجاعاً وبطلاً. ولكني فوجئت بجوابه، قال: « لايغرنك الطول ولا العرض، هل رأيتِ أبا قاسم- يقصد عبد الكريم منلا، وكان نحيفاً مربوع القامة- هو أقوى منه شكيمة، وأشجع وأصلب بمائة مرة». لا أدري لماذا قام بعقد هذه المقارنة، ولكن بعد مدة من الزمن؛ عرفت كم كانت فراستُه صادقة، إذ كان أبو قاسم، ممن حمل الراية من بعد الشهيد، بكل أمانة وصلابة، حتى اختاره الله شهيداً، أما أبو سالم (عمر خشفة) فكان كما ظنه الشهيد...

في أحد الأيام كان لدى الشباب موعد معيّن، فجاء الأخ الشهيد (أحمد ريحاوي أبو عمر) مسرعاً، والقلق والخوف على محياه، فكلّمني والأخت قائلاً: يا أخواتي، بأقصى سرعة ممكنة، سنخرج من المركز، لقد اعتقل أبو سالم. صعَقَنا الخبر، فقلنا: وكيف وهو يحمل سلاحه؟؟!! قال: كان لدينا موعد، ورأينا -عن بعد- ستة رجال أشداء أقوياء، جاؤوا من ورائه، وأمسكوا بيديه من الخلف، ولم نستطع أن نطلق الرصاص ونخلصه، لأن المكان يعج بالشباب المجاهدين، وسوف نعرض الجميع للخطر.

كان أبو سالم أحدَ شباب إبراهيم، منذ بداية الثورة، وهو يعرف كل زاوية، ومكان يذهب إليه المجاهدون، ولا نعرف عن أي مكان سيكشف للمخابرات، لهذا يجب أن نفرغ جميع الأماكن، لقد كان اعتقاله ضربة قاصمة للثورة، ولنا نحن قاعدةَ الشهيد إبراهيم اليوسف، المعروفين بأمننا المنضبط جداً، فلأكثر من عام كنا موجودين بقاعدة مسلحة، يخرج منها الشباب ويعودون،

ويدخلون السلاح ويخرجونه، ولم يستطع الأمن كشف قاعدتنا، على الرغم من كل بحثه، والفضل بذلك يعود إلى التزام الجميع بالأوامر، ولنا نحن النساء والأطفال، بتغطيتنا لكل صغيرة وكبيرة أمام الجيران.

عمَّ المركز اضطرابٌ، وحاولنا أن نحمل ملابس للأطفال، ولكنَّ الشباب قالوا: لا تحملوا شيئاً، وبسرعة، نراكم بالوادي لنتفق، فهو أفضلُ من وجودنا في البيت، فقد نُحاصَر جميعنا، ولا ينجو منا أحدٌ، لا صغير ولا كبير.. وبالفعل خرجنا جميعنا، والتقينا بالشباب في الوادي، واتفقنا أن نلتقي بهم – إن شاء الله– في قاعدة أخرى. وودعناهم، وكان الوداعَ الأخيرَ لأنهم استشهدوا جميعاً.

لن أتكلم اليوم عن معاناتنا، أنا والأخت في ذلك اليوم، ولكن سأذكر تلك المعاناة في حديث آخر.

المهم لم نفكر في حينها: لماذا هو بالذات يُعتقل بهذه الطريقة دون الآخرين؟؟!

وبعد اعتقاله بثلاثة عشر يوماً، اعتُقلتُ أنا والأخت أم حسن، ورأيناه، وكم فرحنا لرؤيته سالماً معافى، حيث لا يوجد عليه أثر للتعذيب، لم نظنَّ ولا لحظة أنه خان الله ورسوله، وخان رفاق دربه.

كان يطلب إسماعيل– طفلي الصغير، الذي لم يبلغ من العمر تسعة أشهر– ليراه خلسة، ويقبله.

بعد ذلك افترقنا؛ فأخذوني أنا والأخت لسجن تكنة هنانو، وبقي هو في الفرع، وتوالت الأخبار: كلّ يوم يُستشهد أحد الأخوة من قاعدتنا: (كانت ابنتي فردوس هي من تنقل لي أخبار استشهادهم، فكان كلما استشهد أخ؛ يأتي إخوتي بالجريدة، ويسألونها: هل تعرفين هذا؟ فتقول: هذا عمو أبو فيصل، وهذا عمو أبو عمر، وهذا عمو أبو هيثم، وهذا عمو أبو قاسم.. كان عمرها خمس سنوات، وتعرف الإخوة معرفة جيدة، وعند زيارة أهلي لي، كانوا يقولون لي: استشهد من قاعدتكم فلان، وهكذا عرفت بنبأ استشهاد الجميع).

كنت أشعر أن هناك أمراً ما، إذ كيف استطاعوا قتل الجميع؟؟!! لقد تصيدوهم في مدة قصيرة؟!!

حتى تلك الساعة؛ لم أكن أظن بأبي سالم ظن السوء، ولكن بعد مدة قال لي أحد السجانين: إن عمر خشفة سيخرج من السجن. صعقني الخبر، كيف؟؟!! وهو من شارك بغالبية عمليات حلب ضد النظام؟؟ قال: لقد تعاون معنا لأقصى درجة، ومكافأةً له سيُخلى سبيله.

لم أصدق أنه سيخلى سبيله من أجل معلومات قدمها، فهناك الكثير ممن قدم معلومات، ولكنه سيق لتدمر.

لقد سمعت أحدهم مرةً، يقول للعناصر، حين أرادوا تسفيره إلى تدمر: لقد تعاونت معكم، وأعطيتكم معلومات كثيرة، فلماذا ترسلوني إلى تدمر؟؟!! فضربه أحدهم، وقال: «يخرب بيته، ملأ خمسة عشر صفحة من المعلومات»

هذا يعني أن أبا سالم، قدم أكثر بكثير من هذا الشاب.. وبعد مدة سمعت أنه أخلي سبيله وأصبح عنصراً من عناصر فرع المخابرات العسكرية، وقد شوهد يشرب المسكرات، مع العناصر، ويحمل سلاحاً كأي واحد منهم، عندها عرفت كيف استشهد الشباب.

كان هو من يدل قوات الأمن، على كل زاوية من الممكن أن يكون الشباب قد تحصنوا فيها، وما خفي أعظم...ولقد قال لي أحد السجانين: كان هو من يقتل الشباب بيديه. وهذا يفسّر وثوق الشباب به، عند رؤيته، فيقوم باغتيالهم..

وهكذا أمضى حياته، يحظى بالمكانة الرفيعة لدى ضباط الفرع، يحسده عليها كل عناصر المخابرات، ففي إحدى المرات كان أحد السجانين يحدثني عنه، ويتباهى أنه صديقه، فقلت له: هل تعلم أني عشت معه في بيت واحد تسعة أشهر، نطبخ له ونغسل ملابسه؟؟! قال ولم يزُرْكِ؟!! قلت له: لا أريد زيارته. قال: والله لأشتمنُه على تقصيره هذا، وأطلب منه زيارتك. (كنت والسجانين أصدقاء، نتناقش، ويثقون بي، ويسرّون إليّ بمعلومات، لأنهم لا يخافون مني، ولأنهم يعلمون أني لم أكن خائنة أبداً، والحمد لله).

في أول مرة طلب عمر خشفة ورقة زيارة لي، ولكن رئيس الفرع: مصطفى التاجر، لم يسمح له بذلك، هكذا قال لي السجان، الذي قال له: «يا عاطل، أم ياسر كانت معك، وتعتني بك، ولم تقم بزيارتها؟!!» وبعد مدة جاء مع عناصر الفرع، وقد جلبوا سجناء إلى السجن، ووقف أمام

غرفتي، وسلّم عليّ، كانت هذه أولّ مرة يقف بها أمامي هكذا؛ وجهاً لوجه، قارنته بالسجّانين، فوجدتهم أكثرَ منه نوراً، كان يقف متمايلاً يمنةً ويُسرةً، ويضحك كالعاهرات، شعرت بالغثيان من رؤيته، وبعد مغادرته بكيت وبكيت، وأصابني دوار برأسي، لقد اغتالوه من داخله، لم يبق أبا سالم المجاهد، ولكن عمر خشفة الخائن العميل.

حاولتُ أن أجد تفسيراً لتحوّله هذا، كنت أجزم أن هناك شخصية كبيرة خائنة، واجهوه بها، فانهار من داخله، هذا كان تحليلي الأقوى، ومازلت مقتنعة به، وستكشف الأيام، إن كنت مخطئة أم لا.

أو أنه واجه الحقيقة؛ بأنه محكوم عليه بالإعدام لا محالة، وخضع للإغراءات، فهو لم يكن يتعدى العشرين من عمره (من مواليد١٩٦٠)، المهم أنه كان من أكبر الخونة للثورة وللمجاهدين رفاقه، ومنذ يومين سمعت خبراً أنه موجود في إحدى المدن التركية، يدعم الثورة، ويرسل السيارات، وغيرَ ذلك.. هل يمكن أن أقبل توبة من شخص، يداه ملطختان بدم المجاهدين؟؟ الله هو من يقبل التوبة، وليس نحن. إنه أحد المجرمين، ويجب أن يعاقب ويحاكم، كغيره من المجرمين، إذ لا يوجد أحد من ثوار الثمانين؛ إلا ويعرف خيانته وعمالته، فمن يتعامل معه؟؟ إنها شبكة خيانة، ولا أعلم الغيب، ولكن عقلي يقول هذا، فهل عرفتم أنه يجب تنظيف ثورتنا من أمثال عمر خشفة؟؟ لهذا أدعو الثوار والمجاهدين إلى اعتقاله، فهو يملك مفاتيح السابق واللاحق.

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر.....

مساؤكم مغفرة ورحمة بإذن الله.

اليوم وأنا أنبش بذاكرتي لأستخرج تلك الصور من الماضي وأضعها بين أيديكم لتستطيعوا رسم الأحداث التي مضت، وأقول هل استطعت أن أرسم الصورة كاملة أم بقيت ناقصة؟، تمنيت على أحدكم أن يسألني ليسهل علي المهمة ولكنكم معذرون في ذلك فهذه حياة انقضت هي ورجالها ولم يبق إلا أنا والأخت أم حسن وهي بعيدة لا أستطيع الإتصال بها لتساعدني في ذلك وأظن أني رسمت لكم صورة حية لما كان عليه الشهداء من حياة الجهاد التي عاشوها.

حكايتي اليوم تكملة لما حدث بعد اعتقال أبو سالم «عمر خشفة» فبعد أن خرجنا جميعنا من المنزل نساء ورجالاً وأطفالاً وكان مكان الإجتماع بوادٍ خلف بيتنا اتفقنا أن نذهب أنا والأخت لبيت تعرفه الأخت. أما الشباب فلا نعرف أين سيذهبون المهم لديهم أن نكون نحن النساء والأطفال في أماكن آمنة، ودعناهم وافترقنا لم أعرف أنه سيكون الوداع الأخير ومشيت أنا والأخت أم حسن فهي حامل وتحمل طفلة وعلى رأسها كيس كبير من الملابس ويمسك بتلابيبها طفلها حسن وتسير الفتيات الثلاث وراءها يحملن أكياساً فيها حاجيات لهم، وأنا كنت أحمل اسماعيل بيد وبيد أخرى صرة ملابس ويمسك بملحفتي ياسر وفردوس، كان الوقت عند الغروب

نسير بسرعة كبيرة لنخرج من الحارة قبل أن يأتي الأمن لمداهمة منزلنا وقفنا على موقف الباص نريد سيارة تحملنا، لكنهم عندما يرون عددنا كبيراً يمتنعون عن حملنا، كان الخوف يعصف بنا وأرجلنا ترتجف خوفاً من أن نعتقل، رأينا سيارة (سوزوكي) متوقفة على باب أحد المنازل فذهبت الأخت وطرقت الباب ورجته أن يحملنا فنحن في حزن لأن أخاها عمل حادث وهو في خطر «هكذا قالت للسائق لئلا يتساءل عن سبب القلق الذي نحن فيه» وافق الرجل وركبت الأخت بجانب السائق لتدله على الطريق فنحن سنذهب لأبو حسن لنعلمه بما حصل، وهو موجود في منزل يجهزه ليكون قاعدة، وأغمضت عيني لئلا أعرف أين نتجه هكذا هي تعليماتنا فنحن نعرفها من دون أن يطلب أحد منا ذلك، وصلنا المنزل ولكن أبو حسن لم يكن موجوداً، وقالت لأحد العمال أن يقول له إن أخا زوجتك عمل حادثاً ونحن ببيت أبو هاشم أخوها الآخر، هذه رموز ولكن أبو حسن سيعرف ماذا حصل، وعدنا أدراجنا لبيت أهل أحد الأخوة «من بيت هاشم من السفيرة» لقد استقبلونا بحرارة فابنهم هاشم من الشباب المجاهد، وكان الشهيد إبراهيم وعبد الله قدسي يبيتون عندهم وقت الحاجة.

ونحن في قلق ونتشاور قالت لي الأخت: المركز بالفردوس يعرفه أبو سالم وهم لا علم لهم باعتقاله، قلت لها نذهب ونعلمهم طلبنا من الأخ هاشم أن يرافقنا ويبقى خارج حدود المنطقة، وإذا أوقفتنا دورية نقول أننا نذهب لنأتي بقابلة قانونية، وانتظر الأخ ودخلنا حارات ضيقة كان السكون ينذر بالهدوء قبل العاصفة، طرقنا باب الجيران أولاً خوفاً أن يكون المنزل

فيه كمين، وسلمنا على الجارة وسألناها عن جارتها فقالت ذهبت اليوم لبيت أهلها، فعرفنا أن لا وجود للنساء ولن يفتح الشباب لنا، طرقنا باب المركز ونحن نتكلم ليسمعوا ما نقول وأعلمناهم أن أبو سالم اعتقل وعليهم المغادرة، كنا نشعر أنهم يراقبون من يطرق الباب ولكنهم لا يردون علينا، ثم غادرنا أنا والأخت وكان هاشم (رحمه الله) بانتظارنا، وعدنا أدراجنا ولم نكد نصل حتى سمعنا أصوات الرصاص والسيارات يملأ الدنيا صخباً وخوفاً، وعرفنا أنه تم اقتحام المنزل الذي أردنا أن نوصل لهم الخبر، لقد انتابنا حزن كبير فهل استطاع الشباب الهروب قبل المداهمة أم أنهم هم من يقاوم؟؟ كنا نستمع لأصوات الرصاص لنعلم هل هي ضرب بالهواء أم تبادل لإطلاق الرصاص؟ لم ننم تلك الليلة فقد طوق الأمن جميع المنطقة ومنعوا الناس من الخروج من منازلهم فعرفنا من ذلك أن الشباب هربوا وهم يبحثون عنهم، فرحنا لذلك، ولكن أصبحنا في كرب أعظم فأبو حسن ملاحق ونخاف عليه من الإعتقال لأن العناصر طلبوا هوية كل غريب عن المنزل، وحصل ما كنا نخافه جاء الجنود وأخذوا هويات كل الرجال بالمنزل الذي نحن فيه، ورأو أبو حسن رجلاً غريباً فاعتقلوه، قال لهم أنا أعمل بمعمل لأصحاب البيت ولم أستطع العودة لبيتي فهو في القرية فبت ليلتي عندهم، ولكن الأوامر كانت اعتقال كل غريب موجود في البيوت، ووقعت الكارثة فنحن امرأتين وثمانية أطفال في مهب الريح وانقطعت الصلة بيننا وبين الأخوة (يتبع)

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

الحكاية الواحد والعشرون

مساء الخير لكل المكلومين والحزانى.

سوف أتابع بقية حكاية الأمس:

اعتقل الجنود الأخ أبو حسن وأخذوه معهم، وأيقنا أننا أصبحنا وحيدتين ويجب أن نعتمد على أنفسنا ريثما نتصل بالأخوة، حاولنا أنا والأخت أن نخرج من الحارة بحجة شراء الخبز للأطفال أول مرة منعونا، ولكن توسلنا لهم فسمحوا لنا، ركبنا سيارة وقصدنا محلاً نعرف أن صاحبه ممن يؤيد الثورة لتأمين مأوى لنا لأن البيت الذي نحن فيه غير آمن وأصحابه سوف يغادرونه لأن أبو سالم يعرفه أيضاً، لأنهم خبؤوا فيه سلاحاً منذ زمن ولهذا سيغادر أصحاب المنزل أيضاً منزلهم ووالدة الأخ حديثة الولادة فقد ولدت صبياً أسمته عبد الله (على اسم عبد الله قدسي)، رجعت والأخت خائبتين ولم نتمكن من تأمين مأوى آخر، لقد عشنا ساعات عصيبة لا يعلم بها إلا الله لم يكن خوفنا من الموت ولكن من الإعتقال، فقد جاءني خبر من داخل الفرع العسكري أنهم يتوعدون إذا ألقوا القبض علي بأن يجعلوا كل من الفرع يعتدي علي، والأخت تخاف فهي من كانت تؤوي إبراهيم اليوسف وعائلته، وهل يوجد جريمة أكبر من هذه الجريمة؟؟

ونحن في حالة يأس وإذ بالأطفال يركضون ويقولون جاء بابا لا يمكن أن أصف فرحتنا فأبو حسن هو أبو الجميع ونحن من دونه أيتام، جاء والفرحة على وجهه، سألناه كيف أخلوا سبيلك؟ قال أحد الجنود نظر إلي وقال لرفيقه هل وجه هذا العم وجه مجرمين؟ لا والله فأخلى سبيله «أخي أبو حسن رحمك الله كان نور الإيمان يشع من وجهك والبراءة والطهر واضح لكل ذو عين بصيرة كان يشهد له كل جندي يوقفه على حاجز كان أبو حسن عامل في سد الفرات في مدينة الطبقة بالرقة وكان يخطب الجمعة في أحد مساجدها كان من رجال الدعوة المخلصين وبعد قيام الثورة خطب خطبة خرج كل المصلين من المسجد إلا رجل واحد وأنهى أبو حسن خطبته لنهايتها وخرج واختفى لأن الأمن بدأ يلاحقه وهكذا كان أول عائلة لأول قاعدة عسكرية أسسها الشهيد إبراهيم كان من أشجع الشباب ولكن حبه للشهيد لا يسبقه أحد إليه كان له خمسة أطفال يقول كلهم فداء في سبيل الله. أخي أبو حسن لا تستطيع الكلمات أن تفيك حقك فأنت فوق كل وصف يكفي أن أعداءك شهدوا لك بذلك قبل محبيك كنت رجلاً من رجال الله نور وجهك لا أنساه لا أنسى كيف اشتريت لياسر اللعبة التي طلبها من والده ولم يشتريها له فاشتريتها ولم تشتري لوحيدك حسن»

والله كل واحد من هؤلاء الشباب لا تكفيهم عشرات الصفحات لأكتب عنهم

نعود لحكايتنا وسامحوني إذا استرسلت وخرجت عن سياق الأحداث.

جاء أبو حسن وقال سنذهب لبيت في قرية السفيرة هو بيت أختي من أمي، وهكذا ركبنا سيارة بحجة أننا ضيوف وأنا جارة بيت أبو حسن جئت لأتنزه معهم، كان المنزل كبير وتسكنه أربع عائلات الأب والأخوة ولكن البيوت منفصلة عن بعضها بأبواب فيما بينهم، يستطيع المرء التجول بين البيوت من دون أن يخرج للشارع، بعد يوم عرفت الأخت أننا ملاحقون وأظنها تعرف من البداية، ولكن تعود كل من يعمل بالثورة على السرية وعدم السؤال عما لا يعنيه، لقد كانت ثقافة الثورة كلما عرفت معلومات أقل فأنت بأمان أكبر، ولكن بعد عدة أيام عرفت أن هذا البيت هو بيت جد الأخ أبو هاشم، قلت لأبو حسن يا أخي أعلم الأخوة أننا لسنا بأمان لأن الأمن سوف يأتي يبحث عن أبو هاشم في بيت جده فيرانا نحن، قال أبو حسن إن شاء الله في الموعد الآتي، كنا كل ليلة لا ننام، ونصغي لنسمع صوت السيارات إذا توقفت قريبة من المنزل، ونبقى هكذا حتى طلوع الشمس ثم ننام، جاء وقت موعد أبو حسن مع الشباب وعاد وهو يحمل لنا سلام الأخوة واطمئنانهم علينا، سألته هل قلت للأخوة أننا لسنا بأمان وأن هناك خرقاً من طرف الأخ أبو هاشم؟ رد علي أبو حسن وقال والله نسيت ذلك في الموعد الآخر سأقول لهم، لقد نزل علي كلامه كالصاعقة، وأجبته كيف ذلك يا أخي كيف تقول للأخوة أننا في أمان؟؟رد قائلاً: والله يا أختي كانت المواضيع التي تحدثنا بها كبيرة ونحن بالشارع لا نستطيع أن نطيل الوقوف، ولكن إن شاء الله سنتدارك الأمر لاحقاً، شعرت أنه لم يبق وقت وأن المصيبة قد وقعت وننتظر متى اليوم أو غداً أو بعد غد (يتبع)

وإلى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر ....

الحكاية الثانية والعشرون

مساء الخير لكل المعذبين والخائفين.

بعد رجوع أبو حسن من الموعد مع الشباب ولم يخبرهم أننا في خطر أيقنت بهذا الخطر وبدأت أنتظره، وأتخيل السيناريو الذي سيحصل، سيداهمون منزل هاشم ويرونه فارغاً من أهله وسوف يسألون عن أقاربه، ويداهمون بيوتهم، ونحن موجودون ببيت جده، وكأن لسان حالنا يقول تعالوا فنحن هنا موجودون ننتظركم لتعتقلونا

يقول المثل «أم القتيل تنام ولكن أم المهدد لا تنام»، هكذا كنا نقول سامحك الله يا أبا حسن على هذا الخطأ الفادح، ونسهر الليالي نستمع لكل همسة أو حركة خارج المنزل، كانت أخت أبو حسن قد علمت بما نحن فيه. فقلت لها إذا اعتقلنا فأنكري أي معرفة بنا، وأننا ضيوف أتوا لعندك فما ذنبها؟؟ هل نرد معروفها بأنها آوتنا أن تعتقل؟؟

مضت أربع ليالي لم أنم فيها إلا ساعات قليلة جداً، والإنتظار والخوف أخذ مني كل مأخذ، ولكن كنت أتسلى بالقيام على خدمة جميع من بالمنزل لأنسى ما أنتظره، وفي صباح يوم ٠٢/كانون الأول/ ١٩٨٠ كنت أجهز بعض الأعمال في المطبخ وخرجت من الباب لجلب حاجة ما، وإذ بجنود هبطوا من الدرج وكأنهم هبطوا من السماء لكثرتهم، رجعت للمطبخ فهناك باب

مطل على الشارع لأهرب منه، ولكن الشارع كان يغص بالجنود المدججين بالسلاح، فقفلت راجعة، ودخل بعض الجنود وهم يقولون هنا بيت من؟؟ هنا بيت هاشم «كنت لا أعلم اسم الأخ ولا اسم عائلته» فقلت لهم نعم، قالوا لي ادخلي هذه الغرفة ولا تخرجي منها، كان معي الطفل حسن، ومنعوني من الخروج ولا أعلم ماذا حصل لأولادي، ولكن وبعد انتشارهم بالمنزل الكبير سمعت أصوات إطلاق رصاص، وهاج الجنود وجن جنونهم، وقالوا هناك رجل في الغرفة أطلق النار على المساعد سمير وقتله، وبدأت أسمع تبادل إطلاق الرصاص وصراخ الأطفال يملأ هذا الصباح الحزين، قلت لحسن يا حسن يبدو أننا سنبقى وحيدين أنا من دون أولاد وأنت من دون أهل.

عندما دخل الجنود يفتشون الغرفة الموجود فيها أبو حسن دخل المساعد فعاجله أبو حسن وقتله، وهنا تفاجأ الجنود، كانت غرفة أبو حسن ملاصقة لغرفة تسكنها زوجة أخ صاحب المنزل، وكانت نفساء فقاموا بجمع غالبية النساء والأطفال فيها ليكونوا دروعاً بشرية لهم، وعند إطلاق الرصاص كان الأطفال يصرخون، كان ياسر وأخوه اسماعيل في غرفة أخرى مع طفلتين من بنات أبو حسن، وكان الخوف وصوت الرصاص يملأ قلوبهم الصغيرة، كان الجنود يدخلون جد هاشم لغرفة أبو حسن ليقول لهم بأي زاوية هو موجود، وبعد زمن لا أعرف له تقديراً استشهد أبو حسن وجن جنون الجنود وهم يسألون من هذا الرجل؟؟ قالت لهم صاحبة المنزل أخي جاء لزيارتي والله لا أعلم عنه شيئاً، لقد قاموا بضربها بالبارودة على

رأسها وسال الدم على وجهها، وانهالوا عليها ضرباً كل سيأخذ ثأر المساعد سمير، وجاءهم أمر باعتقال كل من بالمنزل، خرجت من غرفتي واجتمعت بأطفالي، حملت اسماعيل الذي لم يكن قد تجاوز الشهر التاسع، وتمسك ياسر بثيابي وأخته فردوس، وحملت صرة ملابس، فأنا الوحيدة التي تعرف ماذا حصل ويحصل، قالت لي الأخت لماذا تحملين هذه الصرة سيقولون إننا جهزنا أنفسنا، قلت لها وهو كذلك ارجعي واجلبي ملابس للأطفال، ولكن الجنود منعوها وقالوا هم مجهزون أنفسهم!، لم أعط بالاً لكلامهم ولكني كنت أفكر بحيلة أخرى لأهرب، كان اسماعيل يضحك للجنود وكلما اقترب مني جندي يرفرف له بيديه الصغيرتين ويضحك فيضحك الجندي ويبتعد عني، كنت الوحيدة التي لم يضربني أحد.

«كان اسماعيل طفلاً جميلاً جداً وذكياً ومرحاً لقد أحبه حتى أعداء أبيه» وهكذا ركبنا السيارات، كانت تجلس أمامي المرأة النفساء، وقد أصيبت بشظايا في أنفها، أقول لها من بيت مَن أنتم؟؟ فتهز بكتفيها ممتنعة أن تقول لي من هم، كنت أريد أن أقول أني أختها جئت لمساعدتها، كان الأمل الوحيد بالنجاة، ولكنها رفضت، عندها عرفت أن القدر لا يمكن أن يصارع واستسلمت لقدري. كل لحظة يأتي أحد الضباط ويسألني من أنت؟؟ فأقول أخت النفساء.

يسألوني أين تسكنين أقول لهم بمنبج وزوجي يعمل بائع خضروات، كنت أعرف أكثر عناصر الفرع من اعتقالي السابق، ولكنهم لم يعرفوني فأنا

ألبس لباس امرأة قروية وأضع على رأسي كوفية سوداء، لهذا لم يخطر ببالهم أن أكون موجودة بين النساء، ثم يعود ذلك الضابط ويسألني نفس الأسئلة وأجيبه نفس الإجابات من خلال نافذة السيارة، ويتوعدني ويقول لي: « إن شاء الله تكوني كاذبة »!، فأرد عليه وأقول نعم سوف تعرفون إن كنت كاذبة، كنت أريد أن أصل للفرع لأني على يقين لو عرفوا شخصيتي فسوف يقومون بتعذيبي أمام القرية كلها، وليس أمام الجموع الفقيرة من الجنود، وهكذا قاموا بسرقة المنازل جميعها، وكانوا يحملون أباريق المازوت ويرشونها على المنزل ويحرقونه أمام أعيننا، لقد قاموا بضرب جد هاشم ضرباً مبرحاً، وكان رجلاً عجوزاً طاعناً في السن، كم حزنت وأنا أرى كيف يركلونه بأرجلهم، وهكذا كانوا يتسابقون في أعمال الإجرام والضرب، لقد حاولوا الإقتراب مني ولكن اسماعيل كان يدافع عني بضحكات،» وكأنه يقول لهم هذه أمي فأنا أضحك لكم لأغسل حقد قلوبكم بالبراءة والطهارة فيقبلونه وينصرفون، وكأن الله يرسل لي إشارات بأن لا تخافي فأنا معك وأنا من يحميك، لأنه الأعلم أني دون الآخرين ينتظرني عذاب طويل، وهكذا وصلت السيارات للفرع العسكري تحمل الجثث والمعتقلين وأنا وأطفالي من بينهم (يتبع)

والى حكاية جديدة من حكايا الجدة أم ياسر...

الحكاية الثالثة والعشرون

مساء الخير لكل المعتقلين الذين يقبعون في سجون الظلم والقهر في كل مكان.

البارحة بعد أن أنهيت كتابة الحكاية جاء ابني ياسر يودعني ورآني قد أنهيت الكتابة فجلس بقربي وقرأ الحكاية وبدأ يتذكر ويصف لي الأماكن، كان لم يتجاوز الأربعة أعوام، كان يتذكر جميع التفاصيل وأوصاف البيت، وكيفية تعامل الجنود مع الناس، هاجت الذكريات في خاطري، وبكيت في مرارة وكأني أعيش اللحظة، لحظة الانكسار والهزيمة، لقد حصل هذا أمام أهل القرية وأمام جنود يدعون أنهم ولدوا في بيت أناس مسلمين، أي إسلام كانوا يتبعون وأي قرآن يقرؤون؟؟ أهو نفس القرآن الذي نقرؤه؟؟

سأتابع الحكاية وأتمنى أن لا أتأثر مثل البارحة.

توقفت السيارات عند باب الفرع ونزل غالبية الموقوفين، نساء وأطفال وأجلسوا من كانوا ضيوفاً في غرفة، وأصحاب المنزل في غرفة أخرى، كنت أرى عناصر الفرع وأعرفهم واحداً واحداً، ولكنهم لم يعرفوني، كنت أحمل صرة فأخذوها للتفتيش ورأوا هوياتنا أنا والأخت ولكن بأسماء وهمية (هويات مزورة) جاء أحد المساعدين وقال من فاطمة واكي، قلت: أنا، قال: تعالي معي، صحبته وصعدنا الدرج الذي يؤدي لغرف رئيس الفرع

والضباط، دخلنا غرفة سألني من أنت قلت له زوجة إبراهيم اليوسف صعق ونظر إلي فهو يعرفني معرفة تامة، كان يوصلني من سجن حلب المركزي للفرع وبالعكس حملق إلي ليتبين الحقيقة وتركني وركض لغرفة رئيس الفرع، وكانت بجانب غرفته قال سيدي عزيزة زوجة إبراهيم، قال: نادها، دخلت غرفة مصطفى التاجر وكانت أول مرة أراه بها فقد كان رئيس الفرع سابقاً عدنان رام حمدان، طلبوا مني أن لا أقول أمام أحد من أنا ويبقى الأمر سراً، كان الضابط اسمه أحمد المصري، قال: ماذا فعلت بحالك؟ والله لم أعرفك! ثم استدعاني رئيس الفرع وكان يحقق مع أخت أبو حسن، وهي تحلف له الأيمان أنها لا تعرف عنا شيئاً، قال لها كانت عندك زوجة إبراهيم اليوسف، نظرت إلي وقالت هذه أنت؟ وبصقت بوجهي صحيح أننا قلنا لها قولي ما شئت ولكن أن تبصق بوجهي وأمام رئيس الفرع له معنى آخر، بلعت الإهانة، وحاولت أن أتماسك وكأن الأمر لا يعنيني، كان ينظر إلي وهو يحدق بي وكأنه يراقب كل ردة فعل، قلت له المرأة لا تعرف من أنا وبهذا أصبحت المرأة بنظرهم ضحية بريئة الحمد لله، ثم استدعاني مرة أخرى، كان يحقق مع الأخت أم حسن ويسألها أين تسكنين فترد عليه لا أعرف أين أسكن فزوجي أتى بي من الطبقة ولا أعرف حلب، ويمنعني من الخروج، سألني أين تسكنون يا عزيزة قلت له في السكري تل الزرازير في البيت الذي ضربتوه من عدة أيام، لم يكونوا بحاجة لكثير من المعلومات عني فأبو سالم موجود وهو نبع معلومات، ولكن كانت أسئلتهم هل تتواصلين

مع عدنان عقلة، ووصل الأمر بهم أنهم يريدون عدنان عقلة مني، ولكن كانت منهم ضغطاً لا أكثر فهم يعرفون أن لا صلة بيننا سوى رسالة أرسلها لي يعزيني بالشهيد، ثم جاء ضابط واستدعاني، دخلت غرفة وإذ بها زوج أخت أبو حسن وأخوه مطمشي العينين، وسألوا الأخ ألم ترى في بيت أخيك شابة تتنقل؟؟ قال لهم والله لم أر أحداً، وكذلك زوج الأخت فهو عسكري يخدم بالجيش، قلت لهم لا أكلم أحداً ولا أظهر عليهم، كانت تهمة عظيمة فهم يؤون عائلة إبراهيم وهكذا برأت العائلة من كل معرفة بي.

كان الأمر الوحيد الذي أعتبره نعمة أن التحقيق معي يكون من الضباط وليس المساعدين ولا العناصر، وكانوا يمنعون أن يتكلم معي أي عنصر وأن يسألني أي سؤال، فكنت عندما أجلس بغرف العناصر بانتظار التحقيق يحاولون الدردشة معي، ولكن السؤال الذي يعجبني أجيبهم، والذي لايعجبني أسكت، كانت مثل هذه التصرفات تغيظهم مني. المهم آخر النهار خرج كل الموقوفين وبقينا أنا والأخت أم حسن وأولادنا، كانت الطفلة سمية تبكي طوال اليوم، وتطلب أمها حليب ولكنهم لايأتون لها بحليب، حتى انتهت التحقيقات أرضعتها مع اسماعيل، وأصبحت أخته بالرضاعة، بتنا ليلتنا في غرفة من غرف العساكر وليس السجن وذلك لوجود ثمانية من الأطفال. في اليوم الثاني طلبني العميد خالد العلي وبدأ يساومني على حريتي كانت المهمة مساعدتهم باغتيال عصام العطار، أما المقابل فهو «فيلا وراتب شهري وزوج وحرس خوفاً من أن يغتالني الإخوان» كان عرضاً مغرياً لم أناقشه في فكري أبداً، وقلت لهم أنا كنت زوجة فقط ولم أساعد أحداً، ولن أساعد أحداً، قال لماذا بقيت بعد مقتل زوجك ولم ترجعي لأهلك؟؟

قلت خفت منكم أن تعتقلوني مرة ثانية، قال لا ولكن خفت على الرجال المجرمين الذين معكم، بقيت المساومات أسبوعاً كاملاً، وخلال الأسبوع استدعوا والدتي وأخي الطبيب وسلموهم أولادي «ياسر وفردوس» وبقي اسماعيل معي لأني قلت لوالدتي سراً لو حاولوا أن يعطوك إياه ارفضي، وهكذا رفضت أمي استلامه، لأنه رضيع ولا تستطيع إعالته.

وبعد الأسبوع أنهكت من الأخذ والرد في هذا الموضوع وأنتابتني نوبة من العصبية وصرخت بوجه الضابط وأنا أعطيه قراري الأخير أنه لا يمكنني أن أقبل مثل هذه المهمة، عندما رآني بهذه الحالة قال ما بك نمزح معك وبدأ يضحك ليقنعني بذلك، وفي نهاية اليوم طلبنا رئيس الفرع أنا والأخت، وكان يرافقنا العميد خالد فقال له هذه درويشة عن الأخت «لقد استطاعت أن تقنعهم بذلك ولكنها من أذكى النساء وأشجعهن» أما عزيزة فلا وأشار بإصبعه السبابة يميناً ويساراً وهكذا انتهت التحقيقات معنا، لقد كانت عناية الله معي وما كنت أخافه لم يحصل منه شيئ، مما زادني قوة وإيماناً أن الله هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. وفي المساء جهزوا سيارات ونقلونا لسجن ثكنة هنانو، وما أدراك ما سجن هنانو، وانتهى فصل من فصول حياتي في الجهاد لأنام سجينة أحد عشر عاماً وأحد عشر يوماً في سجون حافظ الأسد، والتهمة عدم التعاون مع الأمن وزوجة إبراهيم اليوسف.

والى حكاية من حكايات الجدة أم ياسر....

ملاحظة :بعد فترة سمعت أن أخت أبو حسن أصبحت عميلة وجاسوسة كبيرة تعمل مع المخابرات، حتى وشت بأخيها الذي يعمل بالسعودية، كانت تذهب وتلتقي بالناس بالخارج وتأتي بمعلومات وبأسماء الأشخاص الذين يتعاملون مع الناس داخل سوريا، للأسف حزنت لذلك، لقد كان موقفها عندما بصقت بوجهي يوحي ضعفاً بالنفس لا خوفاً، كان بإمكانها أن تقول أي شيئ ولا تفعل ذلك، أنا سامحتها في ذلك الوقت، ولكن عندما عرفت أنها أصبحت عميلة، عرفت أن هناك أموراً صغيرة تدل على شخصية ونفسية كل منا.

« كتبتها من عام تقريباً كنت عند ابني ياسر في تركيا »

استدراك (١)

أثناء تحضيري لطباعة الكتاب ظهر ميشيل كيلو وهو الشريك السياسي للأخوان يتحدث عن عملية المدفعية وعن الشهيدين ابراهيم اليوسف وعدنان عقلة بأنهما قاما بتلك العملية بإيعاز من المخابرات السورية فرددت عليه على الفيسبوك:

ميشيل كيلو على العربية في برنامج الذاكرة السياسية يردد مثل الببغاء قول جماعة الإخوان المسلمين المشروخة والتي قالوا فيها إن إبراهيم اليوسف عميل مخابرات قام بعملية المدفعية من أجل إيجاد ذريعة لضرب جماعة الإخوان، هذا تزوير للتاريخ وتضليل للأجيال، لقد اعتقل النظام الإخوان قادة التنظيم قبل الثورة بعامين وملأ السجون بعناصر الإخوان قبل ثلاثة أشهر من العملية، والإخوان هم من كشفوا تنظيم جماعة مروان حديد أي الطليعة، وإبراهيم اليوسف هو أحد أعضاء الطليعة والذي نفذ العملية قادة من الطليعة بمساعدة الشهيد. يبدو أن ميشيل كيلو إما دفع له الإخوان ليقول ذلك أو أنه خرّف ولم تسعفه الذاكرة للتحليل أو لإستقصاء المعلومات الحقيقية. إبراهيم لم يكن يوماً ضابط أمن المدرسة ولكن كان مغضوباً عليه لأنه متدين ويصلي ومن ثم هل يضحي رجل بأهله وزوجته وأطفاله من أجل أن يعطي النظام ذريعة ليضرب تنظيم الإخوان كفاكم مهزلة وتشويهاً لرجل عرف عهر وإجرام طائفة ونظام قبلكم بأربعين عاماً.

ميشيل كيلو أسمعه وهو يهرف بما لا يعرف ويحلل تحليلات ويصدر معلومات لا أساس لها من الصحة كان الأجدى به أن يتأكد منها متى كان عدنان عقلة مسؤولاً بالمخابرات العسكرية؟ ومن ثم من اشترك بعملية المدفعية تسع شباب وليس فقط إبراهيم وعدنان، ألم يسأل نفسه ما ذنب كل معتقل عند المخابرات لأنه يصلي أو قريب للاحق أو جار؟ ومن ثم من أجل المصداقية التاريخية لماذا كانت الأجواء محتقنة شعبياً ولماذا تعاطف الشعب مع المسلحين المجرمين ومن ثم كيف استطاع مجرمان من المخابرات أن يقودا ثورة ويهزا أركان النظام ولم يسعدنا ميشيل بتحليلاته لماذا سار الآلاف من الشباب يهتفون للمجرمين عدنان وإبراهيم في مدينة حلب ولم يخبرنا، وبما أنه شاهد على العصر من أين كان يأتي الدعم لهذين المجرمين؟! لقد أضحكني بتحليلاته فهي شهادة مزورة وتضليل تاريخي للأجيال، كيف نرضى بمثلك ليحكمنا وأنت بهذا الكذب والتضليل! كفانا كذابين ---كفانا مضللين

استدراك (٢)

وفي برنامج الصندوق الأسود عن مجزرة حماه سئل علي بيانوني عن الشهيد ابراهيم اليوسف فقال هو بعثي سني وردت عليه بهذا المقال:

لا أعرف لماذا قيادة تنظيم الإخوان كلما سئلوا عن الشهيد إبراهيم اليوسف يقولون بعثي ويصرون على هذا الصفة وهم يعلمون أن كل ضابط في الجيش يجب أن يكون له سجل واسم في حزب البعث، فلو كان الشهيد يؤمن بالبعث ما انضم لصفوف الطليعة المقاتلة «جماعة مروان حديد» في وقت مبكر من عمر تأسيس التنظيم لماذا لا يقول أحد من الناس اليوم عن الضباط الشهداء بعثيون؟؟ إنما يقولون شهداء مجاهدون لماذا يسقطون عنه صفة الجها ؟؟ حتى لا يظهروا متخاذلين عن الجهاد؟! هل هو طعن في شخصية الشهيد ؟! أم التعلل بعدم انتساب الشهيد لتنظيمهم ولعدم معرفتهم معرفة كافية؟؟ ألا يذكر البيانوني أن أخاه رحمه الله التقى الشهيد ليلة كاملة في بساتين حلب؟ ألم يسأل البيانوني رحمه الله هذا البعثي لماذا يحارب حزب البعث وهو البعثي؟ ألم يحاول التعرف عليه شخصياً فهو مجتمع معه للتنسيق فكيف لا يعرف عنه شيئاً؟؟؟ لقد حاول التنسيق معه وطلب انضمام ٨٠٠ شاب من جماعة البيانوني وقد رد عليه الشهيد أن التنسيق يكون على مستوى القيادة وتوسيع التنظيم في ذلك الوقت غير مرغوب فيه خوفاً من الإختراقات والخيانة. ألا يذكر البيانوني

أنه عندما لاحق الأمن شبابهم نصحهم الشهيد أن يأخذوا الحذر والحيطة لأن النظام لديه خطط لإستئصال كل ما هو إسلامي ولكن جماعة البيانوني لم تقم بأي شيئ لحماية شبابهم من الإعتقال أو الملاحقة، فهرب الأخوان البيانوني وتركا الشباب لمصيرهم فمن اعتقل أعدم، ومن انضم للطليعة قتل في الشوارع، ونجا منهم من نجا. ألا يعتبر البيانوني أن هذا خيانة أم تقصيراً بحق شبابهم الذين كانوا منظمين في صفوفهم؟؟، ألا يعتبر البيانوني التنسيق مع الخدام الذي يتحمل وزر مجزرة حماة مع كل القادة في الحكم خيانة؟؟؟ يا قادة التنظيم كفوا عن الطعن في الشهيد وقولوا خيراً أو اصمتوا.

استدراك (٣)

سئل عدنان سعد الدين الذي أوصى ألا تنشر مقابلته مع أحمد منصور في برنامج شاهد على العصر إلا بعد وفاته عن الشهيد فأنكر معرفته وقال باستخفاف: (هو بدوي من الرقة).

نحن أهل الشهيد لا يزعجنا أن يكون شهيدنا بدوياً ومن الرقة فالبدو أهل الأصالة والعروبة ولكن لأنه تكلم باستخفاف واستعلاء وبتقليل من أهمية الشهيد، ووصفه بأنه بدوي أي لا يفقه شيئاً وبدائي، لم يسأل نفسه من هو هذا البدوي الذي هز أركان النظام البعثي لمدة عام وكاد أن يسقطه لو امتد به العمر .

استدراك (٤)

وسئل فتحي يكن عن الشهيد بعد عملية المدفعية فقال: (هو من تادف التي يسكنها اليهود) في إشارة وتلميح بأن الشهيد من أصل يهودي (الشهيد من قبيلة قيس بني محمد) وبناء على قول فتحي يكن اعتمد مصطفى طلاس على ذلك وقال إن الشهيد يهودي وحن لأصله!. هكذا تكلم قادة الأخوان المسلمين عن الشهيد وبعد انطلاق الثورة كان هناك قرار قيادي بعدم التعامل بكل أشكاله مع عائلة الشهيد وخاصة مع ابنه محمد ياسر الذي كان يقود عدة كتائب في حلب و ريفها.

و برأيي الشخصي يقولون كل ذلك عن الشهيد حتى لا يظهروا أمام أبنائهم والأجيال الجديدة بأنهم هربوا من ساحات الجهاد ورفضوا مقاومة النظام المجرم .

استدراك (٥)

يقول أخو الشهيد خليل اليوسف لماذا يختلف تعامل الأخوان في السجن عن الأخوان في الخارج في نظرتهم للشهيد؟

لقد كان الشباب من الأخوان في السجن يقدرون كل عائلة الشهيد ابراهيم مع العلم أن كل عائلة الشهيد بعيدة كل البعد عن أي معرفة تخص الجماعة وكانوا يعاملونهم بكل احترام وتقدير. عرفاناً وإجلالاً للشهيد .

ليالي شهرزاد في السجون الأسدية

الحلقة الأولى

مهما طال ليل الظلم فلا بد لخيوط الفجر أن تُشرق من جديد

إلى أحرار سوريا وحرائرها

كل مرة طلب مني أن أكتب قصة حياتي على دفتر أو على صفحات الأنترنت لأنشرها، كان يتملكني الضحك فمن أكون أنا؟؟؟!! فأنا لست رئيسة جمهورية ولا وزيرةً أمريكية ولا عالمةً فضائية. كنت أُنهي الحديث معهم بسخرية كانت تزعجهم، ولكن الحقيقة ليست كذلك كنت أخجل أن أقول لهم أنّي أخاف المخابرات أو أن يتعرض بيتي للتفتيش من قبلهم فيعثروا على أوراقي.

قد يقول من يقرأ كلماتي وما علاقة المخابرات بكِ وأنتِ في هذا العمر؟؟!

نعم إنها قصة قديمة وطويلة طويتها بين ثنايا عقلي وحفرتها على صفحات قلبي ولكن بعد تفجر الثورة السورية العظيمة تدفقت ذكرياتي كنبعٍ فيّاض وانسابت على لساني كالنهر الجارف ترافقها دموعي الحارقة كالّتي كنت أذرفها في قديم الزمان ولكن من أين أبدأ حكايتي ؟؟؟ قد

ترونها مملة فهي تتكرر كل دقيقة وثانية في عمر الثورة السورية إنها حكاية كل سوري حر انتفض على الظلم والإهانة والتهميش. إنها حكاية كل امرأةٍ لا تبيع شرفها وكرامتها لهذا الطاغوت الجبّار

لو قصصتها عليكم قبل الثورة لقلتم إنّ النظام معه حق لأنّ زوجي حمل عليهم السلاح ومن حق الدولة أن تحافظ على نفسها فتخيف الآخرين بنا لهذا آثرت الصمت ولكن الآن بعد أن رأيت هذا النظام الذّي يستخدم جميع أصناف القتل والتعذيب بحقكم جميعاً يا أصدقائي ولم يفرق بقصفه بين من كان يطالب بالكرامة والحريّة سلمياً ومن يحمل السلاح وبين من يؤيده ويحبه وبين من يعارضه، وبين صغير وكبير وبين امرأةٍ شابةٍ وعجوز. ويعتقل الشباب والنساء والأطفال منكم ويسومكم سوء العذاب فأنا واثقة الآن أنكم ستصدقون ما سأرويه لكم ولكن حتى لا تملّوا فسأجعل حكايتي كحكاية ألف ليلة وليلة .

إنها حكاية (٤٠٢٩) ليلة وليلة.

إهداء إلى شهداء السجون السورية،

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان حتى كان ...

تقول شهرزاد:

في سابع يوم من أيام اعتقالي وبعد أن انتهى المحققون والمدققون والمساومون في غرف المخابرات العسكرية بحلب قرروا أخذنا إلى أحد السجون لأنه لم يعد وجودنا مناسباً في غرف التحقيق.

لقد كنت أنا وطفلي الذي لم يتجاوز الشهر التاسع مع أخت وأولادها الخمسة وأخت ثالثة أقلونا بسياراتهم يرافقنا بعض العناصر «للأمانة لم يضعوا القيود في أيدينا ولا الطمّاشات على أعيننا»

وقف رتل سياراتنا أمام باب كبير فتح لنا ومن ثم باب آخر وآخر .... حتى وصلنا المكان المطلوب

نزلنا من السيارات كان المكان رائعاً فأشجار السرو الخضراء الباسقة تملأ محيطه ويتوسطه بركة ماء، كان يشبه البيوت الحلبية القديمة. في إحدى الغرف سجلوا أسماءنا وانصرف عناصر الفرع واستقبلنا السجّانون

لقد كان المكان يعبق برائحة التاريخ وأحجاره سوداء «مثل قلوب حراسه» يتألف من ممر طويل وعريض على جانبيه أبواب سوداء مغلقة كان يسوده صمت رهيب مخيف يقطع صمت المكان بكاء طفلي الصغير الذي كان يدوي وكأنه كان يريد أن يُسمع كل سكان الكون بالحياة التي تنتظره.

فتحوا لنا أحد الأبواب أنا وإحدى الأخوات مع أطفالها نظرت إلى الجدار المقابل للباب فكان محفوراً عليه الآية الكريمة ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور/٤٨)، شعرت بقشعريرة باردة تسري في أوصالي هل الأنامل التي حفرت هذه الآية الكريمة كانت تستشرف الغيب وتعلم أن امرأتين مظلومتين وأطفالهما سيسكنون هذه الزنزانة فحفرها لتملأ أحرف هذه الآية قلوبهم بالصبر والثبات والأمل؟؟؟؟!! هل هذه الأنامل التي حفرت الآية الكريمة ما زالت على قيد الحياة؟؟!

أم نفثت روحها الطاهرة بين تلك الجدران أو غيرها من جدران السجون الكثيرة في بلادنا؟؟؟

استفقت من شرودي على صوت طفلي الذي أبى إلا أن يملأ بكاءه كل ركن من أركان السجن وكانت طفلة الأخت التي ترافقني (وقد أرضعتها بالفرع وأصبحت أخت طفلي بالرضاعة لأنه لم يكن يوجد حليب لها) تساعده بالبكاء بين فترة وأخرى.

كان البرد قارساً جداً وفي سقف الغرفة فتحةً سماوية يدخل من خلالها رياح وأعاصير تضرب جدران الغرفة غاضبة مزمجرة تقول: هل يجوز ما يحصل هنا؟؟؟ ستة أطفال أكبرهم لم تبلغ من العمر عشر سنوات يرتجفون من البرد تحت غطاء بطانية واحدة؟؟؟!!!

تجمعنا على بعضنا فشعرنا ببعض الدفء يسري في أوصالنا ورويداً رويداً خفتت أصوات الأطفال وذبلت جفونهم فكانوا بين النائم والمستيقظ

وهم يعلمون بأن هذا الذي يعيشونه حلم أو كابوس مزعج وليس حقيقة، ومازالوا على هذه الحال حتى غطّوا في نومٍ عميق. أمّا عيوني فمازالت محملقة في تلك الآية المحفورة على الجدار حتى تملّكني النعاس وغططت في النومِ كذلك، ونام شهريار السجّان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

الثانية

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لحتى كان تقول شهرزاد:

في ثالث يوم أتينا به إلى السجن استيقظنا مذعورين لأن السجّان طرق الباب بطريقة مفزعة نهض الأطفال مذعورين خائفين وأجهش طفلي والطفلة الأخرى بالبكاء الشديد

فتح السجان الباب ليدخل لنا الطعام فقلت له أفزعت وأخفت الأطفال فرد علي قائلاً: أظن أنك أنتِ التي فزعتي وليس الأطفال!!

رمى لنا الطعام وأغلق الباب بقوة. لقد كان الطعام يتألف من صحن مربى و بعض قطع الجبن وخبز عسكري (صمون مشهور برداءته) ، تلاقت نظراتي ونظرات الأخت التي كانت معي بالغرفة وأحسسنا بحسرة وحزن وشفقة على أطفالنا الذين تعلقوا بثيابنا من خوفهم، هدّأنا من روعهم وجلسنا متحلقين حول صحون الطعام وبدأنا نأكل ونطعم أطفالنا فما لبثنا أن استغرقنا بالضحك وكأنّ شيئاً لم يكن.

وبعد بضعة أيام من وجودنا في السجن طرق أحد السجانين الباب وقال: اليوم موعد الذهاب إلى الحمام.

نظرت إلى وجوه الأخوات لأستعلم عن هذه الحمام فقد كنت جديدة في السجن ومضى على وجودي بضعة أيام، رأت الأخوات الدهشة على وجهي وتساءلت كيف سنذهب لنستحم ونحن نساء؟؟؟ وكيف سنغسل ثيابنا؟؟؟ وكيف سأحمم طفلي الصغير؟؟؟؟ فانفجرن بالضحك وقلن لي « الحمام غير شكل» وخاصة عندما نصرخ للسجان، باردة – سخنة. ضحكت مع الأخوات ورددت معهن باردة – سخنة

وعندما حل المساء بعد يوم طويل من الصراخ والعذاب لأن الشباب المعتقلين كان دورهم في الحمام كان السجان يخرج سجناء كل غرفة وهو يحمل الكرابيج (ليست حلويات العيد)، ويبدأ بضرب السجناء من لحظة خروجهم من الغرفة حتى وصولهم للحمام، بعد عشر دقائق ينتهي حمامهم ويعودون كما خرجوا بالضرب والسباب والصياح

كنا نقول لهم في سرنا (حمام الألم يا شباب) وندعوا على السجانين بكسر أيديهم ولكن نراهم لاحقاً وأيديهم سليمة لم يصبها أذى، وحل المساء وجاء دورنا فحملنا ملابسنا النظيفة ولوح صابون الغار (جلبه لنا أهلنا) وليفة. دخلت لأول مرة كان المكان يتألف من غرفة كبيرة مقسمة أقسام بجدران قصيرة فيما بينها يعلو كل قسم دوش من الأعلى ليس لهم أبواب (إن هذا المكان هو بقايا الاستعمار الفرنسي وهذا السجن كان يستعمل اصطبلاً لخيول الفرنسيين). دخلت كل واحدة زاوية من تلك الزوايا وبدأ السجان يعد لنا: واحد إثنان ثلاثة ليفتح لنا سكر الماء وانهمر الماء علينا من دوش

الحمام وبدأ صراخ الأخوات يعلو من كل زاوية فمن كانت قريبة للباب أي من بداية سيل الماء تأتيها حارّة فتقول (سخنة) ومن كانت بعيدة يأتيها الماء بارد فتقول (باردة) عندها يصرخ السجان من الخارج منزعجاً: سخنة – باردة، سخنة – باردة. ليأتيه صدى صوت آخر وآخر هكذا حتى تنتهي المدة المحسوبة لنا. فيصرخ السجّان: واحد اثنان ثلاثة، ثم يغلق سكر الماء. هكذا ينتهي حمامنا ثم نبدأ بالتفاوض مع السجّان على المدة التي سنستغرقها ونحن نغسل ثيابنا وبعد صد و رد ينتهي كل شيء ونعود أدراجنا إلى زنازيننا العتيقة الموحشة بعد أن نكون قد نشرنا ثيابنا على جدران الحمام، ربما سألني سائل منكم و كيف غسلتي طفلك؟؟؟

نعم لقد كان بهجتنا جميعاً كان يزحف من زاوية حمام إلى أخرى، وكل واحدة من الأخوات تقوم بممكة لرأسه الأشقر الصغير فيهرب منها لأخرى لتفعل به كسابقتها فيخرج وهو أنظف من استحم في هذا اليوم بجسمه الصغير وقلبه الأبيض النظيف الذي لا يعرف ما يدور حوله فيضحك ببراءة جميلة نضحك لها جميعاً فيغسل قلوبنا من كل حزن وألم ونعود لندعوا على أيدي سجانينا بالكسر ويخيم الظلام وترقد كل واحدة بجانب الأخرى نحمد الله تعالى لقد انتهى يوم من أيام سجننا.

وينام شهريار السجان وتسكت شهرزاد عن الكلام.

الثالثة

عبد الكريم مثلا من مواليد اللاذقية ١٩٥٤مهندس كهرباء لا يعرفه أهل حلب ولكنه عاش وجاهد واستشهد على أرض حلب منذ بداية تأسيس أول قاعدة للشهيد إبراهيم اليوسف كان عبد الكريم (أبو قاسم) الساعد الأيمن له وبعد استشهاده كان هو القائد للعمل العسكري نيابة عن الشهيد استشهد بعد اعتقال عمر خشفة (أبوسالم) الذي كان يعرف كل مكان يلجأ له المجاهدون وقيل لي إنه من دل عليه، أهدي حكايتي لأهله ولكل الشهداء المنسيين.

إلى شهداء ثورة الثمانين المنسيين: كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لحتى كان تقول شهرزاد:

بعد اعتقالي بشهر تقريباً فتح أحد السجانين الباب وقال: البسي وتعالي مطلوبة للفرع للتحقيق واتركي طفلك لدى رفيقاتك بدأت حركتنا بالغرفة كخلية نحل والتوقعات وانتابني بعض من الخوف لأن إعادتي إلى الفرع يعني أن هناك تحقيقاً جديداً ساعدتني الأخوات على اللباس واحتضنّ طفلي ليشغلنه عن ذهابي ركبت مع عناصر الفرع سيارة جيب وطافت بنا شوارع حلب آه ما أحلاك يا حلب وما أجمل شوارعك وحاراتك القديمة لأن لي في كل قطعة بلاط سوداء قديمة ذكرى ولأن لي في جميع شوارعك القديمة حكاية يا الله هل هناك شيء أجمل من الحرية؟؟!

يا الله هل يحق لأي شخص تحت أي مسمى أو أي قضية أن يسلب حرية الآخرين بدون أن يترك له حق الدفاع عن أنفسهم؟؟؟ هل يحق لأي إنسان أن ينسف الدساتير والقوانين ويصنع لنفسه دستوراً يحاسب الآخرين عليه؟

هل نحن في وطن تسوده شريعة الغاب، القوي فيه يأكل الضعيف؟

ما زلت في شرودي والحديث مع نفسي، توقفت السيارة أمام باب كبير تنبهت لأرى أين وقفنا فإذا به باب أحد المشافي، فتح البواب الباب من دون أن يسألهم من أنتم فهم معروفون إنهم عناصر المخابرات، من يستطيع أن يكلمهم؟؟ فهم كالطواويس يمشون وعلى جنبهم مسدس يحرصون على إظهاره ليراه كل الناس فهم يتباهون به وبالسلطة المطلقة التي أعطيت لهم.

نزلنا من السيارة فقال لي قائد الدورية: سنعرض عليك أحد القتلى إن كنت تعرفينه. خفق قلبي وارتعشت أوصالي من يكون يا ترى، ولكنّي تمالكت نفسي فأنا معتادة على رؤية ذلك، ففي اعتقال سابق جعلوني أرى خمسة شهداء لأتعرّف عليهم، كان من بينهم أخو زوجي وقد كنت آنذاك حاملاً ووضعت طفلاً وأسميته على اسمه إنه طفلي الذي يرافقني في السجن.

دخلنا إحدى الغرف فرأيت شاباً نحيلاً مكشوف البطن مغطى الصدر مفتوح العينين ولكنهما ذابلتين ينظر إلى من حوله مستهزءاً بهم قائلاً: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس/٢٧)

قالوا لي: هل تعرفينه؟ قلت نعم إنه أبو قاسم (عبد الكريم مثلاً)

استدرت لأخرج من الباب حياءً منك يا أبا قاسم كي لا أرى بعضاً من جسمك مكشوف وأنت الشاب الخلوق ذو الحياء لقد كنت ترفض أن نغسل ثيابك فكنت تغسلها بنفسك وتنشرها بحياء بزاوية أحد الحبال على السطح، عذراً أبا قاسم فأنا سجينة وأعرف أنّك عندما سمعت باعتقالي حزنت كثيراً أنت وجميع الشباب وقد لمتم أنفسكم أنكم لم تكونوا على قدر المسؤولية ولم تستطيعوا حمايتي وأطفالي بعد وفاة زوجي، عذراً أبا قاسم فأنا لم أعتب عليكم يوماً فالوضع أكبر منّا بكثير وإرادة الله فوق الجميع.

وها أنا أعود الآن وحيدة إلى السجن أبتلع غصّة في قلبي لأنّي لا أستطيع البكاء عليك أمام العناصر، فهذه تهمة كبيرة لا أدري ما عقابها بعدما وصلت للسجن ودخلت الغرفة أجهشت بالبكاء ففزعت جميع الأخوات.

ورحن يسألنني بإلحاح ماذا جرى فقلت لهم: قتلوا أبا قاسم إنه من أبناء اللاذقية من حي صليبة يدرس الهندسة الالكترونية

ومن بين الأخوات الملتفات حولي رمى طفلي بجسده الصغير في حضني وهو ينظر إلي باكيةً يشاركني البكاء نعم يا حبيبي فلنبكي جميعنا هؤلاء الشباب فإنهم لا ناصر لهم ولا يوجد من يفهم قضيتهم إنهم غرباء في أرض الوطن وغرباء بين أهلهم وذويهم فلنبكهم أنا وأنت يا حبيبي فإننا نعرفهم عن قرب ونعرف ما يتحلون به من خلقٍ ودين وحياء واستقامة. ونام شهريار السجّان وسكتت شهرزاد عن الكلام

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لحتى كان تقول شهرزاد:

بعد فترة وجيزة من اعتقالي استطعت أن أتأقلم مع الوضع الذي أنا فيه ولكن كانت تواجهني مشكلة الأطفال الرضّع فكان إذا نام أحدهم وبكى الآخر يوقظ النائم وهكذا، فطلبنا من السجان أن نتوزع على غرف الأخوات المعتقلات الأخريات.

وافق السجانون جميعهم ليرتاحوا من بكاء الأطفال وهكذا أصبحت أنا وطفلي بغرفة مع عدة أخوات والأخت مع أطفالها في غرفة أخرى مع بعض الأخوات وهكذا شعرنا ببعض الراحة. كانت كل أخت تروي قصتها المأساوية لنمضي بعضاً من الوقت الطويل الممل وكان طفلي الضحكة والفرحة والتسلية لكل الأخوات ومن طرائفه أنه كلما نامت أخت زحف نحوها وأدخل إصبعه الصغير في أنفها فكنّ يحرصن على عدم النوم وهو مستيقظ ففي أحد الأيام قال أحد السجانين لإحدى الأخوات: حرام أن يكون هذا الطفل هذه أمه وذاك أبوه، هل تعطيني إياه لأربيه؟ عندما سمعت طلبه انتابتني نوبة من الضحك فهل يظن هذا المعتوه أنّه يستطيع تربيته أفضل مني أم أنّه يريد أن يربيه على السجود لحافظ الأسد ومن ثم لبشار أو أن يربيه كي يصبح شبّيحاً عدواً للشعب وإرادته؟!. خاب فأله وظنّه، ها قد كبر طفلي

وحمل راية الثورة من أبيه وأمه وهو يناضل مع الثوار لتنتصر الثورة بإذن الله.

تمر الأيام والليالي بطيئة نملؤها بحكايانا أحياناً وخلافاتنا أحياناً أخرى، قد يسأل سائل على أي شيء كنتم تختلفون وأنتم لا تملكون شيئاً من مقومات الحياة؟ فمثلا كنا نختلف بالآراء حول دور المرأة في الحياة السياسية والاجتماعية ودورها في الثورات ضد الحكام الظلمة والمفسدين فمنهن من ترى مكانة المرأة خلف الرجل مستندة لقول أحدهم وراء كل رجل عظيم امرأة ومنهن من ترى المرأة مربيو للأطفال فقط مستندة لقول أحد الحكماء المرأة التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها، ومنهن من ترى المرأة في الصفوف الأولى مع الرجل وفي كل مجال وذلك حسب القدرات والصفات التي تؤهلها لمثل هذا الدور وهكذا تعلو أصواتنا ثم تخفت كأننا نرسم دور المرأة في هذه الزنزانة شبه المظلمة وننهي النقاش إما بطرق أحد السجانين الباب لارتفاع أصواتنا أو ليدخل لنا الغداء أو العشاء وبذلك نكون قد أنهينا أحد اجتماعاتنا ولكن بدون كتابة محاضر.

وفي أحد الأيام قرع أحد السجانين الباب ثم فتحه ووقف وهو ينظر إلينا مبتسماً، فعرفنا من تعابير وجهه التي اعتدنا عليها في مثل تلك الحالات أنه يوجد زيارة لإحدانا، جالت نظراته جميع أركان الزنزانة وكأنه يبحث عن شيء وبعفوية كنا نلتفت لنعرف عمن يفتش وفجأة نادى طفلي (أبو خليف يقصد به الاسم الحركي لوالده) زيارة! عندها عرفت أن الزيارة لي فهي

المرة الأولى التي سأرى فيها أهلي وأطفالي الصغار، فرحت فرحاً ممزوجاً بالألم والحزن واستجمعت كل رباطة جأش وقوة لأني لا أريد أن يراني أهلي مهزوزة منهارة، لعلمي أنهم يستمدون الصبر ورباطة الجأش والمعنويات العالية مني، هكذا تعلموا وهكذا كنت أيام اعتقالي السابق، أنهيت ارتداء ملابسي والأخوات ألبسن طفلي وخرجنا إلى بهو خارج السجن، كنت قد أخبرتكم عنه في أول الحكاية، ركضت طفلتي فردوس عندما رأتني، احتضنتني وهي تبكي ثم جاء ياسر يمشي بتؤدة وكأنه يرسم في مخيلته شيئاً ما للمستقبل، فهذه اللحظة بالنسبة له مصيرية وعلى أساسها سيحدد مستقبله من تلك الأحداث، كان ينظر إلي بعينين منكسرتين، ضممتهم إلى صدري وقبلتهم وأنا أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أرسم على وجهي ضحكة كاذبة وتعابير فرح أليمة ومن ثم عانقت أمي، لقد كانت تعلم كل منا شعور الأخرى، فأنا أم بعيدة عن أطفالها وهي أم ابنتها سجينة تحول بينهما أبواب وأقفال وأحقاد وظلم كبير، وبعد معانقتي لأمي جاء دور أبي نظرت إلى وجهه فرأيت ما لا أراه في أي وجه من وجوه رجال العالم، هل تستطيع كلماتي أن تصف تلك الملامح؟! يكفي أن أقول لكل أب صف لي مشاعرك وأنت ترى ابنتك الشابه سجينة لدى أقذر وأوسخ رجال الأمن في العالم، عانقته وحاولت أن أظهر بصورة البطلة التي لا تهاب شيئاً ولا تنكسر لأحد، كائناً من كان، ومن ثم عانقت بعض من أخوتي الذين جاؤوا لزيارتي، كانت تشع من عيونهم الثورة والانتقام، وهكذا جلسنا على مقعد

خشبي ورويداً رويداً هدأ روعنا، وكان محور حديثنا طفلي الصغير الذي كان يتنقل بنظراته من واحد لآخر وكأنه يقول من هؤلاء الغرباء الذين اقتحموا حياتنا؟ ومن هؤلاء الأطفال الذين يشاركونني أمي؟ كنا نضحك جميعنا على كل حركه يقوم بها ثم يلتفت حوله باحثًا عن السجان ليرتمي في حضنه ويتركنا، فهو لا يعلم إلا تلك الأسرة التي يعيش بينها، وهكذا تمر الدقائق سريعة وكأن أحداً يسرّع عقارب الساعة، وتنتهي الزيارة بعد أن تشرح لي أمي ما جاءت به من مستلزمات لي ولطفلي، ويخرج أهلي وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وهم ينظرون خلفهم، وأنا أرقب كل حركة يقومون بها حتى يخرجوا من باب السجن، وهكذا أعود لزنزانتي مختلطة المشاعر بين الفرحة والحزن. ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

إهداء إلى كل السجانين المذكورين في القصة:

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لحتى كان تقول شهرزاد:

في إحدى أمسيات السجن الحزينة سمعنا جلبة وضوضاء في ممر السجن، وكان السجانون يروحون ويجيئون يفتحون باباً ويغلقون آخر، وصمت رهيب يخيم على السجن إلا من تلك الأصوات الصادرة عن السجانين، جلست والأخوات وكلنا آذان مصغية لنعرف ماذا يجري، وحاولنا أن نربط الأحداث ببعضها ،نعم الليلة هناك تسفير للسجناء لسجن تدمر أو سجون دمشق حزنا حزناً يدمي القلب، إنهم يقتادون هؤلاء الشباب إلى مذابح يرتكبونها بحقهم بدون محاكم عادلة، ولا محامي دفاع، يكفي أن يثبتوا عليهم قول كلمة واحدة لا تعجبهم، ليس بالضرورة أن تكون انتقاداً لهم ليجروه مكبل اليدين معصوب العينين، والعصي والكرابيج تنهال عليه من كل حدب وصوب، يا الله ما هذه المأساة؟ هل مات ضمير العالم؟ هل ماتت النخوة والرحمة من قلوب الرجال؟ من أي طينة مجبول منها هؤلاء السجانين اللئام؟ إنهم من كل مدينة في سوريا، واحد من الحسكة وآخر من دير الزور وآخرون من اللاذقية وطرطوس وحمص «عاصمة الثورة السورية»، ومن قرى حلب وجبل الزاوية، قد لا تصدقون هذا ولكن إذا

طلبتم مني أن أفصح عن أسمائهم فسوف أفعل، ولكن لا أرغب بذلك فقد وصل هؤلاء السجانون إلى سن الشيخوخة، وقد يكونون قد ندموا وتابوا على ما اقترفت أيديهم، ولا أريد ان أفضحهم أمام أولادهم وأحفادهم، قد يكون أحدهم مشارك في الثورة الآن.

ازدادت الضوضاء وارتفعت أصوات أقدام كثيرة، وبدأ السجانون ينادون على أسماء السجناء ويقيدونهم، إنها حفلة الوداع الأخيرة من السجانين لهم، لهذا كانت حارة جداً، وبعد لحظات هدأت الأصوات وأغلقت الأبواب وساد صمت رهيب مفزع أشبه بصمت القبور، وبدون أن نستشير بعضنا وكأننا أخذنا قراراً جماعياً أجهشنا بالبكاء المرير على هؤلاء الفتية، نعم «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»، وبعد اثنين وثلاثين عامًا أفرح عندما أتذكر أننا كنا آخر من رأى تلك الوجوه النيرة والقامات الشامخة المليئة بالإيمان والفخر بدينها، إنها السباقة في كشف ظلم وجريمة وكفر هذا النظام بكل الشرائع السماوية والأرضية مازالت ملامح وجوههم التي كنا نراها من خلال ثقوب الباب في مخيلتي كلما جاءت ذكراهم، رحم الله من مات منهم، وسلامي لكل من خرج منهم من السجن بعد عشرات السنين، ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

السادسة

إهداء لكل إنسان بقلبه ذرة رحمة وإنسانية

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان تقول شهرزاد:

بعد عدة أشهر مرت كغيرها من الأيام يوم للحمام ويوم للزيارة ويوم لتسفير الشباب إلى السجون البعيدة والأيام الباقية تكاد تتشابه كأنها يوم واحد حصلت جلبة وضوضاء في السجن غير ما اعتدنا على سماعها سألنا السجان عندما كان يدخل لنا الطعام وقد أصبحنا في هذه الفترة أصدقاء قال: نريد أن ننقلكم إلى مكان غير هذا لأن الشرطة العسكرية صاحبة هذا السجن طلبت استرجاعه فرحنا بهذا الخبر عل المكان يكون أفضل لأنه لم يكن يوجد في الزنزانات دورة مياه فكان عدم وجودها أكبر محنة لنا وخاصة عندما تمرض إحدانا لأنه لم يكن مسموح لنا بالخروج لدورة المياه سوى ثلاث مرات فقط في اليوم لقد كنت محظوظة من بين الأخوات قد تتساءلون من أين أتاك هذا الحظ؟ أقول: هل نسيتم وجود طفلي معي فكنت أخرج لأغسل ثيابه أو غير ذلك من حاجياته وفي هذه الفترة نشأت محبة كبيرة من السجانين لطفلي لقد كانت إنسانية هؤلاء السجانين تظهر في أبهى تجلياتها من خلال معاملتهم لطفلي قد تستغربون ذلك ولكن أقول بكل صدق وعدل أن السجانين هم أناس كغيرهم يحزنون ويفرحون ويحبون ويكرهون لكن النظام شحن عقولهم ونفوسهم بكره هؤلاء السجناء فهم

يعتقدون أننا متآمرون ومتعاملون مع إسرائيل وأمريكا وغيرها من العبارات التي مل الشعب السوري سماعها خمسين عاماً، لكن عندما يقتربون منا أكثر تختلط مشاعرهم اتجاهنا، أما بالنسبة للشباب السجناء فعندهم اعتقاد وايمان كامل أنهم أعداء سوريا وأعداء الشعب السوري. سامحوني لقد تهت في هذه التفاصيل لظني أنها ضرورية لأنقل لكم الصورة كاملة. كان يأتي السجان ويقول لي إن طفلك يحب اللبن فأقول له من أين سآتي له كل يوم بلبن طازج فيرد علي قائلاً: سآتيك كل يوم بصحن لبن لتطعميه كان صادقاً فيما وعد. قد تودون أن أصف لكم طفلي فكيف أصفه بتجرد عن مشاعر أم فأنا أراه أجمل وأذكى الأطفال. أعود بكم إلى بداية حكايتنا حيث تقلوا الشباب وهم يزفونهم بالسباب والشتم والكفر والعصي والكرابيج تنهال عليهم وجاء دورنا صعدنا بضع درجات وفتح باب كبير على صالة صغيرة بجانبها باب أسود كانت مساحة الغرفة ستة أمتار مربعة لا يوجد فيها أي نافذة سوى فتحة صغيرة في باب الزنزانة ينيرها ضوء أحمر صغير يضفي عليها كآبة فوق كآبتها ولا يوجد فيها دورة مياه شعرنا بخيبة أمل كبيرة يا ليتهم تركونا في المكان السابق لقد عشنا برد ذلك المكان والآن نعيش حرارة ذلك المكان، وكان للسجناء أربع زنزانات بنفس مساحة زنزانتنا ولكن كانوا يضمون ثلاثين وأربعين سجيناً في كل زنزانة ولكم أن تتخيلوا المأساة التي يعيشها هؤلاء الشباب، كانت معاناتهم كبيرة جداً كلما خرجوا لدورات المياه وعادوا يعذبون والويل كل الويل لمن يطرق باب الزنزانة للخروج لدورات المياه

في غير تلك الأوقات قد تكلفه حياته وهكذا جلست والأخوات تنظر الواحدة منا للأخرى لقد بدأت مأساة جديدة تنتظرنا إنا لله وإنا إليه راجعون.

تقول شهرزاد بعد أن انتقلنا إلى الزنزانات الجديدة كان الجو حاراً جداً كنا في الزنزانة اثنتا عشرة امرأة كان طفلي ينازع إحدى الأخوات على النوم أسفل الباب بسبب وجود فراغ بسيط بين الباب والأرض وكان كلما انزعج من إحدى الأخوات رمى حذاءه في سطل الماء، كنا نفرح لذلك لنطرق الباب ونطلب تغير الماء، كان السجانون يشجعونه على فعل ذلك نكاية بنا، وإذا حاولت معاقبته يقومون بحمايته، ففي أحد الأيام كنا نصوم يوم النصف من شعبان ولم يكن لدينا طعام سوى البرغل الذي جاؤونا به على الغداء وعملنا بجانبه ماء له ملح الليمون وثوم ونعنع يقال لها بالحلبي (زريقة) جاء طفلي بعد مشادة ولعب مع إحدى الأخوات ركله بقدمه الصغيرة فانسكبت الزريقة على الأرض وفقدنا ما كنا نريد شربه مع البرغل المطبوخ عسكرياً، والجميع يعرف طعام العسكر في سوريا، وبعد أيام جاء شهر رمضان المبارك ولم يتغير من حياتنا اليومية شيء سوى أننا كنا عندما نصلي صلاة التراويح نعصر أغطية رؤوسنا من شدة التعرق فنملأ وعاءً حجمه خمسة وثلاثين سم طولاً وعرضه خمسة وعشرين سم وارتفاعه عشرة سم من العرق الذي كان يتصبب من رأسنا، وتقول نار جهنم أشد حراً، وكنا ندعو الله بتضرع وبكاء أن يخفف عنا هذه المحنة العظيمة، وفي احدى ليالي رمضان كان أحد السجانين يتجول في ممر السجن فرأى بولا

يخرج من إحدى الزنزانات ففتح الباب وهو يصرخ كوحش هائج من بال في الغرفة وبدا يصرخ ويصرخ ولا يجيبه أحد وأخذ يتوعد إن لم يعرف الفاعل عندها سمعنا صوتاً حزيناً خافتاً يقول أنا!!!، فما كان من السجان إلا أن أخرجه من الغرفة وانهال عليه ضرباً وركلاً وسباباً، فيرد عليه السجين أنا مريض بالسكري لم أستطع أن أتمالك نفسي حتى موعد الخروج للحمام. ولكن لم تكن كل هذه الأسباب لتخفف من غضب السجان أو أن تمنحه لحظة رحمة ورأفة بهذا الرجل المسن ويبقى السجان يضرب والسجين يستغيث حتى نال التعب والإنهاك من الإثنين، كنا نسمع كل ذلك ونراه من خلال بعض ثقوب توجد بالباب كنا ندعو على هذا السجان ونبكي ونقول حاشا لله أن يترك هؤلاء الظلمة من دون عقاب إما في الدنيا أو الآخرة أو الإثنين معاً وكلنا ايمان عميق بعدل الله وعندما نصل إلى تلك المرحلة الإيمانية يهدأ روعنا ونستعيد رباطة جأشنا وإيماننا أن الله معنا وهو المنتقم الجبار لنا ولكل المظلومين في العالم

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ..

إهداء إلى روح شهداء نكبة هناتو

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان، تقول شهرزاد:

مازلنا على الحالة التي كنا عليها من الحر الشديد حتى سمعنا في إحدى الليالي أن باباً من أبواب الزنزانات يطرق، ففتح السجان وقال ماذا لديكم فرد عليه أحدهم إن سجيناً أغمي عليه من شدة الحر، فرد قائلاً: أخرجوه فأنا أعرف كيف أنعشه، فأخرجه من الزنزانة جثة هامدة سوى من بعض الشهقات وانهال عليه ضرباً وركلاً حتى خفت صوت تلك الشهقات فقال لزميله هل مات؟

فرد عليه يبدو ذلك، كنا نسمع كل ذلك لأن السجن كان صغيراً جداً وزنزانتنا أمام غرفة العناصر قام أحد السجانين بالاتصال بالفرع عبر الهاتف وقال لقد توفي سجين من شدة الحر فجاءت دورية من الفرع وأخذت السجين وبعد ساعات قليلة حصل نفس الموقف مع سجين آخر يغمى عليه من الحر وسجان يقوم بضربه ثم ينفث روحه الطاهرة لتأتي دورية تأخذه أيضاً في تلك الليلة توفي ثلاث سجناء، قد تتخيلون ما هو حالنا لقد أنهكنا البكاء والدعاء حتى مطلع الشمس ثم غفونا والدموع تملأ مآقينا وثيابنا

وقلبنا يلهج بالدعاء على هؤلاء السجانين وأن يخفف الله عنا هذه المحنة العظيمة. وفي الصباح سمعنا أصوات أقدام كثيرة والسجانون يتكلمون همساً، عرفنا أن ضابطاً من الفرع أتى ليتفقد المكان فإذا عرفنا أنه في ليلة واحدة توفي ثلاث سجناء فكيف حتى ينتهي شهر الحر؟

أخرج السجانون السجناء للتنفس وقام بعض السجناء بتنظيف الزنزانات وقرر الضابط أن هذا المكان لا يصلح ليبقى فيه هذا العدد الكبير من السجناء فنقلوا السجناء الرجال إلى سجن حلب المركزي وتركونا نحن النساء وحدنا في هذا المكان وانتهت بعض من محنة هؤلاء الرجال وكم حسدناهم لهذا الانتقال فقط لوجود دورات مياه في الزنزانات.

مرت الأيام والليالي رتيبة بطيئة يسودها الأمل واليأس وأخلي سبيل كثير من الأخوات منهن الأخت مع أطفالها وجاءت أخوات جدد معتقلات ونحن مازلنا نعيش أيام السجن اليوم مثل البارحة لا تختلف عن بعضها إلا ببعض التفاصيل والأحداث الصغيرة ونشأت بيننا وبين السجانين صداقة غريبة يسودها عدم الثقة سوى أننا نعيش في مكان واحد وفي صباح أحد الأيام رن صوت الهاتف ورد أحد السجانين قائلاً: «نعم سيدي ...» حتى أنهى المحادثة جاءنا مسرعاً، وهو يبتسم قائلاً: «يالله ضبوا أغراضكم سننقلكم إلى السجن المركزي فرحنا فرحاً عظيماً لهذا الخبر وكأنه أخلي سبيلنا، وهكذا حزمنا أمتعتنا وركبنا أحد الباصات «للأمانة لم يضعوا القيود في أيدينا»، وصلنا سجن حلب المركزي الموجود خارج المدينة في منطقة تدعى المسلمية

فتح باب أسود كبير عبر باصنا داخل ساحة كبيرة ثم صعدنا درجاً وفتح باب آخر ثم مركز السجن من الداخل ليفتح باب ثم باب حتى وصلنا أمام أحد أجنحة السجن، كان الأمن استعاره من الشرطة ليضع فيه السجناء السياسيين، فتح باب الجناح لندخل كان الجناح عبارة عن دهليز ضيق على الطرف الأيمن منه نوافذ وتحت جدار النوافذ التدفئة المركزية، والطرف الأيسر من الدهليز عشر غرف، واجهة كل غرفة مكشوفة بعواميد من الحديد، فتح باب الغرفة دخلنا وكأننا دخلنا بيت أهلنا كانت الغرفة كبيرة وفيها طاولات من الحجر ملصوقة بالجدار وفي أقصى الغرفة باب أسود يوجد وراءه الكنز الثمين الذي افتقدناه لمدة عام لقد أصبح لدينا حمام مستقل ودورة مياه خاصة بنا ومغسلة وصنبور ماء، هل رأيتم يا أصدقائي كيف يجب أن يكون الإنسان في سوريا في عهد حافظ وابنه بشار يحرمونك من جميع الحقوق ثم يرمون لك ببعض الفتات فتشعر أن هؤلاء البشر هم أولياء نعمتك ويجب أن تشكرهم وتصلي وتسبح بحمدهم ليل نهار، وهكذا كانت فرحتنا عظيمة ولكننا حمدنا الله وشكرناه لا شكراً لهؤلاء المجرمين .

في صباح اليوم التالي لمجيئنا لسجن حلب المركزي استيقظنا بنشاط وحيوية وحمدنا الله الذي أنهى عذابنا في سجن تكنة هنانو فهنا توجد أبسط مقومات الحياة البشرية وشعرنا أننا بحاجة لتنظيم حياتنا اليومية فاختارت كل واحدة رفيقة للعمل معها واحدة تنظف الغرفة والأخرى تقوم بغسل الأواني وتجهيز الطعام أما طفلي فكنت أقوم على ترتيبه صباحاً

فيطرق الباب فيأتي أحد السجانين ويفتح له الباب ويخرجه، كان جناح السجن يتألف من سجناء من الأخوان ومن حزب العمل الشيوعي وحزب البعث اليميني وبعض شخصيات من حزب الناصري، فكان طفلي يتنقل أمام جميع الغرف والكل يكلمه ويناقشه ويضحك الجميع لأجوبته الطفولية البريئة لقد أضفى على الجناح بهجة، فكل معتقل يرى أطفاله الذين تركهم خارج السجن في طفلي الصغير، وكل معتقل يخبئ شيئاً من الحلوى ليهديها له، وهكذا ينهي جولته التفقدية كي يعود للمفرزة ويجلس مع عناصر السجن. كم هي مهمة وجود البراءة! فالجميع بحاجة لها ليغسل قلبه من حقد وشوائب الدنيا. المهم أن يومنا كان يوماً سعيداً بامتياز فأشعة الشمس تدخل من نوافذ السجن ليشرق الأمل في نفوسنا ويشد الصبر من عزيمتنا.

ونام شهرزاد السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان تقول شهرزاد:

تمر الشهور والأيام كل يوم له لون وطعم من العذاب الذي نلاقيه، ولكن بعد أن تنقضي الأيام نتذكرها وكأنها يوم واحد. فكرت أنا ورفيقاتي أن نقوم بعمل يشعرنا بأننا ما زلنا جزءاً من البشر فقررنا تعلم حياكة الصوف، فأوصينا أهلنا ليشتروا لنا صوفاً وسنارات للحياكة، وكانت معنا سيدة كبيرة في السن «الآن متوفية رحمها الله» قامت بتعليمنا أصول الحياكة وفنها، وبدأت كل واحدة تنسج أحلى الرسمات وتضع جزءاً من روحها في كل قطعة نسيج، فهذه لأمها فتبثها حبها وشوقها من خلال هذه القطعة، وتلك لأبيها فتبثها أشماراً من الصبر والتفاؤل وأخرى لأبنائها فتبللها بدموعها الثكلى وأغانيها العذبة المهداة لأرواحهم الصغيرة المشردة المعذبة، وكنا ننسج بعض القطع لشباب الغرفة العاشرة إنهم لمن لا يعرفهم شباب من ريف مدينة دير الزور وحلب ومن الميادين كانوا يحفظون القرآن غيباً وكلما أنهى أحدهم حفظ القرآن كان يرسل لنا هدية وجبة غداء من اللحم المشوي وبعض الحلوى وكانت الحجة تنسج لهذا الحافظ كنزة من الصوف وكنا نقوم بمساعدتها وبالغالب كنت أنا والأخوات نقوم بحياكتها ولكن بما أننا شابات صغيرات كنا نمتنع أن تهدى بإسمنا خوفاً من بعض النفوس المريضة أن تتكلم بالسوء علينا «وما أكثرها في كل زمان ومكان»

إن عذاب المرأة في السجن أصعب من الرجل فهي تحسب كل صغيرة وكبيرة من لباسها وأفعالها وأحاديثها لأننا نريد أن نخرج من السجن دون أن تمس سمعتنا بسوء ونقول دائما «حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم» رحم الله إمرئً جب المغيبة عن نفسه» لقد حاول النظام تصوير أزواجنا واخوتنا أنهم منفلتين أخلاقياً، وكذلك كانت زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم .قبحه الله من نظام مجرم وصعلوك وحقير يستبيح كل الحرمات من أجل بقائه في الحكم. ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان ...تقول شهرزاد:

في أحد الليالي كنت مستلقية على الفراش وبجانبي طفلي الصغير الذي أتمّ الثالثة من عمره، وكان يداعبني ويضحك قائلاً: إن السجان سيذهب إلى أهله (إن السجان سينهي خدمة العلم وهو من مدينة حمص وكان يعامل طفلي بحنان وعناية كبيرة)، قلت له: وهل هذا أمر مضحك قال: سيتزوج قلت له: ماذا يعني الزواج ردّ: سيعيش مع امرأة (للعلم لا يعرف طفلي أن الآباء والأمهات يعيشون مع بعضهم ولكن السجانين شرحوا له ذلك) اقترب مني أكثر وهمس في أذني كلمات صدمني سماعها سألته ومن قال لك ذلك؟، أجابني: العناصر ففزعت لسماع تلك المعلومات التي لقنوها له وقررت إرساله إلى أهلي مع العلم كنت سابقاً أرفض ذلك لأخفف عن أمي مسؤولية تربية طفلين طفلة في الخامسة وطفل في الرابعة. لقد كان قراراً قاسياً وصغيري كل دنياي التي لم يبق منها إلا هو فزوجي استشهد وهدّم بيتي ومفارقة لأطفالي وأنا سجينة، كانت كل عاطفة الأمومة تصب عنده فقد أرضعته سنتين وثلاثة أشهر فكيف سأفارقه الآن؟؟؟ ولكن مصلحته فوق كل اعتبار وهيأت نفسي لهذا القرار ورتبت أشياءه وألعابه وبدأت أنتظر زيارة أهلي لإرساله معهم كان الحزن يخيم على جو غرفتنا لأن جميع

الأخوات كنّ مولعات بمحبته وكنّ يشعرنّ أنهنّ يفارقن أولادهن وجاء يوم الزيارات لحسن حظي لم تأت والدتي وأولادي ذلك اليوم بل جاء لزيارتي أحد إخوتي قلت له: سأرسل صغيري معك، أطرق رأسه واغرورقت عيناه بالدموع لعلمه كم أنا مولعة بصغيري. خيم الصمت والوجوم على وجوه كل عناصر المفرزة وكأن الله ألقى محبة هذا الصغير في قلوب الجميع من السجناء والسجانين. حاولت بكل رباطة جأش أن أتمالك نفسي لئلا أجهش بالبكاء ونادى أحد العناصر لصغيري قائلاً له تعال لنرى القطة، محاولاً استدراجه لكي يرفض الذهاب مع أخي، وحمل أخي أشياءه وودعني وهو يشدّ من أزري وذهب طفلي إلى عالم مجهول لا يعرف عنه شيئاً فهو لا يعرف كيف يعيش البشر ولا يعرف معنى وجود الأخوة والجدّ والجدّة لقد خرج إلى الدنيا كيوم ولدته، وعدّت أدراجي إلى سجني وأنا أجرّ ذيول الخيبة والأسى فأنا فوق كل ما أعانيه الآن أنا أم ثكلى فقدت طفلها. استقبلتني الأخوات وهنّ يكفكفن دموعهن لئلا أراها، لم يكنّ يعلمن أن قلبي وعيني وكل جارحة بجسدي تبكي ولكني أتماسك وأعلل لنفسي أن خروجه لمصلحته. جلست فوق فراشي وبدأت أنسج خيوط الصوف التي أبللها بدموعي بصمت قاهر. لقد عجزت كل الكلمات أن تصف حالي الذي كنت عليه فالله هو العليم بها. وخيّم ظلام الليل واستلقيت على فراشي وأنا أراقب السماء من خلال نافذة سجني وأهمس في نفسي ألا يوجد مكان في هذا العالم يسعني أنا وأطفالي؟؟؟ داعية الله أن يرزقني النوم لأنسى ما أنا فيه فاستجاب الله

لدعائي فغفوت لبرهة رأيت طفلي بالحلم وهو يبكي ويمدّ يديه إليّ قائلاً ماما أريد أن أعود إليك، ارتعش جسدي واستيقظت من غفوتي وأنا أبكي حتى تبللت وسادتي. نظرت حولي فرأيت الأخوات استيقظن من نومهن على صوت بكائي وجلسن جلسة عزاء بصمت رهيب حزين ماذا سيقلن لي وبماذا سيعزونني فالمصيبة أكبر من كل عزاء، وبقيت لساعات الفجر الأولى وأنا على ذلك الحال، ثمّ توضأت وصليت الفجر ودعوت الله أن يحرم الظالمين أولادهم وأن يحرمهم جنة النعيم وشعرت أن الحياة لا تساوي عند الله جناح بعوضة وأن الآخرة هي خير وأبقى. هدأت روحي وألقى الله الصبر في قلبي وقلب الأخوات وغفونا حالمات بانتقام الله لنا ولكل المستضعفين في الأرض. وأشرقت شمس صباح جديد وفتحت عيني وتلفت يميناً ويساراً وجلت بنظري في جميع أنحاء الغرفة، أين أنت يا صغيري؟؟

أين ألعابك؟ أين ملابسك؟ من سيناديني بعد اليوم ماما؟ أريد هذا وأريد ذاك؟ من سيعانقني مودعاً عندما يخرج من الغرفة؟ اغرورقت عيناي بالدموع وخفق قلبي وتسارعت نبضاته وهو يقول: ماذا حلّ بك ياصغيري؟ هل تعرفت على إخوتك وأحببتهم؟ هل تعرفت على جدتك وجدك وأخوالك؟ هل تشعر بالوحدة والغربة ؟ يا الله ماذا فعلت بك!!

لقد أرسلتك إلى عالم ومستقبل مجهول وما زلت على هذه الحال وأنا أكلم نفسي ويكاد قلبي ينفطر اجتمعت الأخوات حولي وهنّ يكفكفن دموعهن ويحاولن تصبيري ولكن ألمهن كان يوازي ألمي فصغيري كلّ صباح

يتنقل من فراش أخت إلى أخرى يداعبهن ويوقظهن فتملأ ضحكاته البريئة التي ملؤها الأمل والتفاؤل جميع أركان غرفتنا ومن ثم يلبس ثيابه مسرعاً ويطرق باب السجن الحديدي ليأتي أحد السجانين مسرعاً ويفتح الباب ويخرجه باسماً لقد كانت مداعبته تغسل كل القلوب المتسخة من أدران الدنيا التي نعيشها ومن ثم يقوم صغيري بالتجوّل أمام باقي غرف السجناء والكل يضحك لأجوبته البريئة فيضج الجناح بالضحك والمرح. صباح هذا اليوم يخيم سكون رهيب الكل في حزن، السجانون والسجناء حتى جدران السجن هكذا كنت أراها حزينة مثل قلبي المكلوم، كان الكل يسأل إحدى الأخوات بتكتم كيف حال أمه؟ بسرية تامة ظانين أني لا أعرف ما يدور حولي من حزن الآخرين لفراق صغيري الجميل الذّكي، وبقيت بين شوق وحزن وبكاء وضحك لما كان يقول ويفعل. ثلاثة أسابيع وأنا أشعر بالضياع حتى جاء لزيارتي. ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

كان يا ماكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد عودتي من الزيارة فرحت وحمدت الله لرؤية طفلي وقد استطاع تجاوز الصدمة والفضل يعود لأهلي الذين أحاطوه بكل رعاية وحب وعطف واهتمام لكن أكثر ما آلمني أن طفلي آثر الحرية على البقاء معي لقد عرف معنى أن يكون الإنسان حراً مع العلم أنه كان في السجن محاطاً بكل أسباب الرعاية والحب. لقد عرف ببراءته القيمة الكبرى للحرية لهذا قام الشباب بثورتهم ليخلصونا من حالة الاستعباد والذل الذي نعيشه تحت نظام لا يعترف بالإنسان ولا بأي مبدأ وقيمة أخلاقية لا يعترف سوى ببقائه على كرسي الحكم. جلست فوق فراشي وتحلقت الأخوات من حولي وهنّ يبتسمن ويسألنني بحب وشغف ماذا فعل؟ وماذا قال عندما رأى الحياة أول مرة؟ لقد خرج إلى الشرفة ونظر حوله وسألهم لماذا تعيشون فوق بعضكم البعض؟ نظر كل من حوله إليه نظرة استغراب، لم يخطر في بال أحدهم أن يُسأل مثل هذا السؤال المهم أنهم أنهوا الموقف بالضحك والمرح لئلا يتعرضوا لسؤال لا يستطيعون الإجابة عنه أو أن جواباً يؤثر على مشاعره. وهكذا ضحكت أنا والأخوات وكأننا نريد أن نغطي حزننا بفرح كاذب.

استلقيت على فراشي وبدأت الذكريات تتراءى أمام ناظري من الشهور الأولى لحملي به حتى ذهابه تذكرت كيف عُذبت بالدولاب والكهرباء وأنا حامل به ولكن الله سلمه.

تذكرت حالة الرعب التي عشتها وأنا خائفة من خبر سيء على زوجي ولكن الله سلمه، تذكرت كيف كانت ولادته عند انتشار الوحدات الخاصة بحلب فكانت تطلق النار على من هبّ ودبّ ولكن الله أعان والديّ وسلمهم ليأتوا لي بالقابلة وسهل الله ولادته وسلمه، تذكرت وتذكرت كلّ حادثة كادت تودي بحياته ولكن الله سلمه شعرت بهدوء وراحة وطمأنينة وقلت في سري لك الله يا ولدي كما قال أبوك رحمه الله يوم سمعك تبكي وكان داخل المخبأ وأنا مشغولة عنك «لك الله يا ولدي لك الله يا ولدي».

استطعت الخروج من محنتي التي ألمت بي عند فراقي لصغيري استعدت رباطة جأشي وتهيأت للآتي من الأيام فقد تعودت امتصاص الصدمات والمحن لقد سمعنا من عناصر السجن أن عفواً قريباً سوف يصدر فكنا بين الأمل واليأس ولكن المؤمن لا ييأس من روح الله وأشارت علينا إحدى الأخوات أنه يجب علينا أن نشتري صوفاً لنحيكه ملابس نلبسها عند خروجنا من السجن لا أعرف لماذا كان يراودني خوف دفين بأنني باقية ولن أخرج ولكن حاولت التغلب على هذا الشعور واشتريت صوفاً كباقي الأخوات وبدأنا الحياكة ونحن نحلم بحياة سعيدة مع أطفالنا ونخطط لذلك اليوم لقد امتلأت حياتنا بهجة ونقاشاً وأملاً بالمستقبل لقد كانت ظروفي أسوأ

الظروف من بين جميع الأخوات فأنا لدي ثلاثة أطفال ولا بيت يؤويني ولا مورد يكفيني السؤال، فأنا سوف أعود لبيت أهلي كما خرجت أول مرة ولكن برفقة ثلاثة أطفال، ومع ذلك كنت أقول المهم أن أخرج من السجن والباقي يتكفله الله، فكنت أخطط لأعمل وأستأجر منزلاً لأعيش مع أطفالي ولو على بساط عتيق ونأكل الخبز الحاف المهم أن أجتمع بهم وأضمهم إلى صدري، إن مأساتهم أعظم من أن تتحملها قلوبهم الصغيرة لقد استطاعت كل واحدة منا أن تخطط لمستقبلها بمشورة الأخوات الأخريات فكنا نخرج بنتائج ومقررات ربما لا تستقيم ولا واحدة منها بالمستقبل وهكذا أمضينا عدة شهور لم نشعر بها لأن الأمل بالخروج من السجن ملأ قلوبنا بالحياة

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

الحادية عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

في أحد أيام اعتقالنا قرر رئيس مفرزة السجن أن يمنع بابور الكاز عن السجناء الذي كانوا يستخدمونه للطهي والاستحمام فاحتج السجناء على هذا القرار وخاصة السجناء أهل ابراهيم اليوسف الذين كان عددهم اثني عشر رجلاً اعتقلهم الأمن فقط لقرابتهم بابراهيم وكان لهم في السجن ثلاثة أعوام لهذا أراد نائب رئيس المفرزة وهو علوي من قرية الشيخ بدر من قرى طرطوس الذي كان يسيطر سيطرة كاملة في القرارات على رئيس المفرزة الذي هو سنيّ من قرى حماة أن يستفزهم ليجد مبرراً لعقوبتهم وكان أكثرهم من كبار السن فكان له ما أراد. اعترضوا على هذا القرار وانبرى أحدهم يحاور السجانين ولكن السجانين قاموا بضربه وتعذيبه عندها ثار بقية السجناء محتجين على هذا التصرف وأخذوا يطرقون الباب احتجاجاً على تعذيب قريبهم من دون ذنب يُذكر فما كان من السجان الرئيس ونائبه إلا أن أخبروا فرع الأمن العسكري مدعين أن هناك تمرداً في السجن وأهل ابراهيم يهددون السجانين به (مع العلم أنه قد مضى على استشهاد ابراهيم عامان) خيم صمت وسكون رهيب على السجن وكان السجناء في ترقب وخوف شديد وبعد فترة قصيرة من الزمن وإذ بعناصر

كثيرة تقتحم السجن وبيدها عصيّ وكرابيج، فتحوا غرفة الرهائن أهل ابراهيم وانهالوا عليهم بالعصيّ والكرابيج على جميع أنحاء جسدهم من الرأس حتى القدم وأشبعوهم سبّاً وكفراً وشتماً بأبشع الألفاظ النابية وبعد أن أنهكهم التعب خرجوا من الغرفة وكان السجين الذي خرج ليحاورهم مكبّل اليدين وأخذوا يركلونه بأحذيتهم ويتقاذفونه كالكرة وهم يضحكون ويصرخون ومن ثمّ هجموا على غرفتنا ومزقوا الستار الذي نضعه على واجهة الغرفة وحاولوا فتح الباب ولكن أحد الضباط منعهم من دخول الغرفة وأخذوا يشتموننا بأبشع الألفاظ السوقية والفاجرة، لا أستطيع أن أصف لكم مشاعرنا بضع فتيات وامرأتان عجوزان وطفلة وُلدت في السجن كنا نرتجف خوفاً وهلعاً من هؤلاء الوحوش الحقيرة التي لا تعرف الشرف ولا الكرامة التي هجمت علينا، بعد كل تلك السنين حاولت أن أجد لفظاً أو وصفاً يليق بهم ولكني لم أجد وبعد انتهاء تلك الحفلة غادروا السجن وهم يتوعدوننا وجميع السجناء بأقسى العقوبات إذا تمّ الاعتراض على أيّ أمر من السجانين. جلسنا وقلوبنا تخفق فزعاً وحقداً وألماً وسألنا أنفسنا أين تربت هذه الوحوش الحقيرة إنهم من جميع أنحاء سوريا هل يمكن أن يكون الشعب السوري قد وصل إلى هذه الدرجة من السفالة ليربي أولاده هكذا؟ أم أن النظام عمل على غسل أدمغتهم من كل شرف وفضيلة ..وبعد مدة من الزمن هدأ روعنا ولكنا أجهشنا بالبكاء والدعاء عليهم لقد مزقوا الستار الذي كنا نضعه وأصبح كل من دخل وخرج من الرجال يرانا ونحن جالسات

ونحن نيام، لم نستطع تلك الليلة النوم لقد أمضيناها بالصلاة والدعاء على كل من خذلنا وخذل شبابنا ووقف مع هذا النظام المجرم الكافر .....

بعد فترة قصيرة كان الضابط الذي مزق الستار وشتمنا بأقبح الألفاظ يركب سيارته هو وزوجته فصدمته سيارة أخرى ومات، كم كان فرحنا عظيماً وأملنا كبيراً أن الله سينتقم لنا كما انتقم لنا من هذا المجرم الوضيع.

وهكذا مرت تلك اليلة المشؤومة مسرعة ولاحت خيوط الفجر الأولى ولم يجد النوم إلى عيوننا سبيلاً وبدأت الحياة تدب في جناح السجن كنا في إرهاق وحزن وتعب كيف سننام وكأننا بالعراء؟!

كان هذا الشعور يزيدنا إرهاقا كلما مر سجان من أمام غرفتنا أصابته الدهشة (لأنهم لم يكونوا موجودين ليلة الأمس ولم يعرفوا ما حصل، خاصة السجانون التابعون للأمن السياسي)

كنا نلتف حول أنفسنا ونخفي ذاتنا ظانين أن أحداً لن يرانا مع العلم أننا كنا بكامل اللباس الشرعي كان كل سجين يمر أمام غرفتنا يحاول استراق النظر إلينا منهم ما يدفعه حب الفضول ومنهم حزناً وألماً ومنهم شباب يسترقون النظر إلى النساء وكأنه يسأل نفسه هل تلك النسوة تشبه النساء بالخارج أم أنهن مختلفات عنهن كنا نقرأ ذلك في عيونهم المنبهرة التي تسترق النظر إلينا لقد زادتنا تلك النظرات حزناً وإرهاقاً هل نحن للفرجة؟ هل أشكالنا تشبه الحيوانات داخل أقفاص الحدائق؟ يا الله ما

هذا الشعور الذي ينتابنا!! يا الله هل من مغيث! لقد أكل التعب منا كل صبر وجهد فلمعت في أذهاننا فكرة ممكن تنفيذها وهي أن نخيط الأغطية مع الفراش ومن ثم ننام داخلها محاولين بذلك ستر أنفسنا من العيون أثناء النوم لأنه (كما يقال النائم مثل الميت) وهكذا سرى الهدوء والاطمئنان إلى أرواحنا واستعدنا بعضاً من رباطة جأشنا وأخذنا زمام المبادرة وأصبحنا نسخر من كل سجان يدخل ويخرج نضحك على حركاتهم وتصرفاتهم وكذلك على السجناء تراقبهم وهم يمرون من أمامنا محاولين استراق النظر إلينا وشيئاً فشيئاً تعودنا على هذا الوضع الجديد وعندما حل المساء كنا قد أخطنا الملاءات بالفرش ودخلنا المغارات التي صنعناها لنختبأ داخلها ولم نتركهم يسرقوا عفافنا وسترنا مثلما ما أرادوا وانتصرنا عليهم بديننا وإيماننا وهزمناهم شر هزيمة ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

الثانية عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان تقول شهرزاد:

لقد بدأ تاريخ جديد لي من اللحظة التي مزّق السجانون الستار وكأنهم مزقوا النوم من عيني لأبقى طوال الليل مستيقظة أرقب نجوم السماء من نافذة السجن وأقول لنفسي ألم يبق لي مكان في الأرض ولا في السماء يلمّ أجزائي المبعثرة؟! كنت أجلس وكأنّ أحداً كلّفني بمراقبة وحراسة الأخوات النائمات، كانت ساعات نومي كل ليلة لا تتجاوز ساعتين، لهذا أخذ الإرهاق ينال مني كل مأخذ وطلبت من أحد السجانين طبيباً نفسياً، ضحك السجان وسخر مني قائلاً: لا يمكن أن أصدق أنك فقدت عقلك ويرفض ذلك، هكذا هي ثقافة مجتمعنا يظنون كل من يعاني من أزمة نفسية أو عصبية أنه فقد عقله (مجنون) ولكن بعد إصرار شديد مني وافق على طلبي واستدعى أحد الأطباء النفسيين، فسألني الطبيب كم عام لك في السجن وهل عندك أطفال؟؟؟؟ لم يستطع الطبيب أن يسألني أكثر من ذلك أمام السجانين لأنه يخاف منهم، ولكنه أمعن النظر في عينيّ وتوصل لنتيجة مفادها أن هذا القلق النفسيّ ناتج عن فقدي لأطفالي، ولعلمه أن السجناء السياسيين محرومون من كل أسباب الحياة البشرية وصف لي أحد الأدوية التي تساعد على النوم، وفي أول ليلة من تناول الدواء لم تعرف عينيّ النوم أبداً، ثمّ ثاني ليلة أما الليلة الثالثة فعدت كما كنت سابقاً قبل تناول الدواء فرميت

علبة الدواء وقررت أن أتعامل مع الوضع الجديد كواقع وليس كعارض، ولكن الله تعالى يقول وقوله الحق: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا) وهكذا جاءني النصر من الله فقد حضرت لغرفتنا سجينات جديدات من فرع الأمن السياسي بتهمة حيازة وتصنيع المخدرات، فانقلبت حياتنا المنظمة رأساً على عقب، وألقي على عاتقي أعمال التنظيم والنظافة، حتى أخذ التعب مني كلّ مأخذ، وعندما حلّ المساء وأرخى سدوله على الكون تمددت على فراشي ورحت أغطّ في نوم عميق، وتركت مهنة عدّ النجوم.

كانت الأخوات ينظرنّ إليّ يمتلكهنّ القلق والفرح وفي الصباح استيقظت بكامل النشاط والقوة والحيوية وبدأت حياة جديدة مع تلك النساء. كانت الأولى شابةً في الخامسة والثلاثين من العمر هي المعلمة الأولى بتصنيع الهيروئين (البودرة البيضاء للشم) كانت هذه الشابة معجبة ومولعة بأخيها الشاب الذي يصغرها بعشر سنوات، كان حبها له كحب الأم لا الأخت لقد أرادت من تصنيع المخدرات أن تحسّن الوضع المادي لأخيها، فهي تريد أن يكون له مكانةً اجتماعيةً لم يستطع أن يحققها بالطرق المشروعة فساعدته على تحقيقها بالطرق غير المشروعة. أما الثانية فكانت مدمنة هيروئين تعمل بتجارتها لتستطيع تأمين المال من أجل شرائها، مع العلم أن وضع زوجها المادي ممتاز ولديها عشرة أطفال، لكنها أدمنت على المخدرات من حيث لا تدري لتنسى همومها، والسيدة الثالثة متوسطة في العمر كانت مروجة أيضاً.

كانت السيدة الأولى تعتز بنفسها لأنها لم تعترف على التجار الحقيقيين رغم العذاب الذي مورس عليها، والثانية تراها للحظة متوازنة وللحظات كمن فقدت عقلها، تكلم السجانين بصخب وتطرق الباب، أما الثالثة فهي إمرأة رضيت بقدرها وصبرت لا تكاد تسمع صوتها.

انقسمت الغرفة تلقائياً لطرفين: طرف لي وللأخوات انحشرنا بجانب بعضنا، والطرف الآخر لتلك السيدات الثلاث. لم تستطع بعض الأخوات التأقلم مع هذه الفوضى، فانزوت فوق فراشها لا تكلم أحداً، ومنهن من بقيت على الحياد، أما أنا فكان الفضول يدفعني لأتعرف على هذا العالم الخفي، وبما أنني أصبحت صديقتهن المقربة فقد شرحن لي كيفية تصنيع الأفيون بتحويله إلى بودرة هيروئين، وكانت الأخوات يعلقن مازحات لقد وجدتِ عملاً بعد خروجك من السجن، ونضحك لذلك.

رغم كل الصداقة بيننا لكنهن كن ينظرن إلينا نظرة حسدٍ، لأنهن يرون كيف ينظر لنا السجانون بإحترام وتقدير، ولا يفعلون ذلك معهن، وفي إحدى المرات قالت إحداهن للسجانين (نحن لم نكن موجودات أثناء الحديث) سأضرب سجينات الإخوان، فرد عليها غاضباً: ياويلكن، إذا امتدت يدٌ إحداكن على واحدةٍ منهن. جاءت السجينة وقالت كلمت السجان مازحةً بأني سأقوم بضربكن ولكنه غضب وتوعدنا، إنهم يحترمونكن جداً ويخافون عليكن.

صحيح أنهم سجانون ولكنهم يعلمون الفرق الكبير بيننا وبين تلك النسوة، إن العقل الجمعي للمجتمع مهما حاول الأعداء تشويهه يبقى محترماً للفضيلة والشرف والكرامة مهما سقط في أوحال الضياع والإنحراف الخلقي. وكان وجود السجينات خير دليل على إحترام المجتمع للنساء الفاضلات، مهما حاولوا تشويه سمعة الأزواج والأباء والأخوة.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

الثالثة عشر

إهداء لكل من يحارب تجارة وتعاطي المخدرات (٢)

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان. تقول شهرزاد:

بقيت السجينات الثلاث في ضيافتنا ثلاثة أشهر بالرغم من الإختلاف والتباين الكبير بيننا إلا اننا استطعنا أن نتعايش مع بعضنا وتكاتفنا إنسانياً. ومن خلال قربي منهن اكتشفت فيهن الجزء المضيء من شخصيتهن، والحس العميق بالمسؤولية، إن المجتمع يرى الجانب المظلم من الأشياء ولا يحاول أن يتعمق ويبحث ليرى الجانب المشرق في كل منا، إن الحياة التي طغت عليها المفاهيم المادية وأن قيمة المرء بما يملك من مال لا من قيم وأخلاق هي التي دفعت تلك الأخت الحنون لتبحث عن مصدر مال يجعل لأخيها مركزاً اجتماعياً مع ما يتحلى به من أخلاق منحطة وعدم مسؤولية وأنانية، لقد بحث هذا الشاب عن مكانة يظنها تليق به في المجتمع فتزوج فتاة من حلب وهو ابن عشيرة فلم يجد تلك المكانة لأن الزوجة كانت أخت أحد مدمني المخدرات، ثم تزوج ابنة خاله ولكنها كانت إمراة بسيطة لم تلبي طموحه الكبير الذي يحاول الوصول إليه بطرق غير مشروعة فهو يحاول الوصول إلى قمة من سراب وبقليل من العمل، لقد ضحت هذه الأخت بمستقبلها وبكل شيء لتلبي طموح أخيها الذي ليس له حدود.

وهكذا هن نساء سوريا العظيمات فالتضحية نبراس حياتهن، لقد رأيت أنني أشترك وتلك الفتاة في التضحية ولو كنا مختلفات في الأدوات والسبيل والغاية ولكنها التضحية بأسمى معانيها، كنت أحزن لتلك الفتاة وأراها ضحية من ضحايا المجتمع المادي الذي لا يأبه لمستقبل شبابه ويعبث بطموحاتهم.

كانت دائماً تقول لي كان أخي يود امرأة مثلك، كنا نضحك وتقول لي الأخوات مازحات ماذا يهمك بعد خروجك من السجن العمل مضمون والزوج موجود، ونضحك لهذا المستقبل الموعود.

أما المرأة الثانية فهي تمثل الفتاة الصغيرة التي تزوجت من ابن عمها رغماً عنها، ولم يكن لها رأي في ذلك ولم يكن لها عمل سوى الإنجاب، وأما زوجها فترك لها مسؤولية تربية الأطفال وذهب ليبحث عن إمراة أخرى فهو لا يرى في بيته الراحة والدفء المنشود، فكان يأتي آخر الليل من عمله (كان مالكاً لأحد المطاعم المشهورة في مدينة حلب) ليجد زوجته متعبةً ونائمةً مع أطفاله مما دفعه للبحث عن زوجة تملأ عطشه العاطفي، وليهرب من ثقل المسؤولية، وهكذا وجدت الزوجة وسيلة للهروب من هذا الوضع فلجأت لتعاطي المخدرات عن طريق جارتها وصديقتها الفتاة الأولى، وهكذا انهارت العائلة بانحطاط الزوجين إلى أسفل درجات المجتمع.

أما السيدة الثالثة فهي إمراة كبيرة في السن وككل نساء مجتمعنا تضحي المرأة بشبابها في سبيل عائلتها، ولكنها لا تأبه لجمع المال، وعندما

تكبر ترى نفسها محتاجة لأولادها، وخاصة إذا توفي زوجها، فتبقى تحت رحمة أولادها وزوجاتهم، وفي مجتمعنا فقدت كثير من الفتيات القدرة على الإحساس بالآخر فباتت الزوجة لا تقبل حتى بزيارة والدة زوجها، فضلاً عن السكن معها، وليصدق قول رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم من علامات يوم القيامة (يبر زوجته ويعق والدته)، لهذا لجأت تلك السيدة للعمل كمروجة مخدرات لتحصل على قليل من الاكتفاء المادي الذي يقيها ذل الحاجة، ولم تحسب تلك المرأة المسكينة عواقب ما تقوم به أو أنها لم تكن تعلم ماذا يسبب ترويج تلك المخدرات من تأثير على الشباب والمجتمع، فمن أين لها أن تعرف كل هذا وهي تعيش في مجتمع غارق بالجهل والأمية؟!

إن تلك النساء عيّنة من المجتمع الذي تحاول أياد خفية العمل على انحطاطه والسيطرة على عقول الناس فيه، وبث قيم ومفاهيم غريبة عن مجتمعنا الذي كان محافظاً على القيم الإنسانية النبيلة والأخلاق الفاضلة، إن هذا النظام يحاول تخريب العقل الجمعي للمجتمع فيزج بالعقول النيرة والمفكرين وأصحاب المبادئ في السجون ليستطيع السيطرة على المجتمع وسوقه كقطيع أغنام لا يهمه سوى الحاجات الحيوانية، ولكنه باء بالفشل فهذا الشعب المؤمن ذو الحضارات العريقة لا يمكن اسكاته وتنويمه، ولابد أن يستيقظ من غفلته ويستأصل هذا السرطان الذي انتشر بخبثه وإسفافه.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

الرابعة عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد انتقال النساء الثلاث من غرفتنا إلى سجن النساء القضائيات رجعنا إلى نظامنا وإلى ما كنا عليه في السابق، كانت قصص النساء تملأ حياتنا، منها المضحك ومنها الحزين ومنها ما يثير الغضب والإشمئزاز، ونحن في غمرة تلك الأحداث تحدث إلينا السجانون وأخبرونا أن هناك عفواً قريباً وسوف نخرج من السجن، ولكني لم أصدق هذا في داخلي لأنه يمتلكني إحساس غريب بعدم خروجي من السجن، كنت أحاول طرد تلك الهواجس وتساعدني الأخوات في ذلك، ولكني كنت على ثقة بأن هذا النظام مجرم وعتيد في الإجرام، وذو تخطيط ذكي، فهو يستغل كل مقدرات الوطن من عقول ومادة ليسيطر ويبقى في الحكم لقد كنت على يقين أنهم سيبقون على حبسي ليجعلوا مني عبرة لكل من تسول نفسه محاربتهم، وليخاف أي معارض وخاصة ضباط الجيش من القيام بأي عمل عدائي ضدهم، وليبقوا على ذلهم وانكسارهم وسجودهم لهم، فكل من يحاول الوقوف في وجههم فمصير أهله وزوجته السجن والعذاب.

نعم لقد فهمت هذا النظام فهماً عميقاً لما لمسته من معاملة للسجناء، وحتى السجانين أيضاً، لقد صدق حدسي وتحليلي ولهذا أفخر بنفسي أني كنت متقدمةً على الكثيرين في فهم طبيعة هذا النظام السرطاني.

وجاء ذلك اليوم الموعود وسمعنا جلبة وضوضاء وأصوات ضحك عالية، كانت هذه الأصوات تصدر عندما تأتي دوريةً من الفرع للسجن فكان جميع السجانين يتبادلون النكت والفكاهات، وجاء رئيس المفرزة وهو يضحك ولكني استشعرت في عينيه حزناً يحاول أن يخفيه (لقد كنا أصدقاء وكان الجميع ينظرون إلي نظرة احترام وتقدير وكنت أشفق عليهم مما هم فيه وأقول لهم يكفيكم أنكم سجانون وهذا عار سيلحق بكم وبأولادكم إلى يوم الدين إلى يوم الحساب، والآلاف سيلحقون بكم للمطالبة بثأرهم وحقهم وكرامتهم التي تستهينون بها، كنت أعلم أن هناك من ينقل تلك النقاشات إلى قيادة الفرع، ولكني كنت مصرة على ايقاظ عقولهم النائمة أو المنومة فهم أدوات حقيرة بأيدي نظام مجرم لقد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم) سكت السجان وبيده ورقة بيضاء صغيرة، هل من المعقول أن تكون هذه الورقة هي التي ستحدد مستقبل وحاضر كل منا، لقد تعلقت القلوب قبل العيون بتلك الورقة وخفقت وعلت نبضاتها، وبدأ السجان يتلو الأسماء ببطء شديد، كاد هذا البطء أن يحطم قلوبنا، وانتهى من قراءة الأسماء إلا اسمي فهو غير موجود! ساد صمت حزين، وانكسر شيئ ما في داخلي، وأحسست وكأن الكون كله غير موجود إلا أنا، أدور في العدم، وأسبح في فضاء لا تحديد لجهاته، ولكني بإيماني العميق بالله وبالقدر عدت إلى ذاتي، ولملمت أشلائي المبعثرة وتماسكت بقوة لئلا أضعف أو أن ينتصر علي عدوي ويهزمني، فقد قررت عدم الاستسلام وعدم الهزيمة مهما كانت الأسباب والظروف، إنها معركة حق وباطل، ولا يمكن للحق أن يهرب من وجه الباطل ويجعله ينتصر.

كانت الأخوات حزينات، ولكن هذا الحزن يخفي بين حناياه فرحاً عظيماً يحاولن إخفائه من أجلي، حاول السجان أن يخفف عني الصدمة بأن هناك عفواً آخر سيشملك، وهو قريب، ولكني كنت على يقين أني سأبقى في قاربي وسط المحيط تتقاذفني الأمواج والشطآن، حاولت أن أضحك وأفرح للأخوات، لأني لا أحب نظرات الشفقة، صحيح أن حالي يثير الشفقة والألم ولكني لا أريد تلك النظرة، فأنا أقوى من أن أستكين أو أهزم في جولة، فالمعركة طويلة، ويجب أن أستعد لها، يجب أن أفرد كل أشرعتي لأسيطر على قاربي، ليبحر بسلام ويصل إلى بر الأمان.

حاولت مساعدة الأخوات بجمع حاجياتهن، وودعتهن الواحدة تلو الأخرى، وفتح السجان الباب وخرجن ودموع الحزن والفرح تموج في عيونهن، وغاب طيفهن عن عيني، وأقفل السجان الباب محاولاً أن يرى ما وراء هذا الوجه الرصين، الذي بدا وكأنه لايعنيه شيءٌ مما حصل، وتغيرت نظرة الحزن في عينيه إلى نظرة شماتة لأنه شعر أني انتصرت على ذاتي وعليهم، فالغاية من السجن هو كسر الإرادة ولكنه لم ير هذا الكسر على محياي.

الخامسة عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد خروج الأخوات بقيت وحيدة أتلفت حولي كان طيفهن يتراءى لي وأنا واقفة منتصبة وسط الغرفة، أتخيل فرحة أهلهن وأولادهن بهن ثم أتخيل حزن أهلي وأولادي لعدم خروجي من السجن، لم يعد السجن يعنيني في شيء أمام حزنهم عندما يعلمون أني بقيت وحيدةً، لقد انكسر الأمل بخروج قريب لي، وازداد حزن كل منا على الآخر، أحسست بتعب كبير من الوقوف فارتميت بجسدي المتهالك على فراشي، وكأن الكون كله هبط فوق هذا الجسد المنهك وأطبق عليه، فأجهشت ببكاء مرير محاولة خنق العبرات تحت الغطاء لئلا يسمعها أحد، كان الصمت يخيم على الجناح، لقد حزن كل السجناء من أجلي وكنت أعلم ذلك بإحساسي، لأننا كنا نتبادل الحزن والفرح من دون أن يُعلم أحدنا الآخر كنت أبكي وأخاطب ربي: يالله!!!

لماذا أنا دون العالم؟؟ أهو ابتلاء أم بلاء؟؟ ماذا صنعت بحياتي فأنا مازلت في مقتبل العمر وعندما سجنت لم أكن قد تجاوزت العشرين من العمر؟؟؟؟ يالله!!!! لماذا كتب علي العذاب؟؟؟

وبقيت أُناشد ربي وأسأله وأطلب منه وأدعوه حتى زال عني الهم والضيق، فالبكاء يخفف الألم رغم أنه نتيجة له، هكذا هي الأضداد في الحياة. كان السجانون يطرقون الباب كل لحظة يريدون أن يعرفوا كيف أنا فأتظاهر بالنوم لأستعيد رباطة جأشي ولأبقي أسلحتي مشهرة في وجوههم، فأنا اليوم وحيدةً ويجب أن أستعد لتلك المعركة، فالمرأة الوحيدة تكاد تكون غنيمة ومطمعاً للرجال ذوي الأخلاق المنحطة.

كفكفت دموعي تحت الغطاء وبدأت أشحذ همتي وألملم أجزائي المبعثرة ونهضت من فراشي وتوضأتُ وصليت لله وسجدتُ ودعوته أن يعينني على ما أنا فيه ويلهم الصبر لأهلي.

جاء أحد السجانين ووقف أمام غرفتي وهو ينظر إلي من دون أن ينطق بحرف أو سؤال، وبقي هكذا واقفاً ينظر إلي وأنا أسأله ماذا تريد لكنه كان موجوداً وغير موجود، كان يبحث ويفتش بنظراته ليس عن إمرأة لأني كنت مكسوةً بلباس شرعي يخفي كل معالم الأنوثة والرأس مغطى بكوفية يلبسها الرجال كنا نرتديها دائماً، ولكنه كان يبحث في أمر أعمق وأعمق بكثير يبحث في عقل وتفكير تلك السجينة ما الذي يبقيها متمسكة بدينها وحجابها؟ كان كل يوم يقف تلك الوقفة لا يتكلم أبداً كان وقوفه يثير الشكوك لدى السجانين والسجناء، ولا يعلم أحد تفسيراً لذلك إلا أنا فقد بدأتُ أستشعر خيوط مؤامرة على سمعتي وشرفي، ولكني كنت مخطئةً في تقديري هذا لأني نسيت أني أنثى وأي امرأة مهما حاولت إخفاء نفسها بلباس فإنها تبقى امرأة.

كان السجان من مدينة الحسكة عندما جاء أول مرة للسجن واستلم عمله كسجان كان يكرهني كرهاً عجيباً وكأني قاتلة أبيه حتى أنه في إحدى الزيارات جعلني أرى أهلي من خلال شبكين ومن يعرف السجن يعرف ماذا يعني ذلك، فالشبك الأول يبعد عن الثاني مسافة نصف متر تقريباً فالأهل يرون أولادهم من خلال تلك الثقوب الصغيرة وكانت مدة الزيارة دقيقة واحدة ولكم أن تتخيلوا عذاب الأهل عندما يريدون زيارة أولادهم، قد يذهبون إلى فروع الأمن أكثر من مرة ليحصلوا على تلك الورقة وفي كثير من الأحيان لا يحصلون عليها.

ويأتي الأهل محمّلين بالأشياء والحاجات والطعام لأولادهم يحدوهم الأمل برؤيتهم بخير وإيصال ما يشتهون لهم، فوضع الأهل المادي أكثر سوءاً وألماً في كثير من الأحيان من السجناء أنفسهم، غير التعب والقلق والذل الذي يعانونه على أبواب الأفرع الأمنية، وفوق كل ذلك الوضع المادي السيء للكثيرين، وهكذا رأيت أولادي وأهلي دقيقة واحدة وعدت إلى غرفتي حانقة، ولكني حاولت عدم إظهار ذلك الغضب فأنا في معركة ولا أحب أن يراني عدوي مهزومة، فهو أراد هزيمتي وقهري ولكني أظهرت له أني لم آبه لذلك من دون أن أكلمه أو يكلمني، لهذا نشأت معركة خفية بيني وبينه وامتدت لشهور وكل الأخوات كنّ يعلمن بتلك المعركة، وبأن السجان الفلاني يكرهني كرهاً شديداً، لقد كنت سعيدة بهذا الكره فهذا يعني أنني انتصرت عليه فالسعيد بالمعركة هو المنتصر.

وبعد خروج الأخوات واتته الفرصة ليقف أمام غرفتي وينظر إلي بصمت عميق ثم يذهب ليعود بعد ساعات وهكذا استمر على هذا الوضع أكثر من شهرين، كان ينظر إليه السجناء بريبة وترى الكل متحفّز ليسمع هل سيفتح قفل باب غرفتي أم لا، كان جميع السجناء يشعرون بقلق وخوف عليّ منه فقد كلمني أحدهم من بعيد قائلاً هل يزعجك في شيء؟؟ فقلت: لا فقط يقف صامتاً

قال: ماذا يريد منك، قلت: لا أعلم

وعندما استمر وقوفه وصمته حاولت أن أكتشف ما وراء هذا الصمت فاخترعت حلماً أو لنقل كابوساً رأيته عليه بأن هناك مصيبة ستحل به، كنت بذلك أريد فك عقال لسانه من لجامه وبالفعل خاف وأظهر في البداية خوفاً ولكنه تمالك نفسه أمامي قائلاً: أنا لا أؤمن بالأحلام فهي أضغاث، ورجع إلى ما كان عليه كل يوم، كان يضع أغاني سعدون جابر تصدح لآخر الجناح، لم أكن سعيدة بهذا الغناء لأني لا أفهم الكلمات وقلبي الحزين لا يمكن لأغنية أن تزيل حزنه وهمه، وفي أحد الأيام فكّ الله لسانه فقال: هل يعجبك غناء سعدون جابر، قلت: لا أفهم ولا كلمة من هذا الغناء ولست سعيدة لأفرح وأطرب.

ذهب وفي اليوم التالي أتاني بورقة مكتوب عليها ترجمة لأغاني سعدون جابر، كانت أغنيته «يما ويا يما وحنينة ويا يماه» هي ما أعجبتني فهي تتكلم عن حالي وحال أطفالي، شكرته لذلك وذهب ليعود كل يوم إلى تلك الوقفة

المشبوهة لقد هزمني هذه المرة فبعد وقوفه بكيت وبكيت وسمع كل السجناء بكائي، كان السكون يخيم على جناح السجن إلا من صوت بكائي المر، لقد حفرت الدموع على وجنتيّ خيوطاً سوداء وحمراء، لقد هزمني هذا الرجل إن سجن المرأة أصعب بكثير من سجن الرجل فكيف ستستطيع شابة صغيرة المحافظة على سمعتها وشرفها وهناك من الوحوش من يتربص بها، عندما رأى خيوط الدموع الحارقة سألني لماذا تبكين كل هذا البكاء؟؟؟ قلت: منك أنت، ماذا تريد من وقوفك أمام غرفتي؟ هل لتلوّث سمعتي أمام السجناء؟؟

صرخت بوجهه كلبوة غاضبة ثائرة يُراد أن يُنتزع أغلى ما عندها، ماذا تريد، ماذا تريد، صُعق عندها واصفرّ وجهه واحمرّ واستدار مطأطأ الرأس وكأن صاعقة نزلت عليه فرحت لهذا الانجاز وكأن غُمّة انزاحت من فوق صدري ولكنه في اليوم التالي عاد إلى ما كان عليه ..

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

السادسة عشر

إهداء إلى كل شخص يعيش وحيداً في أي مكان في العالم

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد ذهابه من أمام غرفتي شعرت أن الدنيا تدور بي وتلفّ، ما هذه المحنة ؟ إنها من أصعب ما حصل معي فالتناقض بين المبادئ والواقع الجمع بينهما من أصعب الأمور، كيف إن كان صادقاً؟ فهو يُقدم لي الحب والزواج والحياة وأنا شابة أرملة سجينة فقدت الأمل بالحياة والحب وإن كان كاذباً فهذا يعني أنه ومن وراءه استطاعوا أن ينالوا مني ومن شرفي.

يا إلهي ماذا أفعل؟! كلما وبخته وصرخت بوجهه ازداد إصراراً وعزيمة أكبر، كان كل نقاش يدور بيننا ينتابني بعده نوبة بكاء مرير إن وجودي وحيدة هو ما شجعه على ذلك، فلو كانت معي سجينة أخرى لم يتجرأ على ذلك أو أن وجود الآخرين معي يُشعرني بالقوة والثبات أكثر. وأخيراً قررت أن أناقش معه هذا الموضوع بصراحة متناهية وكان قد وعدني أنه لن يقف أمام غرفتي حتى أفكر وأعطيه جوابي النهائي فهو يريد أن يغيب لأستطيع التفكير دون تأثير ولكنه صباح اليوم التالي جاء مسرعاً وهو يقول لا يمكن أن يمر يوم دون أن أراك، فقلت له بصراحة أنت عنصر مخابرات

وسجان لا يمكن أن أقبل بك وأنا أراك تحمل سوطاً بيدك تضرب السجناء، ردّ عليّ قائلاً: لقد أخذت على نفسي عهداً ألا تمتد يدي إلى سجين، وأما من أجل الصلاة أقسم أني كنت أصلي، وأثناء خدمة العسكرية تركت الصلاة وأتمنى اليوم الذي أُنهي خدمتي لأعود لحياتي وصلاتي، قلت له: كيف سترد حقوق السجناء التي انتهكتها قال: سأكون إن شاء الله مصلحاً وأربي طلابي على الدين والتقوى ليكونوا مثالاً يحتذى به، فقد أكفر بذلك عن خطئي قلت له: وكيف إن كنت كاذباً في كل ما تقول؟ كيف لي أن أصدقك؟ إن الثقة مفقودة بيننا ولا يمكن أن نبني أساساً من دون ثقة، قال: سأكلم أهلك بذلك، صرخت وبقوة لا يمكن لأهلي أن يتقبلوا مثل هذا الموضوع وأنا في السجن فسيظنون أموراً سيئة تحصل لي أو أني مجبرة على ذلك، رفضت ذلك بقوة ورجوته ألا يفعل ولكنه وافق على طلبي أمامي وبالسر ذهب لزيارة أهلي ...

بتّ ليلتي وأنا أفكر بهذا الشاب الذي كلما أشعرته بالذل والإهانة ازداد تمسكاً وإصراراً حاولت أن أفتح قلبي وعقلي لأستطيع أن أصدقه أو أن أناقش الأمر بشفافية. إن الأسير والعبد الرقيق لا يمكن أن يستطيع أن يأخذ قراراً صائباً ولا يفكر بسوية، لهذا قام الكثير من الشباب الأحرار بمناهضة النظام لأنهم شعروا أنهم عبيد وليسوا أحراراً فثاروا لنيل حريتهم.

وأنا امرأة أسيرة لا يمكن أن تأخذ قراراً سليماً بذلك، قد يقول قائل إنها فرصة وأضعتها ولكني لم أرها للحظة أنها فرصة أبداً ولم يستطع الحب أن

يدخل قلبي أو عقلي فالأسير فقد طعم الأشياء بفقدانه لحريته، بقيت طوال الليل وأنا أفكر ولكني لم أصل إلى نتيجة أُرضي بها ذاتي، وفي الصباح جاء وسلّم عليّ قائلاً: أهلك يسلمون عليك وقد طمأنتهم أنك بخير، صعقني بكلامه وصرخت به لقد رجوتك ألا تفعل ذلك، لماذا تريد أن تفرض عليّ واقعاً لا أرغب به؟ قال: لم أطلب منهم شيئاً فقط زرتهم وشربت القهوة معللاً زيارتي بمحبتي لهم وإعجابي بهم وحبي للتواصل معهم وعقد صداقة بيني وبينهم، لم يفرحني ذلك فأنا أعرف والدي وإخوتي فهم أذكياء ولا يمكن أن تمر عليهم مثل هذه الحركات. تملكني غضب شديد وتركته واقفاً ودخلت إلى الحمامات وجلست هناك لئلا أكلمه أو أراه، وبدأ يصرخ اخرجي وكفاك بكاءً فأنا ذاهب، ولكني بقيت عدة ساعات وكأني أهرب من ذاتي ومن سجني إلى سجن أصغر وأحقر من السجن الذي أنا فيه، وخرجت أخيراً من الحمامات التي لم أرَ ملجأ سواها أختبئ به من نفسي ومن ذاك الرجل الذي اخترق حياتي بالقوة ولا أستطيع طرده أو الهروب منه....

غاب يومين لم يدخل جناح السجن فرحت لذلك وظننت أن الأمر انتهى ولكن بعد اليومين جاء ووقف كعادته صامتاً كصمت الأصنام، حاولت تجاهل وجوده ولكنه لم يُظهر إنزعاجاً، كان يعلم أن الثقة المفقودة هي السبب وتكلم أخيراً قائلاً سأكلم أهلي بالموضوع، كان يريد بذلك أن يطمئنني ويكسب ثقتي وتابع قائلاً سوف أذهب بإجازة طويلة كي ترتاحي مني أعلم أن وجودي يزعجك لهذا سأتركك لتستطيعي التفكير بهدوء وفعلاً ذهب

بإجازة طويلة وتأملت أن الأمور ستنتهي عند هذه المرحلة فأهله لا يمكن أن يوافقوا على زواج ابنهم من أرملة لها ثلاثة أطفال وسجينة سياسية، شعرت بهدوء وسكينة فإن كان كاذباً فقد استطعت رده على أعقابه وإن كان صادقاً فلا يمكن أن أرضى بزوج بديل للشهيد فشتان بين من يقاتل نصرة لدين الله وإقامة العدل وبين من يقاتل من أجل حفنة أشخاص يتحكمون بالعباد والبلاد وينشرون الفساد والكفر في أرجائه. مضت الأيام سريعة وجاء السجان من إجازته ومن لحظة وصوله دخل جناح السجن مسرعاً وسلّم عليّ وهو يبتسم قائلاً: ألم تحزني لغيابي تملكتني الدهشة فهو واثق من نفسه أني أبادله الشعور أو الكذب، فسكت ولم أجبه فاستطرد قائلاً: كلّمت أهلي عنك ولقد كانت ردة فعلهم غير متوقعة، لقد وافق والدي ووالدتي وشجعاني على ذلك وسألاني أنهم مستعدون لتقديم المهر الذي يطلبه أهلك، لا أريد منك الآن سوى موافقة مبدئية، قلت له: يمكن أن أبقى في السجن عشر سنوات هل تنتظرني؟ أقسم قائلاً: والله أنتظرك، إن موافقة أهلي أعطتني ثقة ودفعاً على ذلك، عندي اقتراح أرجو أن توافقي عليه يمكننا أن نهرب معاً من السجن، قلت: كيف؟ قال: يوم الخميس لا يوجد أحد من العناصر غيري، أجهز سيارة بمساعدة أقاربي ونهرب وعندما يشعر الأمن بذلك نكون قد وصلنا حدود العراق وهناك أقاربي يستقبلوننا ويساعدوننا، قلت له: وأهلك ما مصيرهم عندما ينكشف الأمر سيوضعون جميعهم بالسجن، هل تضحي بأهلك من أجل إمرأة؟ قال: إنها ليست كأي إمرأة في العالم

لقد ازدتي في عيني حباً واكباراً، لو كانت غيرك لفرحت لذلك وما همها الآخرون فكلما ازدتي رفضاً أزداد إصراراً، إن أهلي موافقون لدرجة أنهم شجعوني على ذلك ولو كانوا يرون في زواجي منك أي ضرر أو انتقاص لما وافقوا ولكنهم فرحوا لذلك.

كم تمنيت في تلك اللحظات وأنا أرى في عينيه الصدق والحب والحنان أن أصدقه أو أن أشعر بذلك الفرح الذي يشع من عينيه، كان الغضب يتملكني في المرات السابقة عندما أكلمه ولكن الآن بدأت أشعر بالحزن والشفقة عليه، ما أصعب أن يكون الحب من طرف واحد أو أن تكون الثقة مفقودة بأحد المحبين.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ....

السابعة عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

عندما رأى بقية السجانين أن رفيقهم يتكلم بجدية وصدق وكانوا يظنون أنه كاذب ويحاول اللعب بمشاعري ويحاول استمالتي إليه بدؤوا يظهرون له العداء وشعر أن وشاية من رفاقه تُرتب بحقه وهذا ذنب يُعاقب عليه فقرر أن يكون هو المبادر قبل رفاقه، فجاء وودعني قائلاً: إنه يشعر أن مكيدة تُحضّر له ولهذا سوف يكون هو المبادر ويذهب لرئيس الفرع ويكلمه بنفسه، قال لي: ربما لن تريني أبداً ولكني على وعدي وأنا أنتظرك، استدار خلفه وحزن عميق يشعّ من عينيه، بدأت أشعر بصدق مشاعره وأن ليس في الأمر مكيدة لي، فما الغريب في ذلك؟ رجل يريد خطبة إمرأة. إن هذا أمر عادي في الحياة الحرة ولا يعني شيئاً أما أن تكون الخطيبة سجينة والخاطب سجّان فهذا هو الغريب ويثير التساؤل والجدل في ذلك وأقولها وبصدق حزنت عليه ما الذي يجبره على ذلك؟؟ هل صحيح أن الحب وحده هو الدافع؟ أم أن الإعجاب بشابة لم يستطع أحد أن يخدش عفافها أو أن تخضع لكل المغريات ولا تستسلم؟ أم أن الإثنين معاً؟ وبعد ساعات طويلة وإذ بصوته يخترق صمت السجن وهو يسلم على رفاقه ضاحكاً ليسمعني أنه جاء وبالفعل دخل الجناح وكاد يطير فرحاً قال: إن هناك أموراً تحدث لا أصدقها لقد قابلت

العقيد وقلت له سيدي هناك أمر أريد أن أشرحه لك وأتمنى أن تتفهمني فردّ قائلاً: هل تحب السجينة (شهرزاد)؟ قلت يا سيدي أريدها بالحلال وأتمنى أن تبارك لي وأطلب منك أن تنقلني من السجن، قال له: إذهب لمكانك وأنا معك ولكن هل وافقت هي على ذلك؟ قلت له: ستوافق يا سيدي عندما تثق بي ...

كان صوته يملأ أركان السجن بصوت الأغاني والمرح والضحك، كان يعلم أن السجن ليس هو الحاجز الوحيد بيننا ولكن المبادئ هي الأقوى فأصبحت تدور بيننا نقاشات سياسية عميقة ودينية، كان يظهر وكأنه مغيب عن كل ما يحصل لقد عمد النظام إلى غسل عقولهم هكذا بدا لي ربما لأثق به أو أنه كان صادقاً فيما يقول وللحظة كتابة هذه الكلمات لا أستطيع الجزم بذلك، لقد أصبح إنساناً آخر من خلال معاملته للسجناء ويحرص كل الحرص على عدم إزعاجي بوقوفه فأصبح يسلم ويسألني ماذا أريد ويذهب، وأخذ يقنع عناصر الأمن السياسي بأن يأتوا بسجيناتهم من سجن النساء إلى غرفتي، كان يريد أن تأتي نساء أتسلّى معهنّ لئلا أبقى وحيدة وحزينة فهو يحاول أن يعمل جاهداً لإسعادي وإرضائي ولإزالة الشك والريبة منه، وكان صابراً على ذلك دون ملل أو كلل واستطاع أيضاً إقناع رفاقه وجاؤوا بثلاث أخوات من سجن النساء لغرفتي، لقد كان فرحي بمجيئهن عظيماً فلن أبقى وحيدة بعد الآن.

إن مصائب قوم عند قوم فوائد، كانت الأخوات من سجينات تدمر اللواتي عانين ما عانين في سجن تدمر فبعد استقرارهن في سجن النساء جيء

بهنّ إلى سجن لا توجد فيه أبسط مقومات ومستلزمات الحياة الإنسانية، كانت الأخت الأولى متوسطة في العمر ولديها أطفال وزوجها استشهد أثناء محاصرة أحد القواعد المسلحة، لقد طلب الأمن من زوجها أن يركع أرضاً فرفض فأردوه قتيلاً، أما الأخت الثانية فهي زوجة شابة تصغرني ولديها بنت واحدة كانت مع زوجها غطاء لقاعدة مسلحة، أما الأخت الثالثة فكانت مهندسة تعمل بمعمل اتُهم الإخوان بتفجيره وبما أنها متدينة اتُهمت بمساعدتهم وكانت غير متزوجة، سُعدت بوجودهنّ ولكنهنّ كنّ معترضات على مجيئهنّ لهذا المكان ولم يكنّ يعلمن ما وراء ذلك حتى أنا لم أكن أعلم أيضاً من وراء ذلك سوى أنه جاء بعد عدة أيام بحجة سؤالي إن كنت أطلب شيئاً ولكن فرحته كانت لا توصف عندما رآني فرحة لوجود الأخوات والفرحة بادية على وجهي فقال للأخوات: الحمد لله رأيت البسمة على وجهها، كانت تزعجنا ببكائها وحزنها محاولاً إخفاء مشاعره وقال: نحن مستعدون لأي خدمة تريدها أو أي شيء يسعدها فهي وحيدة عندنا ونريد أن تكون مدللة لدينا، كان يحاول إيصال رسالة بكلامه الرمزي الساخر ولكن الأخوات كنّ ذكيات بما فيه الكفاية وقلن لي: ما قصة هذا السجان إنه يغازلك بطريقة ساخرة لئلا نشعر نحن بذلك. ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

«الأخوات أم نزار فاطمة حمودة زوجة الشهيد أحمد الموسى وعائدة كمدان وعواطف شرف الدين لقد حكموا على زوجها بالإعدام بسجن تدمر ونفذوا الحكم»

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

انتهت أيام خدمته الإلزامية ولكنه مددها ثلاثة أشهر أخرى بإرادته فهو ما زال ينتظر الجواب وكلّمت الأخوات عنه وثار جدل كبير بينهن منهن من قالت صادق ومنهن من قالت حتى ولو كان صادقاً فمعك الحق أن ترفضي، لا يمكن لمثلك أن ترضى بسجان كان يعذب ويستهين بكرامة السجناء حتى ولو تاب فإنه سيبقى سجاناً وستلاحقه هذه الصفة إلى يوم الدين حتى يأخذ كل سجين حقه منه، وأحياناً كان الجدل يحتدم بينهن وأنا أسمع وأرقب كل كلمة تقال، ولم يستطعنَ الاتفاق على قرار فوكلن الأمر لي بأني أنا من تستطيع أن تنهي ذلك الجدل، إن وجود الأخوات أشعرني بالأمان والقوة واستطعت أن أخرج من هذه المحنة وأن أفكر بطريقة سليمة وآخذ قراراً نهائياً لا رجعة فيه، إن هذه العاطفة كاذبة نشأت لوجوده الطويل في السجن وإعجابه فقط، فلا يمكن لمثلي أن تنسى أنه سجان ولا يمكنه أيضاً أن يتغاضى عن كوني أرملة رجل مشهور يدور حوله جدل كبير، فمن محب مخلص إلى عدو حقير وبهذا أنهيت فصلاً ربما كان الأقسى مما مررت به ومرت الشهور الثلاث سريعة وأراد تمديدها ولكنه كان يعلم أن وجوده كسجان هو الذي يبعد المسافة بيننا فقرر عدم التمديد، لقد سلم أشياءه

وانتهت بذلك خدمته الإلزامية ودخل مودعاً السجناء ووقف أمام غرفتي، لم يستطع أن يتكلم أمام الأخوات سوى أنه قال ستجديني بانتظارك مهما طال الزمن وسأكون عند حسن ظن ، خرج والدموع تملأ عينيه لقد عادت له كرامته وآدميته لأنه أصبح حراً، لقد حزن على امرأة أحبها ولم يستطع أن يقدم لها شيئاً وتركها وراء القضبان، إن أجهزة الأمن تعمل على نزع الرحمة من قلوب السجانين فيصبحوا وحوشاً لا عقل لهم ولا كرامة ولا إنسانية. ماذا يقولون لهم؟ ماذا يعطونهم؟ ماذا يفعلون بهم ليكونوا بهذه الصورة القبيحة؟ كم أتمنى أن ألتقي بسجان من ذلك الزمان وأسأله لماذا كان هكذا ولصالح من؟

لا أستطيع أن أصف مشاعري لأنها كانت متناقضة فمهما كانت المرأة متدينة وعفيفة ولكنها في الآخر أنثى، إن هذه التجربة أعادت لي الثقة بنفسي أو أنها أعادت لي أنوثتي التي اختفت بحياة السجن وبأنني ما زلت أنثى ترى من يحبها ويعجب بها أو أنها تبحث هي عن رجل تحبه وتتابع حياتها معه، لقد أيقظت هذه التجربة جانباً من حياتي كنت قد نسيته أو تناسيته لأسأل نفسي هل يمكن أن أعيد تجربة الزواج مرة أخرى؟ ولكن أنا لديّ أطفال، أو هل يمكن أن أجد زوجاً يعوضني الزوج المحب المخلص الودود، لقد كانت هذه التجربة مفتاحاً للتفكير بحياة جديدة فما زلت أجد من يراني أنثى. حاولت أن أقنع نفسي أني ضيعت فرصة ثمينة لا تعوض بالخروج من السجن وبدء حياة جديدة ولكني لم أستطع لأني لم أصدق للحظة مشاعره ولم أثق

به، وبعد أيام نسيت الموضوع وعدت لحياتي مع الأخوات فهذه الحسنة الوحيدة التي مازلت أشكره عليها إلى الآن وقد فاتني ذكر أن أهلي سألوني عن سبب زيارة السجان لهم لأنها لم تعجبهم، فشرحت لهم ما يريد، غضب أحد إخوتي وتطاير الشرر من عينيه وسألني غاضباً هل يزعجك بشيء؟ أو يرغمك على شيء؟ أقسم بالله أني أفجر السجن بمن فيه إذا سمعت أي أذىً لك، حاولت تهدأته بأن الأمر لا يتعدى طلباً للزواج على سنة الله ورسوله، فردّ قائلاً: كان ينقصنا مثل هذه الكلاب حتى نصاهرها، وللعلم أن كل إخوتي اعتقلوا من أجلي ويمدد متفاوتة ولاقوا من العذاب ما لاقوا ويعرفون كيف يتعامل السجانون مع السجناء، لقد تعرضوا لصنوف العذاب والقهر والذل مع أنهم كانوا شباباً صغار السن، وبعد مرور ثلاثين عاماً على تلك الحادثة أرثي حال والدي ووالدتي وإخوتي، كان والدي رحمه الله يقول: لو أن أولادي الشباب الستة بالسجن عوضاً عني، كان رحمه الله كل ليلة لا ينام حتى يهده التعب من التفكير والقلق فبعد أن أصبحت بناتي شابات عرفت المحنة العظيمة التي كان يعيشها والدي.

وبعد فترة وجيزة خرجت إحدى الأخوات من السجن وبقينا ثلاثة، كان الأمل يحدوهما بالخروج من السجن أما أنا فأشعر أنه بعيد المنال وبدأت إحدى الأخوات تشعر بأعراض غريبة بالثدي ورجوناها أن تخرج للطبيب للمعاينة ولكن طبيب السجن طمأنها أن هذا أمر عارض ولا خوف من ذلك، اطمأنت الأخت لتشخيص الطبيب ولكني لم أثق بتشخيصه لأني قرأت

عن أعراض سرطان الثدي الشيء الكثير ولكن أبقى مجرد قارئة لبعض التحليلات ولست طبيبة ومع مرور الوقت ازدادت هذه الأعراض سوءاً وبالحاح منّا لمعاودة زيارة الطبيب ولكن الأخت كانت وكأنها لا تريد أن تعرف الحقيقة أو أن تستشعر الخطر فهي تريد أن تخرج إلى أطفالها سليمة معافاة بعد رحلة عذاب مريرة فكيف تخرج وهي مريضة بمرض عضال؟ وكأنها لا تريد أن تصدق ذلك، ومع ازدياد الأمر سوءاً ازددنا إلحاحاً وإصراراً عليها حتى خضعت لطلبنا وهي تقول لا يوجد شيء خطير، أتذكرون قول الطبيب؟ كنا نجيبها إن شاء الله لا يوجد شيء ولكن للتأكد أكثر، وأخيراً ذهبت لطبيب آخر لمجرد أن رأى تلك الأعراض قال إنه مرض عضال وقد وصل إلى مرحلة متقدمة وخلال يوم وليلة جاء إخلاء سبيله ، لا أستطيع وصف حالتنا النفسية ولا يمكن تصور حال صغارها وأهلها، لا أنكر أنه راودني حلم أن يصيبني مرض عضال كي أخرج من السجن كما خرجت ولكن أعود إلى رشدي وأحمد الله على نعمة الصحة والعافية فأيهما أفضل؟ الحرية أم الصحة، كان التفاضل بينهما صعب وصعب جداً، كان فرحنا لخروج الأخت مغلف بحزن شديد فالسجين في سوريا هو مشروع شهيد، إلا أن يكتب الله له السلامة والعافية، وفي هذه المرحلة جاء سجين إلى جناحنا سيكون له الأثر الأكبر على سجني

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

التاسعة عشر

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان، تقول شهرزاد:

كان السجين ابن خال زوجي وكان من الطليعة، فاختلف مع جماعة الأخوان في العراق فاعتقله الأمن العراقي بإيعاز من الجماعة بحجة حيازة جوازات سفر مزورة وبعد فترة من السجن خيروه لأي مكان يرغب بالذهاب إليه هو وعائلته، فطلب الأردن وبعد ركوبه السيارة مع زوجته وأطفاله لم يشعر إلا وهو بين أيدي الأمن السوري فعرف أنها مكيدة فلولا موافقة الجماعة لما سلمه الأمن العراقي لسوريا وهو مطلوب للإعدام لسلطات بلاده، وأثناء التحقيق معه قالوا له إما أن تتكلم أو نريك نفسك قال لهم: أروني وإذ بشريط فيديو يظهر فيه وهو يدرب الشباب المجاهد على استخدام السلاح، لقد شعر باحباط عظيم، كيف يمكن لمن يسمي نفسه مسلماً أن يسلم أخاه المسلم إلى عدوه؟ هل يمكن أن يكون هؤلاء مجاهدين أو ثوار قاموا على نظام ظالم ويصفونه بالكافر؟ كيف استقام لهم ذلك؟ وما هي مبرراتهم فبالعلن أعداء للنظام وبالسر متعاونون معه، استغل الأمن هذه الحالة وحاولوا استمالته لجانبهم وعاملوه معاملة جيدة ليقنعوه بكذب وخيانة الطرف الآخر وأن شباب الطليعة مغررون من جماعة الأخوان المسلمين، حاول هو أن يظهر لهم أنه صدقهم ولكن كان في أعماقه يظهر

حقداً على الطرفين، كان يحاول الاقتراب من غرفتي كلما سنح له الظرف ويكلمني عن الخديعة التي تعرض لها. لقد قال له أحدهم إما أن تخضع لما نريد أو نرسلك لتموت في سجون سوريا، لا أعرف كيف استقام لهؤلاء الناس أن يناموا قريري العين ومرتاحي الضمير بعد فعلتهم هذه. إن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فاختار الصادقين منهم شهداء وترك آخرين في السجن حفاظاً عليهم ليوم آخر وترك الآخرين يتقاتلون فيما بينهم حتى وصل بهم الحال والتفرقة أن يسلموا بعضهم لعدوهم، كان الأخ السجين يمتلئ قلبه ناراً وحقداً على هؤلاء الجماعة لقد تساووا عنده مع النظام فهم وجهين لعملة واحدة ولكن هذا لم يمنعه من التفكير بطريقة تخرجه من السجن، لقد انحرفت بوصلته إلى اتجاه آخر فعدوه الأول هو من خانه وسلمه لأعدائه.

تمر الأيام والشهور عادية كباقي الأيام ولكن كان هناك وراء القضبان قلب يشتعل ناراً وجمراً يفكر بالخلاص من هذا الجحيم النفسي الذي يعيشه، لقد توصل أخيراً لقرار هو الهروب من السجن وبدأ يخطط له ويعمل على ذلك، قلت له: الهروب صعب من السجن المركزي فهو محاط بعدة أبواب وأسوار وعناصر كُثر ولا يمكن أن تنجح في ذلك ولكنه أصر في قرارة نفسه على ذلك، إنه يريد أن يطفئ تلك النيران المشتعلة لقد سيطر على كل تفكيره الخديعة التي تعرض لها ولم يعد يفكر سوى بالانتقام. إن شعور الانتقام يحطم ذات الإنسان قبل أن يحطم الآخرين وهذا ما أثبته

الأحداث والتاريخ إن المعارك يجب أن يكون لها هدف سام وإلا ستكون وبالاً على صاحبها في الدنيا والآخرة. لقد عرض عليّ الهروب من السجن ولكني تركت الإجابة للظرف المناسب لعلمي أن مثل تلك المحاولة في هذا السجن ستكون فاشلة بالأغلب لأنه لا يوجد أحد في الخارج يساعده على ذلك، كنت أظن أنها أحد أحلام السجناء فكل سجين يحلم بالنوم واليقظة بالهروب من السجن بمعجزة ربانية أو بطريقة بوليسية جميلة وينسج في مخيلته القصص والحكايا، ولا تلبث أن تتبخر مثلما بدأت ولكن سجيننا ليس كأحد من السجناء: أصبح الشاب السجين يفور ويغلي كبركان يريد أن ينفجر في كل لحظة، كان يتحين الفرص بغياب السجانين ليقف أمام غرفتي ويكلمني عن الخديعة والخيانة التي تعرض له ، كان جزء من حديثه أتفهمه وجزء آخر عصي على فهمي لماذا يلجأ هؤلاء الذين يدعون الإسلام والثورة ضد الظلم والظالم لعمل كهذا؟ كيف تساوى عندهم أن يتخلصوا من رجل خالفهم في الرأي أو المنهج أو السلوك فيسلموه لعدوه؟ لقد عشت معه في صراع مرير أهؤلاء هم الذين ننتظرهم ليخلصونا من النظام المجرم؟ كيف نستبدل ظالماً بظالم آخر؟ يا الله ما هذا الذي أنا به؟! ماذا يجري بالخارج؟ ماذا حصل للناس بعد هذه الثورة التي التهمت خيرة شبابنا إما بقبر أو بسجن؟ كنت أقول له وأحاول أن أجد لهم الأعذار وأبرر أفعالهم ولكنه كان يتكلم عن أناس لا أتخيل أننا كنا ننتمي لهم في يوم من الأيام أو أننا كنا نفخر بهم وبقادتهم ومفكريهم، هل ضاعت تلك الدماء سدىً؟ هل

ما نعانيه من عذاب وسجن وألم يوازي ما كنا نحلم به ونريد تحقيقه لأمتنا؟ لقد عشت أصعب مرحلة لشعوري بالخيبة والخيانة هل صحيح أن من كان يمجد زوجي ويتدافع للقائه يتكلم عنه بهذا السوء بعد استشهاده؟ معقول أن يكونوا كذلك؟ إنني أعرف أن أكثرهم عمل جاهداً للقائه ولو مرة واحدة والشد على يديه وشكره، كيف يكونون بهذا التلون؟ فبعد استشهاده تبرؤوا منه ومن أعماله.

إذاً لماذا كانوا يتسابقون لنيل رضاه وهو حي؟

أسئلة لم أجد لها جواباً فتارة أصدق كلام الأخ السجين وتارة أكذبه بداخلي فمن غير السهل أن يغير المرء قناعته وثقته بأشخاص كانوا رمزاً له، وفي خضم هذه الصراعات أرسل لي الأخ رسالة بورقة صغيرة رماها بغرفتي أثناء مروره من أمامي، التقطتها بسرعة لئلا يراها السجانون، فتحتها وقرأتها وإذ به يعرض عليّ مخطط الهروب ويوم التنفيذ، خفق قلبي وشعرت بقشعريرة وبرودة بأطرافي لأني كنت على يقين أن عملية الهروب ستكون فاشلة، كان من ضمن المخطط أن يهرب هو وشاب من مدينة حلب وأن نهرب أنا والأخت الوحيدة التي بقيت معي، كل يوم كنت أنتظر موعد التنفيذ بقلق وخوف وذات مساء خرج إلى ممر السجن ليصنع الطعام لأن السجانين منعوا طهي الطعام في الغرف، فيخرج سجين من كل غرفة إلى ممر السجن ليقوم بالطهي لباقي أفراد غرفته، وعند خروجه للطهي مرّ من أمام غرفتي قائلاً: اليوم موعد التنفيذ ومن ثمّ دخل إلى غرفة السجانين.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...يتبع...

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

دخل إلى غرفة السجانين لم يكن هناك سوى سجان واحد حاول تكتيف يديه وربط فمه ولكن السجان بدأ يصرخ ويصرخ حتى سمعه سجان الأمن السياسي الذي كان يتفقد سجناءه بالداخل، جاء مسرعاً فرأى الباب الذي يفصل جناح السجناء عن المفرزة مقفلاً وهو يسمع صراخ زميله، في تلك اللحظة كان السجين الآخر يقوم بخلع الخزانات وإخراج المسدسات من داخلها، بدأ السجان من داخل الجناح يصرخ افتح الباب ماذا تفعل؟ عندها شعر السجين أن العملية فاشلة من بدايتها فأطلق النار على رأس السجان وقتله ليصمت صوته للأبد، ركض سجان الأمن السياسي ووقف على شوفاج الجناح وصرخ بأعلى صوته للشرطة المدنية (يا شرطة أغلقوا الأبواب هناك محاولة للهروب) وعندما أعلم الشرطة أدخل جميع السجناء إلى الغرف وأقفل الأبواب ودخل مع السجناء لإحدى غرف السجناء الشوعيين، عندها خرج السجين لباحة السجن ورأى جميع الأبواب مقفلة وعناصر الشرطة اختبؤوا جميعهم ولم يبق أي واحد منهم، عندها عرف ألا مجال للهروب أبداً ولكنه أراد أن يتحصن ويدخل لداخل الجناح لتكون المساومة أفضل عله يستفيد منها، كانت غرفتي ملاصقة لغرفة السجانين ولهذا رأيته بأم

عيني وهو يمسك بأعمدة الحديد ويوسع ما بينها ليستطيع الدخول للجناح لأن الباب مقفل والمفاتيح عند عنصر الأمن السياسي المختبئ بالداخل، وبقوة خارقة استطاع توسيع المسافة ودخل هو والسجين الآخر إلى الجناح، وقف أمام غرفتي وناداني كنت حزينة وخائفة، قال لي: لماذا أنت حزينة؟ هل تحزنين على حياة السجن سأقاوم حتى أستشهد ولن أسلم نفسي، لقد كان يعلم أنه محكوم عليه بالإعدام وها هو الآن يقتل أحد السجانين، خيم سكون رهيب على السجن ورائحة الموت بدأت تفوح في كل مكان ومصير مجهول ينتظر كل السجناء، فالخوف من الانتقام كان الهاجس الذي سيطر على الجميع والكل بحالة خوف وترقب، لا زلت أذكر الابتسامة والقلق على وجهه، ونحن في هذا الجو المشحون بالخوف وانتظار الموت سمعنا صوت رئيس الفرع من الجهة المقابلة من السجن لجناحنا وهو ينادي على السجينين أن ألقوا أسلحتكما واستسلما فردا عليه أنهما يحتجزان السجناء رهائن وإن لم يتركوا لهما طريقاً للخروج فسوف يقتلون جميع السجناء ويفجرون السجن، لقد حاولوا خداعهم وكأن لديهم أسلحة كثيرة وبالحقيقة كانوا لا يملكون سوى ثلاث مسدسات هي للعناصر وفيها عدة طلقات فقط، وبدأت المناقشات والمساومات وصدّق رئيس الفرع أن هناك أسلحة كثيرة لديهم، ناداني رئيس الفرع قائلاً أن اخرجي ومن معك من النساء وطلب من الأخوين أن أخرجا النساء فقط ولكنهم رفضا وناديته بصوت عالٍ أنهم لا يسمحان لنا، أما الحقيقة فإنهم كانا لا يملاون مفاتيح

الغرف فهي بحوزة السجان المختبئ، أطلق أحد الأخوين طلقة كسر ضوء الممر لئلا يروا من الخارج ماذا يحصل بالداخل، كانا يوهمونهم أنهما يقومان بجرح السجناء ورميهم خارج الغرف، ولكن لم يكن يحصل من هذا شيء، فالسجناء كلهم مختبؤون داخل حمامات الغرف ذات الأبواب الحديدية، لم يكن أحد في غرفته إلا أنا، لقد عشت معه لحظاته الأخيرة كانت محاولاتهما الأخيرة للهروب، كان يكلمني عن الماضي والحاضر وماذا حصل، لا أذكر الآن من حديثه شيئاً، كان شعوره بالخديعة والخيانة يسيطر عليه وعلى تفكيره، كنت أريد أن أكون معه في لحظاته الأخيرة من يدري ربما لحقت به، وعند منتصف الليل جاؤوا بزوجته وأمه وأطفاله أمام جناح السجن وأم وأخت السجين الآخر وأصبحوا يتوسلون إليهم أن يسلموا أنفسهما، كان ذلك بإيعاز من رئيس الفرع الذي تعهد لهم بالعفو عنهما، كان بكائهم وتوسلهم يُدمي القلب قبل العين، كانت غرفتي مجاورة لغرفة السجانين وكنت أسمع كل همسة، لم يكن يفصلني عن أهل السجينين سوى تلك الغرفة وقضبان حديدية مكشوفة فكنت أسمع كل همسة وشهقة وأنّة وتوسل، كانت تلك الأصوات الحزينة تقتل شيئاً ما بداخلي واقتربت ساعات الفجر والحال على ما هو عليه، عناصر الفرع تتحاور مع السجينين والأهل يتوسلون إليهما، دخلت الحمام للوضوء للصلاة فقد تكون نهايتنا معاً، ناداني فخرجت مسرعة وإذ به يرمي لي محفظته فيها نقود لازلت أذكر المبلغ ألف وثلاثمئة ليرة، قال خذيها أختي فأنت أولى منهم سوف

يأخذونها، يقصد بذلك عناصر الأمن، تناولت المحفظة وخبأتها وصليت أنا والأخت ودعونا الله أن يفرج كربنا وبهدوء الليل الحزين صدح آذان الفجر والتعب نال من الجميع كل مأخذ وانتظار الموت الذي أرخى بأجنحته على المكان عوضاً عن ظلام الليل، ودعني ولكني كنت في عالم آخر كانت الأرض تدور بي، لم أكن أصدق ما يحصل كنت الغائب الحاضر، وبدأت خيوط نور الفجر الأولى تخترق نوافذ السجن وانتشر ضوء النهار لقد كان الأمن ينتظرون ذلك الفجر حتى يستطيعوا رؤية مكان السجينين ومعرفة الجو العام للجناح، كانت يحصل بين الفينة والأخرى تبادل لإطلاق الرصاص وبعد صلاة الفجر دخلت أنا والأخت إلى الحمامات وأغلقنا الباب الحديدي لأن الرصاص كان يخترق جدران غرفتنا، مازالت ملامح وجهه أمام عيني توسل لي أن ادخلي وابتسامة حزينة تشع من عينيه لقد عرف أن الأمل انتهى ولا بد من المواجهة وأن نهايته قد اقتربت، خاف عليّ أن تصيبني طلقة طائشة لأن غرفتي كانت بين النارين ودوت في أركان السجن صيحات الله أكبر وأشهد أن لا إله إلا الله ودوى رصاص كثيف وسكتت أصواتهما وارتفعت روحهما إلى السماء وغمر ماء التدفئة المختلط بدمائهما غرفتي وفراشي وانتشرت رائحة الموت والدماء، خفق قلبي وازددت خوفاً من الانتقام وإذ بصوت أحد الضباط يناديني باسمي، لم أخرج فمقابلة الموت ليس بالأمر السهل، فالأبطال هم الذين يواجهون الموت وأنا لست منهم ولكنه ناداني لا تخافي اخرجي أنت ومن معك، استجمعت كل قوتي وإيماني

وخرجت ولكنه سألني هل أصيب أحد، قلت: لا، كنت أبكي ويخفق قلبي خوفاً وحزناً وأنا أغوص بالماء الممدد بدمائهما، لقد تناثر دمهما على جدار وستائر غرفتي، كنت أحاول حبس دمعي خوفاً من عناصر الأمن ولكني كنت لا أستطيع، حاولت أنا والأخت تنظيف الغرفة من الماء والدماء وخرج جميع السجناء سالمين ولم يحصل أي انتقام من أحد، لقد أخذ العناصر جثامين الشهداء ولكن آثار جسديهما على الأرض رسم ملامحهما، وخلال شهور كنت أقف على شبك الغرفة وأنظر إلى آثار الدماء وشظايا الطلقات على ستارة وجدران غرفتي وأقول في سري: رحمك الله أيها الشهيد وأدعو الله أن ينتقم ممن خانك وخذلك وسلمك لأعدائك في الدنيا والآخرة ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

إحدى وعشرون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

وبعد ساعات من تلك الحادثة جاء ضابط من الفرع ليحقق بالأمر فقال له أحد سجاني الأمن السياسي وهو من دير الزور لقد كان السجين يكلم السجينة «شهرزاد» سألني ماذا كان يقول لك؟ قلت له: يعطيني بعضاً من الطعام والأشياء التي تأتيه بالزيارة وبمعرفة السجانين، كم كان هذا السجان حقيراً ووضيعاً لقد أراد أن يوقع بي ويجرني لتحقيق لا يعلم إلا الله نهايته، وبماذا سيستفيد ذلك السجان من هذا التحقيق، ولكن نفاقه وصل حداً لا يعرف شرفاً ولا أخلاقاً سوى أن حقارته طغت عليه وبعد التحقيقات هدأ كل شيء في جناح السجن وعدنا لحياتنا السابقة وكأن عاصفة قوية هبت فاقتلعت شجرتان من بيننا ثم سكنت، بكيت أنا والأخت كثيراً، وأتى السجانون يسألوننا هل تبكون عليهما؟ نجيب والخوف يملأ قلوبنا أننا نبكي على أنفسنا، والحقيقة أننا نبكي ونرثي حالهما وحالنا، وبعد فترة خرجت الأخت الثالثة ونالت حريتها وبقيت مرة أخرى وحيدة أجترّ ذكرياتي وأستعرض حياتي، يا ليتهم يقدموني لمحاكمة ويحكموا عليّ بالإعدام ولكن كنت السجينة الوحيدة البريئة التي لا توجد تهمة يحاكمونها عليها ولكن حقدهم كان عظيماً لأني لم أخن زوجي ورفاقه ولم أتعامل معهم في ظلم

الناس، كانت هذه جريمة كبرى لم يغفروها لي، كان أزلام الأسد يريدون أن يجعلوا مني عبرة لكل شريف في هذا البلد ويريدون تربية وتخويف الضباط المتدينين السنة الذين قد يفكرون بالخروج من حظيرتهم ليتركوهم عبيداً وأرقاء لديهم، كنت في كل زيارة أرى أطفالي يكبرون ويكبرون ولكني في داخلي لم أكبر مثلهم والهوة تكبر وتتسع بيني وبينهم، وفي كل زيارة أرى هؤلاء الأطفال وكأنهم ليسوا أولادي، لقد توقف الزمن في عقلي فأنا تركت أطفالي صغاراً جداً، أما هؤلاء فأحاول جاهدة وبصعوبة أن أربط الماضي بالحاضر ..وجاء صيف عام ١٩٨٦ وذهب أطفالي بعد انتهاء الدراسة لقضاء العطلة الصيفية عند جدتهم الثكلى بجميع إخوتها وزوجها وأولادها وأصهارها وأولاد عمها، كانت هذه المرأة العظيمة بصبرها ودينها وأخلاقها لا تضاهيها امرأة في العالم، بدأ والدي ووالدتي يقومون بزيارتي برفقة ابنة أخي الصغيرة التي تعلقت بحبها «أصبحت هذه الطفلة الآن زوجة ابني ياسر وعند ولادتها قمت أنا بتسميتها» وعندما لا يأتون بها كنت أحزن لفراقها أكثر من حزني لفراق أولادي لأن الهوّة كبرت بيني وبينهم، كنت أتمنى أن ينقلوني من هذا السجن لأشعر بتغيير شيء ما في حياتي المملّة الرتيبة، كنت أريد صدمة كبيرة تعيدني إلى الحياة لأن كل شيء بدأ يموت بداخلي شيئاً فشيئاً. وحصل ما أريد وقالوا لي في إحدى ليالي السجن جهزي أشياءك سننقلك باكراً إلى مدينة دمشق، سوف نرسلك إلى القيادة حتى يبتوا في أمرك، فرحت كثيراً لأني أردت أن يتغير شيء ما في حياتي ولكني

حزنت على أهلي وأولادي لأني سوف أفتقدهم ويفتقدونني وهكذا جهزت أشيائي الضرورية وبتّ ليلتي لم يغمض لي جفن وكنت أُكلم نفسي قائلة: ألم يبق مكان في هذا العالم يتسع لي؟ أنظر لذاتي في مرآة صغيرة وأُكلمها هل أنا مخيفة لهذه الدرجة للنظام حتى يتركني في السجن؟ بحثت كثيراً وراء المرآة وحملقت في شخصي هل يبدو عليّ أني مجرمة حقاً ويريدون معاقبتي؟ هل الحب والإخلاص جريمة يستحق المرء السجن عليها؟ إنهم يقومون بأبشع الجرائم والمنكرات ونساؤهم يباركنهم ويقبلن أيديهم المجرمة والملطخة بالدماء وعذاب الآخرين. هل من يدافع عن دينه وحقه بالعيش الكريم مجرم؟ هل انقلبت المبادىء ليصبح المجرم صاحب الحق وصاحب الحق مجرماً؟ يا الله ما هذا الذي أنابه ؟! وبتّ ليلتي أصارع تلك الأفكار حتى بزوغ الفجر، جهزت أغراضي ولبست ملابسي وجلست أنتظر مجيء دورية الفرع وفُتح الباب ودخل عدة عناصر، لقد خفق قلبي فأنا سوف أذهب لمصير مجهول، فتح أحد السجانين باب غرفتي وخرجت ومن ثمّ أخرجوا سجينين وضعوا السلاسل في أيديهما وعصبوا عيونهما، أما أنا فلم يفعلوا بي شيئاً من ذلك، ودعت جدران السجن الذي التهم ست سنوات من عمري وركبنا إحدى سيارات الأمن، كان العناصر يحملون أسلحتهم، جلست بقربهم والسجناء الآخرون في المقعد الخلفي ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ....

الثانية والعشرون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

سارت بنا السيارة متجهة إلى مدينة دمشق وكان صباح ذلك اليوم هادئاً والناس يروحون ويجيؤون بكل حرية ولا أحد يعلم ماذا يجري داخل السجون المظلمة من عذاب وألم، كانت خيوط الشمس تشرق في بهجة فهي أيضاً لا تشاركنا العذاب والأسى حتى نسمات الصباح العليلة تلفح وجهي بلطف وسكينة من خلال النافذة، كان العناصر يسترقون النظر إلي ليروا ملامح وجهي ولكني كنت كتمثال أو صنم من الحجر خال من كل المشاعر، وصلنا مدينة حمص وقرر العناصر أن يقفوا في الاستراحة حتى يتناولوا طعام الفطور رجوني أن أخرج من السيارة وأجلس على طاولة لوحدي لأتناول الطعام ولكني رفضت لأن روحي وجسدي لم يعودا بحاجة إلى أي شيء سوى الحرية، لا لأولادي ولا لأهلي ولا للطعام والشراب كل ذلك لم يعد يعني لي شيئاً فأنا أتوق لنيل حريتي وللحرية فقط، انتهى العناصر من تناول طعامهم وركبوا السيارة وبعد مدة قصيرة لمحت على جانب الطريق لائحة مكتوب عليها تدمر استدارت السيارة وسارت في الطريق إلى تدمر، يا الله ما هذه الخديعة التي تعرضت لها إنهم كاذبون يريدون نفيي إلى سجن تدمر استسلمت لإرادة الله في داخلي ولكن تملكني خوف ورعب شديد فأنا

وحيدة ولقد سمعت عن رئيس سجن تدمر كيف يحاول مساومة السجينة التي تعجبه على شرفها فهو لا يريد اغتصابها ولكنه يريدها لقضاء ساعات برضاها والتي ترفض يضعها بزنزانات السجن لا تخرج منه حتى تصاب بالسل، شعر أحد العناصر بما في بداخلي فقال لي بصوت خافت نريد أن نوصل السجينين إلى تدمر أما أنت فسنوصلك إلى دمشق كنت أتمنى أن يحصل ذلك ولكني لم أصدق كنت طوال الطريق أرى صحراء واسعة متناهية الأطراف والغربان تحوم وتطير بحرية، يا الله إني أرضى بخيمة في هذه الصحراء أجاور تلك الغربان وأعيش بحرية معهم ماذا لو طلبت منهم أن يتركوني في هذه الصحراء ماذا سيضرهم ذلك، اشتد الحر وساروا بسرعة جنونية ليجتازوا ساعة الحر ويصلوا قبل أن تلتهب الطرقات أكثر، تمنيت أن تنقلب السيارة بنا بحادث مروع ونموت يا ليت ذلك يحصل، وعاد الأمل لي بانتظار ذلك الموت المفجع ولكن لم يحصل شيء من ذلك ووصلنا حاجزاً لعناصر الجيش فأروهم ورقة فسمحوا لنا باجتياز سياج ومن ثم سياج آخر حتى وصلنا أمام باب حديدي صغير، من قال أن وراء هذا الباب الصغير يحدث من الآلام والعذاب والإجرام ما لا يصدقه عقل بشر، نزلنا من السيارة واستلم عناصر السجن السجينين أرادوا أخذي أيضاً ولكنهم قالوا لهم هذه السجينة سنوصلها لدمشق كان قلبي يعصف خوفاً من نظرات هؤلاء السجانين الذين يرمقونني بنظرات غريبة فاجرة سافلة وكأن ذئباً حصل على فريسة، لقد كان العناصر الذين يرافقوني يختلفون عنهم

اختلافاً كبيراً كانوا يعاملوني برحمة وشفقة وحزن، فمن هؤلاء العناصر الموجودون في تدمر؟ من أي عالم أو كون جاؤوا؟ في أي بيت تربوا؟ هل لهم أمهات؟ هل لهم أخوات وبنات يخافون على شرفهن؟ أم أن الشرف كله لا يعرفونه، انتهى العناصر من تسليم السجناء وأنا انتظر بخوف وقلق أن يتركوني لدى هؤلاء الوحوش. جاء أحد العناصر وطلب مني مرافقته لنتابع السفر إلى دمشق لقد رأيته كملاك نزل من السماء جاء ليخلصني من هذا الكابوس وبفرح وحزن وبكاء دفين سرت معه إلى السيارة وأُغلقت الأبواب باب السجن وباب السيارة واتجهنا إلى مدينة دمشق ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام...

الثالثة والعشرون

كان يا ماكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد دقائق قصيرة من خروجنا من سجن تدمر استعدت شيئاً من رباطة جأشي وروحي المشردة، أحسست أني ذاهبة لرحلة استجمام بعد ذلك الكابوس. كان طريق دمشق هو ذاته الذي كنت أذهب وأجيء من حلب إلى دمشق عليه منذ عدة سنوات برفقة زوجي الشهيد، لم يخطر ببالي تلك الأيام أن من كان يجلس بقربي نفرح ونحلم معاً بمستقبل سعيد سيجلس مكانه سجان يحمل بندقيته وكأني مجرمة يخاف هروبها، وبقيت أجترّ ذكرياتي طوال الطريق وأنا أنظر من خلال النافذة البعيدة عني، فقد كان يجلس عنصر عن يميني وآخر عن يساري وأنا أجلس في الوسط، لقد عطفوا عليّ ولم يضعوا السلاسل بيدي كنت أجلس بينهم كتمثال شمع يخافون المساس به فالكل متحجر بمكانه، لقد تعبت من هذه الرحلة والله أعلم بحالي لأني لا أستطيع بكلمات بسيطة أن أصف ذلك الشعور، ووصلنا أخيراً إلى مدينة دمشق وعبرنا حواجز ثم حواجز حتى دخلنا ساحة كبيرة فيها أشجار كثيفة، توجهنا لغرفة صغيرة صعدنا عدة درجات لنصل إليها فدخلناها وسجلوا اسمي وفتشوا أغراضي وانتهى العناصر من تسليمي لهذا المكان الذي لا أعرف ما هو، وخرج الملائكة الذين يرافقونني وحاولوا

طمأنتي أن هذا لصالحي، وخرجوا بعيداً ومازالت عيناي متعلقة بهم حتى غاب طيفهم عن ناظري، وكأني ودّعت بغيابهم كل أحبائي الذين تركتهم بعيداً بعيداً في مكان ما، جاء عنصر وناداني ونزلنا معاً درجاً عميقاً تحت الأرض لم يخطر ببالي أن أعد درجاته ولكنه لا يوحي بما ستكون نهايته فُتح باب ثم باب وإذ بالمكان عالم آخر، غرف كثيرة وممرات تحفّها أبواب حديدية وصمت رهيب مخيف يقطعه صوت تعذيب السجناء أو صراخ سجان لا أدري سبباً لصراخه كانت أرقام الغرف غريبة توحي بأن وراء كل غرفة مئة غرفة طرق السجان الباب ثم فتحه وقال لي ادخلي وقفت إحدى السجينات تكلمه وتضحك معه كان السجان ضابطاً ولم يكن عنصراً كما ظننت.

كانت مساحة الغرفة ستة أمتار مربعة تقريباً يعلوها سقيفة مغلقة لها نافذتان حديديتان وحمام صغير هو لكل الاستعمالات ألقيت التحية على السجينات فرحبن بي وأعطينني زاوية، فلقد علمن أني سجينة قديمة من خلال أشيائي ولباسي.كان الفراش عبارة عن عازل عسكري وبطانية والغطاء بطانية أخرى، تمددت بمكاني وأنا متعبة حاولن التعرف على اسمي ومن أين أتيت وما هي تهمتي، أجبتهم باختصار وعندما علمن ما بي من تعب وإرهاق تركن الأسئلة وقدمن لي القليل من الطعام الموجود لديهن، استرحت قليلاً وتوضأت وصليت ما فاتني من الصلوات وحمدت الله تعالى الذي نجّاني اليوم من كرب عظيم ورحت أغطّ في نوم عميق استيقظت فجأةً

على أصوات تعذيب السجناء فقد بدأت فترة التحقيقات، سألت السجينات ما اسم هذا الفرع؟ قالوا فرع «٢٤٨» أي فرع التحقيق العسكري، تعرفت على السجينات فكنّ مسجونات بتهم مختلفة، منهن سياسيات وأخريات قضائيات، وتعرفن عليّ أيضاً، لقد حزنّ من أجلي وتعاطفن معي، وبعد عدة أيام استطعت التأقلم مع الوضع الجديد أملاً بأن يُبتّ بأمري، ولكن ما يميز هذا المكان أننا لا نعرف الليل من النهار إلا من وجبات الطعام التي توزع كما في القطع العسكرية، وممنوع اقتناء أي شيء من زجاج وحديد حتى الملاعق، إن عدم وجود الملاعق كانت محنة كبيرة فكيف سأتناول الطعام بدون ملعقة؟ فكنت أستعدّ وأشمر عن ساعديّ لتناول الطعام وكأني في معركة ولكن للأسف خسرت تلك المعركة فلم أستطع التعوّد على تناول الطعام بيدي، كانت هناك سجينة لبنانية كبيرة في السنّ لديها ملعقة بلاستيكية تُرفق بأدوية الأطفال فأعطتني إياها «جزاها الله كل خير إذا كانت ما تزال على قيد الحياة ورحمها الله إذا توفاها» ولكن لم تطل تلك المدة، فأثناء غسيل الأواني سقطت في حفرة المغسلة.

حاولت أن أطلب من الضابط أن يسمح لي بشراء ملعقة فرفض، وبعد عدة محاولات سمح بذلك تقديراً لوجودي الطويل في السجن والحمد لله انتهت محنة أنستني محنتي الكبرى، وطلبنا من الضابط المسؤول أن يخرجنا للتنفس فوافق ولكن بشروط أن نخرج ليلاً لئلا يرانا أحد من البنايات المقابلة للفرع، انتظرنا حلول المساء بفارغ الصبر وبعد انتهاء

موعد التحقيقات جاء أحد السجانين وفتح الباب وخرجنا، وبزاوية أحد الممرات حيث يوجد سلم حديدي وفي أعلاه فتحة سماوية مربعة، صعدنا الواحدة تلو الأخرى حتى وصلنا إلى السطح، نظرت إلى الفتحة من الخارج فإذا هي «ريجار» أي مجرور مياه كالذي يوجد في الشوارع، كانت نسمات الليل لطيفة هادئة وباردة، نظرنا إلى بعضنا ونحن نقول: ما أجمل سهرات الأسطح، التفتنا حولنا وإذ بالبنايات التي تحيط بالمبنى شاهقات، أين نحن إذن؟ وكانت صدمتنا كبرى، لقد خرجنا إلى وجه الأرض، إذن ما هي المسافة العميقة التي نحن فيها حتى ظننا أننا نصعد إلى السطح؟ من يسير ويرى فتحة المجرور يظن أنه للصرف الصحي ولا يخطر بباله أن تحت تلك الفتحة عالم آخر من الظلم والعذاب؟ عالم نسيه أو لم يعلم به الناس، كيف سيحاسب الله المسؤولين عن هذا الجحيم؟ وأي جحيم بالآخرة يليق بهؤلاء الوحوش الآدمية؟ انتهت الساعة المسموحة للتنفس ونزلنا مثلما صعدن ، وامتلأت رئتينا بالهواء النظيف وتمتعنا برؤية السماء المرصعة بالنجوم ولكن لا أعلم أن أحداً من البشر رآنا وأشفق علينا ولكن الله في عليائه سمع دعاءنا وتضرعنا ولن ينسانا ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام .....

الرابعة والعشرون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

مضت شهور عدة وخرجت سجينات وجاءت أخريات وأنا مازلت قابعة بزاويتي لم يستدعني أحد لا لسؤال ولا لتحقيق، وكلما جاء ضابط ليتفقد السجن أسأله إلى متى أنا هنا؟ ولماذا أتيت؟ يجيبني أنه لا يعلم. كلما خرجت من محنة دخلت بمحنة أقسى وأشد، وتوالت الشهور وأنا تحت الأرض بأمتار ولا أعرف الليل من النهار ولا يعرف أهلي أين أنا ولا أعرف عنهم شيئاً، إنهم يحرمون السجين من أبسط حقوق الإنسانية والحياة الكريمة، فينسى المرء حريته ليبحث عن ذلك الفتات ويُطالب به، إنهم مجرمون جهنميون، من أين رضعوا هذا اللؤم والإجرام؟ لقد خلعوا عنهم ثوب الإنسانية ولبسوا ثوباً لم أجد له أي مسمىً في العالم أو كلمة تليق به وتنطبق عليه، وبعد عشرة أشهر جاء ضابط وقال لي: جهزي أغراضك سألته إلى أين، قال سوف تعرفين لاحقاً، ألححت عليه بالسؤال فقال: إلى سجن دوما للنساء. فرحت لذلك الخبر وكأنه سيُخلى سبيلي، جهزت أشيائي وركبت سيارة الأمن ومن حولي عناصر مسلحين للأمانة لم يضعوا السلاسل في يدي كبقية النساء اللواتي ألتقي بهنّ، أقلتنا السيارة بسرعة جنونية وكأن مهمة شاقة يريدون التخلص منها بأسرع وقت ممكن، توقفنا

أمام باب حديدي صغير يُشبه باب سجن تدمر، يجعلون أبواب السجن من الخارج صغيرة بريئة ومن الداخل يكون المكان جحيماً. ولكن هذا السجن لم يكن كذلك فهو للقضائيات قاتلات أزواجهن ومهربات مخدرات ونساء عاهرات، إنها الطبقة الدنيا والمنحطة في المجتمع، لهذا يسعون على راحتهنّ وإسعادهنّ، أما نحن السياسيات فمصيرنا أقسى وأبشع السجون لأننا نحمل قيماً ومبادئ يخافون منها على أنظمتهم والكراسي التي يجلسون عليها.

استقبلني ضابط للشرطة المدنية وسجل اسمي، ودعني العناصر وذهبوا ليقوموا برحلة ورحلات لبشرٍ يوصلوهم إلى عذاب الجحيم فهم خزنة وسدنة جهنم النظام البعثي.

فتح الضابط باباً حديدياً يُطل على باحة كبيرة تتوسطها بركة ماء ويُخيم فوقها عريشة عنب عتيقة، تحوي بين طيّات جذعها قصص وحكايا تاريخ المكان وأهله، وعلى الطرف الآخر شجرة كبيرة كأنها خيمة نزلت من السماء ليستظل بها سكان المكان من الشمس أيام الصيف، كنت أشعر بدوار وصداع من السفر ومن الحالة النفسية التي كنت بها، سلمني الضابط لفتاة رصينة محجبة يبدو عليها أنها ابنة عزٍّ كما يقولون، ناداها دكتورة أي الغرف فيها مكان فارغ أجابته: غرفتنا فهي أقل من الغرف الأخرى عدداً، دخلت الغرفة حاملة أشيائي كانت الغرفة طويلة وعريضة وعلى جانبيها مصاطب اسمنتية عالية كأنها سرير واحد طويل، ويتوسط بين المصطبتين ممر ينتهي ويتصل بدورة المياه وفي زاوية الغرفة من جهة

الباب صندوق خشبي كبير تتحلق السجينات حوله، له شاشة سوداء لا تكاد ترى شيئاً مرسوماً على الشاشة إنه «التلفاز» وبجانبه ثلاجة قديمة يبدو أنها كانت من أول ما اخترعت الثلاجات، إن تلك الأشياء من مكتسبات السجينات على مر السنين، كم هنّ محظوظات تلك السجينات، فمازلت في السجن منذ ثماني سنوات ولكن لم أحصل على أي مكتسب مادي يُذكر رغم كل نضالاتي ونضالات السجينات السابقات. ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

الخامسة والعشرون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان، تقول شهرزاد:

كان عدد السجينات في الغرفة التي دخلت إليها ثلاثون سجينة غالبيتهن من السجينات الشوعيات والإخوان والبعث العراقي، استقبلنني بترحاب ولكنهنّ كنّ ينظرن إليّ وكأنني هبطت من عالم آخر، نعم لقد جئت من عالم آخر، حتى السجون فيها تفاضل بعضها عن بعض، وجاءت بعض من السجينات من الغرف الأخرى للسلام علي، كنّ ينظرن إلي نظرة لم أستطع تفسيرها في تلك اللحظة، كان فيها استغراب واشفاق وإعجاب، وضعت أشيائي في ممر الغرفة وجلست في مكان بين سجينتين فيه سعة ما، كان يجاورني أخوات من مدينة حماة، أم وابنتيها، إحداهما أم لطفلة وُلدت بتدمر فكانت الوليدة الوحيدة لسجن تدمر، جلست وبدأت السجينات يسألنني من أين جئت ولِمَ وكيف؟ ويعرفنني على أسمائهن، كُنّ من جميع محافظات سوريا ومن جميع الطوائف والقوميات والديانات والآيديولوجيات، كانت سوريا المصغرة بزخرفها في هذه الغرفة، سعدت لوجودي في هذا السجن أيما سعادة، كان الفرح يُشرق من عينيّ والبسمة لا تفارق وجهي، والسعادة تغمر محيياي، مم زاد ذلك السجينات استغراباً، فما الذي يجعل الزائرة الجديدة سعيدة، كانت وجوههن كئيبة لا ملامح

ممكن أن أقرأها فيها، وأتساءل في سري، رغم كل هذه النعم التي يعشن في ظلها لا يبدو عليهن السعادة والرضا، ولكني أخفيت ذلك الشعور كما أخفين شعورهن نحوي، بدّلت ملابسي واستعجلت الخروج من الغرفة، كنت أريد أن أعيش وأستمتع بتلك النعم، جلت بنظري إلى جدران السجن كانت تعبق برائحة التاريخ، لم يخطر ببال من بناها أنها ستكون سجناً في يوم ما، لقد كانت تعج بالحياة السعيدة الرغيدة كما تخيلت، وغرفها الكثيرة توحي بغنى ساكنيها، لقد شعرت وكأني خرجت من الجحيم إلى النعيم، فالحمد لله الذي استجاب لدعائي، أمضيت هذا اليوم متجولة في كل ركن من أركان السجن وفي المساء جاء شرطي ودخلت جميع السجينات لغرفهنّ وأقفل السجان جميع الأبواب وجلست السجينات منهنّ من تتكلم مع أخرى ومجموعة تتناقش في أمور السياسة ومجموعة تُعدّ طعام العشاء وأخريات يتناقشن بحدة، كنّ بين الفينة والأخرى يسألنني سؤالاً وأجيبهنّ عليه، ولكن كل ذلك لم يُخفي نظرة الاستغراب في عيونهنّ، شعرت بتعب شديد وتمددت فوق فراشي القطني وأنا أحلم أن تدوم هذه النعمة والسعادة.

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان، تقول شهرزاد:

نمت تلك الليلة وفرح عارم يغمرني لأني خرجت من قبر موحش تحت الأرض إلى دنيا يملأ سماؤها شمس مشرقة صافية، وسجن واسع يملأ باحاته الأشجار الخضراء الزاهية. لقد عدت إلى الحياة من جديد، تلك الليلة لم أحلم بالحرية ولا بأهلي ولا أولادي، لا أعرف لماذا سيطر عليّ هذا الشعور من الأنانية.

استيقظت عند بزوغ الفجر وصليت صلاة الصبح ووقفت أمام النافذة الكبيرة من خلال الأعمدة الحديدية أرقب خيوط الليل تنسلّ من الأفق ويُشرق ضياء النهار والشمس ترمي بخصلات شعرها الذهبية على الجدران والعصافير ترفرف مغردة من غصن شجرة إلى آخر. لوحة ملأت روحي بهجة وسعادة وكأني أراها أول مرة، هل الشمس كانت بهذا الجمال منذ سبع سنوات خلت؟؟ هل كان هناك عصافير تطير؟ هل الأشجار كانت موجودة؟ نسيت أني ما زلت في السجن وأن كل ما أراه تغلفه أعمدة حديدية وأبواب سوداء وأقفال نحاسية. تسمّرت أمام النافذة لساعات طويلة وأنا أُكلّم نفسي وإذ بباب السجن يُفتح ويدخل شرطيّ يتثائب ويفتح أقفال الأبواب بملل ظاهر وكأنه مرغم على هذا العمل، وبعد خروجه بدأت الحياة

تدبّ بالسجن وتخرج السجينات كل من غرفتها إما وحيدة أو برفقة زميلة لها.

خرجت من الغرفة لأكتشف هذا العالم الغامض، إنه سوريا الصغيرة، جاءت أخت من الغرفة الثانية إنها من مدينة حلب تكبرني بعدة سنوات خريجة كلية الشريعة وتُدرّس مادة التربية الدينية، كان زوجها من شباب الطليعة وقد استشهد في مدينة حلب وسافرت بعد استشهاده للمملكة السعودية للتدريس، وكان عندها ثلاثة أولاد استطاعت أن تعيلهم بعد استشهاد والدهم ولكنها جاءت لسوريا لزيارة أهلها فأوقفها الأمن لاعتراف سابق قديم أنها من جماعة الأخوات المسلمات التابعة لجماعة الإخوان المسلمين، تشابكت يدانا وسرنا بشكل دائري تعرفني على السجن، هذه الغرفة الأولى للنساء العاهرات، تملكني الخوف والدهشة ووقفت أنظر إلى الداخل أتمعن وجوه النساء، كُنّ في الغالبية شابات ولكن يرتسم على وجوههن الحزن والقلق وينظرن إلينا بعيون منكسرة لا يستطعن إطالة النظر إلينا فنحن نملك شيئاً هنّ افتقدنه ولن يعود إليهنّ للأبد سيرافقهنّ هذا العار لقبورهن، تفحصت تلك الوجوه لأعرف ما وراءها، كم سمعت من حكايا عنهنّ، وأنهنّ كُن السبب بخراب البيوت السعيدة، نظرت لأرى الأشياء الجميلة فيهنّ التي تجذب الرجال ليتركوا زوجاتهم العفيفات من أجلهنّ، اقتربت أكثر من باب الغرفة وإذ بروائح نتنة تخرج من الغرفة فرائحة المكياج تختلط بروائح العطور ورائحة العرق والقذارة الجسمية

والنفسية، تقززت نفسي من هذه الروائح واستدرت مع الأخت إلى الغرفة الثانية ولكن ازداد فضولي وقررت في الأيام القادمة أن أدخل إلى حياة تلك النسوة لأعرف سبب انحطاطهنّ الأخلاقي، فلا يولد انسان في هذه الدنيا ساقط الأخلاق ولكن تربية الأسرة والمجتمع هي من تجعله يسقط في قاع الرذيلة والإنحطاط.

تابعنا سيرنا ووقفنا أمام الغرفة الثانية، قالت لي الأخت هذه غرفة القتل، ضحكت لهذا الاسم، فأجابتني قائلة: إن غالبية السجينات الموجودات في الغرفة قتلن أزواجهن وإن لكل واحدة قصة سأحكيها لك كما روتها هي، قلت لها: ما هذا التناقض العجيب في الحياة فأنا سجينة لأني لم أغدر بزوجي ولم أتخلَ عنه في محنته وأخلصت له وهنّ سجينات لأنهنّ لم يجدن وسيلة للتخلص من أزواجهن إلا بالقتل، ضحكت أنا وصديقتي وقلت لها: تخيلي لو أني قتلت زوجي هل سأسجن؟ أم سأكافأ؟ فهقهت الأخت وقالت: كانوا سيصنعون لك نصباً تذكارياً وستكونين بطلة قومية والله أعلم أي منصب سيوكل إليك، تركنا الوقوف أمام الغرفة وتابعنا سيرنا ووقفنا أمام دكان صغيرة تحوي مستلزمات تُباع للسجينات كالمعلبات والمشروبات وغيرها من الحاجات والبائعة كانت سجينة تابعة للبعث العراقي، ولكن يُقال أنها كاتبة تقارير ممتازة، وبجانب تلك الندوة مطبخ السجن، يحتوي على قدر نحاسي كبير وبعض الأواني، قالت الأخت معرفة نحن نطبخ الطعام لجميع السجينات، كل غرفة لها دور تقوم بإعداد الطعام ما عدا

غرفة الدعارة فهن يقمن بغسل القدور وتنظيف المكان، قالت لي: اليوم دور الطبخ على غرفتكن الثالثة.

تابعنا سيرنا لنقف أمام غرفة الأخت إنها الغرفة الرابعة، كانت ملأى بالسجينات المتهمات بالإنتماء لجماعة الإخوان المسلمين، وكانت التهم إما زوجات أو أخوات أو نصيرات مساعدات، كان عددهن يفوق الثلاثين والغالبية من مدينة حلب وحماة، دخلت مع الأخت وسلمت عليهن فرددن السلام بحفاوة بالغة وقلن لي: ما هذا النشاط العظيم، أجبتهنّ: أنتن بنعمة تُحسدن عليها، فأنا منذ اعتقالي لم أر السماء ولا الشمس إلا من خلال نوافذ السجن، سألنني ولكن كيف بقيت بهذه النفسية المتفائلة والمنطلقة وهذا الإشراق والأمل وقد أتيت من أسوأ السجون؟ ضحكت مستغربة ولم لا؟ ألسنا مؤمنين بعدالة قضيتنا وقضاء الله تعالى، ضحكت الأخوات جميعهن لإجابتي وسألنني، هل مازلت متمسكة بالقضية؟ قلت: ماذا جرى لأتركها؟ هل تغيرت المفاهيم وانقلبنا عليها؟ الآن عرفت سبب الدهشة التي كانت مرسومة على وجوههن عندما رأينني أول مرة، قلن لي هنا ستتغيرين ولن تبقي هكذا، خرجت مع الأخت وأنا أسألها بغرابة ما الغريب الذي رأوه فيني؟ قالت: لقد رأوا أنك مازلت تتكلمين بالمبادئ والقضية، لم أفهم تماماً ماذا عنيت بذلك، تابعنا سيرنا وقالت: هذه الغرفة الخامسة جميع السجينات فيها من حزب العمل الشوعي الذي يقاوم النظام لأنه لا يطبق النظرية الشوعية كما هي، قلت: سبحان الله الإلحاد والإيمان معاً في هذا

السجن، كان الشباب السجناء الشوعيون كثيرون في سجننا بحلب ولكن بما أنهم رجال فلم أكن أعرف عنهم سوى أنهم ملحدون ويودون تغيير العالم عى أساس مادي بحت، قلت في سري: الآن وجدت الفرصة لأتعرف عى أفكارهم عن قرب وليس من الكتب، سلمنا عليهن وعلقوا أيضاً عليّ بأني مازلت أحتفظ بالنشاط والتفاؤل رغم تلك السنين، تابعنا سيرنا وقالت الأخت: هذه غرفة خصصت لتكون مدرسة ولكن للازدحام وكثرة العدد خصصت للسجينات، وفيها سجينات بتهم متفرقة، تابعنا سيرنا ومررنا بآخر غرفة إنها غرفة الحشيش، قلت للأخت: هل هن مدمنات مخدرات، ردّت: الغالبية تاجرات مخدرات ومدمنات وأكثرهن من لبنان، كان هذا أول صباح لي في سجن دوما للنساء، جلست مع الأخت على حافة البركة وشربنا القهوة ونحن نتجاذب أطراف الحديث، لقد نسيت العالم الخارجي لأني الآن في عالم آخر.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ..

في الصباح وبعد أن أنهيت جولتي على السجن عدت لغرفتي، كانت السجينات قد استيقظن، انضممت للمجموعة التي دعتني لأكون بينهنّ وقامت إحداهنّ بتحضير طعام الإفطار وبدأن بشرح النظام الداخلي للغرفة، كل واحدة تنظف ممر الغرفة مع الحمامات وبما أن اليوم دور غرفتنا في الطبخ قلت لهنّ: أنا اليوم من ستقوم بالطهي، ضحكت السجينات وقلن: مازالت «شهرزاد» تحتفظ بالنشاط والحيوية وسوف نقوم بكسب هذا النشاط، جلست مع مجموعتي وتناولنا الطعام ونحن نتجاذب أطراف الحديث وجميع العيون كانت متجهة نحونا، لقد جاءهن موضوع جديد وشخصية جديدة يودنّ التعرف عليها وخاصة أنها جاءت من عالم آخر. ونحن هكذا فُتح باب السجن وأدخلوا لوازم الطبخ، كان الطعام بازلاء خضراء ورز وبعض لوازم الإفطار، تجهزنا جميعنا وخرجنا لباحة السجن وجلسنا تحت الشجرة نجمع حبوب البازلاء ونتجاذب أطراف الحديث تارة بجدية وتارة بمزاح وتارة أحاديث سياسية وشخصية، وبعد أن أنهين المهمة جاء دوري مع أخت لنقوم بالطهي، لا أستطيع أن أعبر عن فرحتي بتلك الحياة الجديدة فكل لحظة لها سعادتها، لا أجد مللاً ولا رتابة بتلك الحياة لأن الملل يُحطّم المرء من داخله.

لقد تسلل القلق إلى داخلي خوفاً من أن لا ينجح طهي الطعام معي فأنا منذ زمن بعيد لم أقم بتلك المهمة ولكن الحمد لله أنهيت المهمة بنجاح عظيم،

وجميع السجينات تكلمن عن ذلك، حتى عناصر الشرطة سألوا الطبيبة المسؤولة من قامت بالطهي اليوم؟ قالت لهم: السجينة الجديدة «شهرزاد»، الحمد لله لم يرم أحد من الطعام شيئاً وأصبحت مشهورة في زمن قليل أني طباخة ماهرة. شعرت بأن معنوياتي ارتفعت بعد هذا اليوم وخطر ببالي مشروع دراسة ظاهرة الإنحراف في المجتمع أسبابها ونتائجها من خلال مشاهداتي وروايات السجينات القضائيات وعلاج هذه الإنحرافات، ولكن هذا المشروع لم ير النور لأني خفت أن أُستدعى للفروع بأي لحظة، عندها سيقومون بتفتيش أغراضي ومصادرتها لهذا عدلت عن الفكرة ولكن الفضول كان يدفعني دائماً لأستمع لحكايا السجينات سياسيات كنّ أم قضائيات، كان السجن يجمع نساءً أتينَ من قاع المجتمع وبين نساء يُحاولنَ بكل أيديولوجيات العالم أن ينهضنَ بالمجتمع إلى أرقى المراتب، كان في هذا تناقض عجيب، فترى الخيانة والإخلاص التدين والإنحلال الأخلاقي، الإيمان والإلحاد، المحجبات والسافرات، المتعلمات لدرجة عالية والأميّات الجاهلات، كل تناقض بالوجود تراه في هذا السجن الصغير، لقد شغلني هذا التناقض وعشت معه، أسمع القصص والحكايا والأفكار، كنت أمضي يومي متنقلة من إمرأة وأخرى أتجاذب معها أطراف الحديث لتحدثني عن بعض قصصها بعفوية بريئة لئلا ينتابها شكٌ من أسئلتي وفي المساء قبل أن أنام أستعرض كل ما سمعته وأحلل أسبابه ونتائجه وأضع له الحلول ثم أغط في نوم عميق.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ..

الثامنة والعشرون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

لقد بهرني هذا العالم بتنوعه وثرائه المعرفي وعقدت عدة صداقات مع نساء قضائيات، لقد دخلت إلى أعماق الكثيرات منهنّ فرأيت فيهنّ نساء سويات ولكن المجتمع ضغط عليهن فانحرفن عن الطريق المستقيم. وعرضت عليّ إحدى السجينات وكانت تقضي في السجن عقوبة بسيطة أن تذهب لأهلي وتخبرهم بوجودي هنا، فكتبت لهم رسالة على محارم ورقية ووضعتها في ذيل ثوب لي وأخطت عليه وأخذته لتوصله لأهلي، كان القلق والحزن قد أخذ منهم كلّ مأخذ فثوبي دليل على وجودي في هذا المكان والرسالة بخط يدي.

وعندما علم أهلي بوجودي بهذا السجن تحملوا عناء السفر من حلب إلى دمشق إلى دوما، ولكنهم لم يستطيعوا رؤيتي لأن المخابرات لم يرسلوا للشرطة كتاباً بالسماح لي بالزيارة والشرطة المدنية لا تجرؤ على السماح لي بالزيارة، وهكذا وقفت والدتي وإخوتي وأولادي على باب السجن وكانت الشرطية تتواصل بيني وبينهم، كم لاقوا من تعب وحزن وإنفاق من أجل رؤيتي ولكنهم لم يوفقوا لذلك ولكن شعروا باطمئنان أنهم عرفوا بأي سجن أكون بعد عام من السؤال عني ولا مجيب (يرحمكما الله يا والدي ويا والدتي

وجعل الله عذابكما هذا في ميزان حسناتكما) أدخلت الشرطية لي الأغرض وغادر أهلي وأولادي دون أن أراهم، حزنت حزناً لا يمكن أن أصفه بكلمات وحزنت جميع الأخوات من أجلي لأني كنت الوحيدة الممنوعة من الزيارة وكأن المخابرات يبحثون عن شيء يشفي غليلهم مني، رجعت إلى غرفتي وبدأت السجينات يواسينني في محنت ، لقد كان حزني على أهلي وأولادي أكبر من حزني على نفسي فأنا أعيش في راحة تامة مقارنة بالسجن الذي أمضيت فيه ثمانية أعوام، فلا أسمع أصوت تعذيب، ولديّ بعض من وسائل الراحة، ويوجد معي رفيقات كُثر أمضي يومي بينهن.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ..إهداء إلى الأخوات هبة دباغ وماجدة لحلح ورغيدة قطان:

كان من بين الأخوات سجينتين من مدينة حماه، كنت أراجع حفظ القرآن على واحدة منهن، فقد حفظت القرآن عندما كنت في سجن حلب خفية عن عيون السجانين لأن وجود المصاحف ممنوع، فكنا نضع المصحف تحت الغطاء وننسج الصوف ونحفظ القرآن لهذا كان يوجد لديّ أخطاء بالحفظ والتشكيل، فمن أجل تصحيح تلك الأخطاء اتفقت مع الأخت أن أقرأ عليها ما تيسر من القرآن كل يوم ساعة، كانت الأخت «حفظها الله» تدرس الشريعة الإسلامية في مدينة دمشق وأما الأخت الأخرى فكانت أيضاً تدرس الشريعة وقد استشهد جميع أفراد عائلتها والديها وإخوتها الثمانية في مجزرة حماة، كنا نجلس معاً نقرأ القرآن ونتجاذب أطراف الحديث «كم أتمنى اليوم أن نعيش معاً ساعة واحدة مع العلم أن إحداهنّ جاءت لزيارتي قبل كتابة هذه القصة بعدة أسابيع، كم فرحت لزيارتها هي وزوجها، لقد جاءت من كندا، لا أستطيع أن أصف مشاعري وفرحي بها، كانت محبتنا لله وبالله، لقد التقينا بعد ثلاث وعشرين سنة» كنا نجلس بزاوية من زوايا السجن نتدارس القرآن ونتكلم عن حياتنا الماضية وما يجري معنا من أحداث نعيشها في السجن، لقد نشأت بيننا أخوة تحسدنا عليها الكثيرات، وبعد أن ننهي جلستنا التي قد تمتد لساعات تذهب كل منا لأعمالها، أما جولتنا على السجن واحتساؤنا قهوة الصباح فكنت أشربها مع

الأخت من مدينة حلب التي تحدثت عنها في قصص سابقة، وباقي ساعات اليوم كنت أدور متنقلة بين السجينات، قد تستوقفني إحداهن تسألني عن حياتي فأجيبها وأسألها فتجيبني، وهكذا مضت الأيام والشهور.

منعت الزيارة عن كل السجينات السياسيات، ومع مرور الوقت وطول الزمن بدأ القلق والحزن يسيطر على الجميع وقد حاولن المطالبة بزيارة الأهل ولكن الشرطة ادعت أن الأمر من المخابرات ولا يد لهم في ذلك، وبعد سماعنا لهذا القرار بدأت السجينات يفكرن بالقيام بإضراب عن الطعام ليصل صوتنا لأصحاب الشأن، وبعد اتفاق بين السجينات الشوعيات والإخوانيات وغيرهن قررنا الإضراب واتفقنا أن لا أحد منا تفك الإضراب دون الأخريات حتى نصل لما نريد، وكان اليوم الأول من الإضراب، لقد مرّ عادياً سوى من بعض المناقشات إلى أيّ حدّ ممكن أن نصل بهذا الإضراب؟ فالمتدينات كنّ يرفضن الاستمرار بالإضراب إلى مالا نهاية، حتى لا يُعرضن أنفسهنّ لخطر الموت انتحاراً، لأن الهدف من الإضراب لا يستحق أن نموت من أجله، فالصبر بتلك الحالة أفضل وأولى، كانت هذه حجتهن، أما الشوعيات فكن أيضاً يرفضن تعريض حياتهن لخطر الموت من أجل مطلب صغير، لا خوفاً من حرمة الانتحار. وكان لي دور كبير في تقريب وجهات النظر وإلى أي مدى ممكن أن نستمر في هذا الإضراب.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان، تقول شهرزاد:

مضى يوم ويومان وثلاثة وأربعة على الإضراب والشرطة تعلم بذلك، ولا ندري أوصل الخبر للفروع الأمنية أم لا، وظهر بعض التململ بشأن حياة بعض السجينات ذوات البنية الضعيفة، فكنا نطعمهن سراً أشياء بسيطة، ومن السجينات من كانت في غفلة من الأخريات تسكت جوعها بقليل من الطعام، وبدأت حركة السجينات تخف شيئاً فشيئاً للحفاظ على قوة الجسم لأكبر وقت ممكن، أخبرنا ضابط السجن أنه أوصل طلباتنا للفروع الأمنية، ولكن لم نصدقه، ولم نستجب لطلبه بفك الإضراب، وطلبنا مقابلة أحد الضباط من الفروع الأمنية. لقد كان عندي يقين أنه لن يلتفت أحد لمطالبنا مهما كلف من ضحايا، ورأيت في ذلك مغامرة جديرة بالاحترام لأضيفها لحياتي المليئة بالمغامرات العجيبة، وهذا الإضراب واحد منها، ومضت ثمانية أيام وتسعة ولم يسمع لنا أحد، لقد رفضتُ رفضاً قاطعاً تناول أي كسرة خبز فالمبادئ عندي أهم من الزيارة التي أطالب بها ولا أريد أن أخدع نفسي.

بدأ التململ يظهر أكثر وبصورة واضحة، والنقاشات تحتدم بين السجينات متى وكيف سنوقف هذا الإضراب ونحن لم نحصل على أي وعد، كنت أدور بين الغرف الثلاثة وأتكلم مع الجميع أنه إما أن يستمر الجميع بالإضراب أو أن نجد طريقة نفك الإضراب ونحفظ ماء وجهنا،

كان بإمكاننت أن ننتظر مدة أطول فجميعنا ما زلنا بصحة جيدة، لقد طغى على نقاشاتنا الحلال والحرام وحب الدنيا وكراهية الموت، وأصبحنا في اليوم العاشر، وبدأنا نشعر بانخفاض بالنشاط والحيوية والغالبية يمضين اليوم وهن مستلقيات على الفرش، ولكني لم أكن من هذا النوع، كنت أدور من غرفة لغرفة وأضع يدي فوق قلبي لأني بدأت أشعر بخفقان سريع بالقلب. ولكن والحمد لله مازلت أشعر أني أحتمل أكثر من ذلك، فبنيتي قوية وعزيمتي أقوى، وحاولنا أن ننهي الإضراب أمام السجينات القضائيات بشرف، وحاول ضابط الشرطة أن يكون مفاوضاً مع طبيبة السجن ونحن نعلم علم اليقين أنه كاذب، وكنا نشك أنه أوصل الخبر إلى الفروع الأمنية.

نحن اليوم في اليوم الحادي عشر (راجعتني إحدى الأخوات أن مدة إضرابنا كان ثلاثة عشر يوماً) وبدأت خلافات عميقة تدب بين السجينات، حتى بين صاحبات المبدأ الواحد، وكانت النقاشات كبيرة وحادة، وتعلو فيها الأصوات وتنخفض، فإما أن نبقى جميعنا مضربات أو ننهي جميعنا الإضراب، ولكن السمة الظاهرة كانت عدم الثقة بين الإخوانيات والشوعيات لا أدري لماذا، ولكن كنت أنا الوسط بينهن مع العلم أن غالبية السجينات لم يلتزمن حق الالتزام بهذا الإضراب، إلا بعض السجينات وكنت واحدة منهن، كنت في صراع مع نفسي لأرى لأي مدى ممكن أن أحتمل، ومع اشتداد الخلافات والصراعات حاولنا استغلال وعود الضابط لنفك الإضراب بشرف أمام السجينات القضائيات، وحتى لا يحدث انقسام وشرخ بيننا لأن الإضراب سيكون لا قيمة له أبداً بهذا الانقسام، وزيادة

على ذلك لن تحصل على أي مكسب. وبهذا أشعنا أننا حصلنا على وعود حقيقة وسوف نفك الإضراب، وبهذا كافأنا الضابط بأن أرسل لنا جراراً من الحليب لنشربها، ونصحنا أن لا نأكل بسرعة لأن المعدة فارغة منذ أحد عشر يوماً، وقد نمرض فيضطر لنقل بعضنا للمشافي. وبهذا أنهينا مغامرة مضحكة على حساب أجسامنا، ولكنها كانت مغامرة رائعة.

وقررت السجينات الشوعيات أن يقمن حفلاً في باحة السجن بهذه المناسبة، وشاركت بهذا الحفل بعض السجينات القضائيات، حضرت الكثيرات منا للفرجة، ولو لم نشارك، وكنت إحدى الحاضرات، وغنين أغاني ثورية لإمام ومارسيل خليفة ورقصت إحدى السجينات القضائيات في ذلك الحفل، كانت قد هربت من زوجها وتركت طفلين فقبضت عليها الشرطة وهي ترقص في أحد الملاهي، ولكن أهلها كانوا من الناس الشرفاء فأرسلوا لها أختها، التي حاولت خداعها، وأخرجتها من السجن بعدما تعهدت للقضاء بحمايتها، لهذا كانت فرحتها كبيرة لأنه سيخلى سبيلها في اليوم الثاني، لهذا رقصت ورقصت وأتحفت الحاضرين برقصها، في اليوم الثاني خرجت مع أختها، وعندما دخلتا المنزل رفعت الأخت المسدس وأطلقت عدة طلقات في رأس أختها فأردتها قتيلة، وبهذا غسلت عار العائلة، وفي المساء جاءت الأخت مكان الأخت الراقصة سجينة في سجن دوما.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

«عندما كتبت هذه الحلقة ضحكت كثيراً على الطريقة التي فككنا فيها الإضراب خجلاً من السجينات القضائيات»

إحدى وثلاثون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

وجاء شهر رمضان شهر الخير والبركة كنا ننتظره كل سنة من أجل الدعاء والتضرع إلى الله لينهي محنتنا وعذابنا وهذا أول رمضان أمضيه في سجن دوما. وفي أول يوم صمناه اجتمعت عدة أخوات لنصلي صلاة التراويح جماعة، واختاروني لأكون إمامتهم في الصلاة، ولم نكد نصلي عدة ركعات حتى توافدت السجينات القضائيات من جميع الغرف ليصلوا معنا، كان الكل متعطش ليعيش النفحات الإيمانية، ويغسل روحه وقلبه من أدران الحياة، وكان للصلاة والدعاء طعم آخر فالمحنة تكسر القلوب لخالقها وتقترب منه أكثر، ولم نكد نصلي عشرة أيام حتى أصابني وجع في الرأس شديد كنت أغالب الوجع وأستمر في الصلاة فخرجت لطبيب السجن فقال يلزمني عملية جراحية عاجلة للوزتين لقد كنت طوال السجن أعاني منهما معاناة كبيرة حتى بدأتا تشكلان خطورة على حياتي، وكان الأمن يرفض إجراء العملية ويعتبرونها ثانوية، أما الآن فالأمر مختلف، وأرسل ضابط السجن التقرير للمخابرات وخلال أربع وعشرون ساعة جاء الرد بالموافقة، ولكني طلبت تأجيلها لنهاية شهر رمضان كي لا تضيع فرصة للدعاء والتضرع إلى الله.

وجاء العيد ككل الأعياد وانتهت العطلة وحددوا لي يوم العملية، ذهبت لمشفى دوما برفقة الضابط رئيس السجن وسجانة السجن العجوز، وأعلم الضابط الأطباء أني سجينة سياسية، كان الخوف يسيطر عليه من احتمال هروبي، أو أن أجد من يساعدني على الهرب، جلست على كرسي في إحدى الغرف وكنت أرقب المرضى وبرفقتهم ذويهم، نظرت حولي فرأيت رجلاً غريباً يتملكه الخوف على نفسه لا خوفاً علي، وتساعده في ذلك امرأة عجوز لا تبالي بشيء فأجهشت بالبكاء، ولم يستطع أحد أن يوقفني، حتى أنا لم أستطع السيطرة على نفسي، وجاء دوري لإجراء العملية، ولكني مازلت بهذا الوضع النفسي السيئ، استجمعت كل ما بي من إيمان وعزيمة لأوقف هذا الإنهيار الذي أصابني، وكنت أتضرع إلى الله أن يرحمني ويخلصني من هذا العذاب الذي أنا فيه، وبين الرجاء أن يشفيني ويردني سالمة لأهلي وأولادي كان هذا يزيدني بكاءً وألماً، فماذا لو اختارني الله لجواره، كيف سيكون شعور والدي وأولادي عندما يعلمون أني مت غريبة مريضة سجينة في مشفى؟ فأزداد بكاء أكثر وجاءت ممرضة وقالت للضابط لا يمكن إجراء العملية وهي بهذا الوضع النفسي السيئ فدقات القلب متسارعة، حاولوا تهدأتي وكنت أحرص منهم على ذلك، وأخيراً والحمد لله استطعت السيطرة على نفسي ودخلت غرفة العمليات وتشهدت ولم يكد الطبيب يسألني عدة أسئلة حتى كنت أغط في نوم عميق.

وبعد ساعات استقظت ورأيت ضابط السجن فوق رأسي والسجانة والمرضين يحاولون إنعاشي ويتساءلون لماذا لم أصح من المخدر. سألني الضابط بعد دقائق من إنعاشي هل تودين البقاء هنا أم الرجوع للسجن؟ قلت له أود الرجوع. فهناك أخواتي اللواتي ودعنني لباب السجن وهن يدعين الله أن أعود سالمة، وهكذا عدت ووجدتهن في انتظاري بقلق بالغ «رغيدة قطان وماجدة لحلح وهبة دباغ» ومن الغريب أن الأطباء لم يصفوا لي وصفة ولم يعطوني أي دواء بعد العملية، فكانت الأخوات يجمعن لي حبوب الدواء من جميع السجينات كل حبة نوع وشكل ولون، واستمرت معاناتي فترة طويلة مع الألم حتى شفيت وخرجت من هذه المحنة بعافية أفضل وعزيمة أقوى وأشد.

وتمر الأيام والشهور كنت أحاول إشغال نفسي بالتركيز على حفظ القرآن وحياكة الصوف والتسكع بين السجينات القضائيات أسمع قصصهن وكانت أكثر قصة لم أستطع نسيانها إلى اليوم لامرأة في الأربعين لها من الأولاد عشرة، أما شكلها فلقد صدقت نظرية داروين فيها أن أصل الإنسان قرد، فهي لم يتطور شكلها من قبل التاريخ واحتفظت بتلك السلالة، كانت تقيم علاقة غير شرعية مع مختار القرية الرجل الجميل ذو المكانة الإجتماعية، واتفقت معه على قتل زوجها لا أدري أمن أجل أن يتزوجا أم أن الزوج المسكين رآهما بالخيانة فأرادا التخلص منه فقتلاه ورمياه بعيداً، وبدأت الزوجة تبحث عن زوجها واكتشفت الشرطة جثته واستشعروا أنها القاتلة،

وتحت التعذيب اعترفت بذلك، واعترفت على عشيقها. كنت أجلس في باحة السجن وأراقبها وأمعن النظر في عينيها وتظراتها وأتخيل ما نوع العاطفة التي كانت بينها وبين الرجل حتى تقتل زوجها وتغدر به وهي أم لعشرة أطفال؟ كانت تحمل بين يديها طفلة جميلة ولدتها في السجن، فلم أر لها أي مبرر لارتكاب جريمتها، فالمجرم لا تلزمه مبررات للقيام بجريمته، تسيطر عليه شهوات الدنيا على حساب غيره ولا يملك أي وازع ديني أو أخلاقي يمنعه من ارتكاب جريمته.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

حفظت الكثير من القصص والجرائم والمآسي الإنسانية التي يلزمها مجلدات لكتابتها، ولكني لم أحدثكم عنا نحن السجينات السياسيات، وسوف أبدأ بالحديث عن الأخوات:

عندما وصلت لسجن دوما أول شيء فاجأني هو تفرق الأخوات لمجموعات صغيرة، أكبر مجموعة كان عددها ثلاث لم أعتد طوال سجني على ذلك كنا مهما كبر العدد نكون يداً واحدة لها نظامها الذي يرسم حياتنا، وكل ما نحصل عليه من أغراض من الأهل هو ملك للجميع بدون استثناء مهما قل أو كثر، أما النقود فكل واحدة تحتفظ بما يأتيها، وتضع كل واحدة منا مبلغاً متساوياً في صندوق نشتري من هذا المال اللوازم للجميع، أما السجينة الجديدة فغير مطلوب منها دفع أي شيء حتى تأتيها زيارة، فيطبق عليها النظام كغيرها. والسجينة التي لا تملك نقوداً كافية فعند نفاد نقودها تكون غير ملزمة بدفع أي شيء، أما الأعمال فهي مقسمة ومنظمة بالعدل بين الجميع. لهذا عندما رأيت هذا التفرق حزنت أراه بين أخوات متدينات، فعرفت أن الالتزام الديني لا يكفي ليتوحد الناس، فهناك أمور أعظم وأكبر، فالصلاة والصيام لا يكفيان لإقامة مجتمع إسلامي متماسك يسوده الإيثار. وبعد الاستقصاء عرفت أن القوة والغلبة للبعض، وتغليب

المصالح الشخصية هي التي اضطرت السجينات للخروج من تحت سيطرة الدكتاتورية والأنانية، فلم تكن رابطة الدين ولا الدم ولا المناطقية هي من تجمع ولكن المصالح الدنيوية والأخلاقية هي العامل الأول الذي يجمع ويفرق، كنت أعيب على الجماعات الإسلامية تفرقها فمن كان غايته لله وجهاده لله لا أظن أن مصالح دنيوية تافهة يمكن أن تفرقهم، فمن كان عمله وجهاده خالصاً لله يجب أن يكون غير ما أرى هنا. قد تكون هذه نظرة مثالية، ولكن كان الوئام والوفاق والوحدة موجودة على أرض الواقع في يوم من الأيام وعصر من العصور، فالنظام والقوانين والعدل هي من تبني المجتمعات السليمة.

أما السجينات الشوعيات فكن مجموعة واحدة رغم وجودهن في غرفتين، كان هناك نظام صارم يحكم الجميع مادياً ومعنوياً هذا كان بالظاهر، وكان لهن كل أسبوع اجتماع يناقش الخلافات الحاصلة بينهن والأحداث والتعليق عليها، وكيف ينظر الحزب لتلك الأحداث، كن يحرصن على الاجتماع عندما تكون السجينات في الباحة، ولكني كنت أحرص على البقاء بفراشي لأسمع وأعرف كيف يفكرن ولأدخل لأعماقهن، والمضحك أنهن يحاولن إخفات صوتهن لئلا أسمع فهن يعرفن أني أتقصد البقاء لذلك، صحيح أنهن كن كتلة واحدة ولكن المشاكل تنخر تلك الكتلة. إلا أن إصرار مسؤولات الحزب ورفضهن رفضاً قاطعاً التفرق لمجموعات هو ما أبقاهن مجموعة واحدة، لكن كان هذا على حساب الراحة النفسية لكل واحدة منهن، لقد كانت المادة هي من تجمعهن، وفي الواقع كن أيضاً مجموعات صغيرة، لا

يجتمعن إلا على طعام أو إجتماع حزبي، بصراحة لم يعجبني وضعهن أيضاً، فلا يمكن للمادة وحدها أن تجمع البشر، واكتشفت الطريق الثالث بينهما فالنظام العادل والأخلاقي مع احترام الخصوصية للفرد والحفاظ على الروح الجماعية قد تكون أسساً صحيحة لبناء المجتمعات بشكل سوي يحفظ للفرد حقوقه وللمجتمع حقوقه.

قد يكون تحليلي هذا سطحياً، ولكننا استطعنا تنفيذه على أرض الواقع طوال سنين عديدة مع الأخوات عندما كنت في سجن حلب، وحتى أثناء وجودي في دوما مع المجموعة التي انضممت إليها، فكنا من جميع المحافظات والأعمار «أم حسان وابنتيها سلوى حشيش وابنتها سمية الشامي المولودة الوحيدة بسجن تدمر ويسرى حشيش من حماة وهدى قلعة جي وهلال أبو النصر من دمشق وفاطمة مرعي من اللاذقية وأنا من مدينة حلب» استطعنا أن نحافظ على وحدة المجموعة بالنظام والمحبة والإيثار. لا يمكن أن أذكر وجودي بدوما ولا أذكر الأخت أم جابر «لقد نسيت اسمها للأسف» هي من منبج جاءت رهينة بدل زوجها التابع للبعث العراقي، كانت امرأة طيبة، كنت أحبها وكانت تحاول تعليمي اللهجة الرقاوية، ولكني فشلت في تعلمها داخل السجن وخارجه، فاللهجة الحلبية طاردة للهجات الأخرى. كم أتمنى أن أعرف عنها أي خبر وأطمئن على أحوالها، كان هناك تنوع كثير وشخصيات مؤثرة كن السبب في التفرق على ما يبدو، لكني لم أكن موجودة لأرى بنفسي وأحكم، لهذا آثرت عدم التعرض لذكرهن توخياً للعدل والمصداقية...

الثالثة والثلاثون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

جاءت إلى غرفتنا سجينة تابعة للبعث العراقي فلسطينية متزوجة من سوري من دير الزور، وكانت حاملاً، كنت أنتظر ولادتها بفارغ الصبر فحرماني من أولادي جعلني أفرغ تلك الشحنة العاطفية بأي طفل أراه، وكانت المفاجأة بأن ولدت توأمين أسمتهما أحمد ومحمد، كانت فرحتي بهما كبيرة فكنت كالجدة ولو أني لست بعمر الجدات. كنت أساعدها في تربيتهما وأحببتهما حباً جماً وأفرغت كل عواطفي في محبتهما لقد أصبحا الآن رجلين، كم أتمنى رؤيتهما. هل أصبحا ثواراً ومجاهدين أم ماذا؟

وفي أحد الأيام كنت أجهز لأستحم فكنا إذا أردنا أن نغتسل غير يوم الحمام المحدد نشعل بابور الكاز في التواليت، ونضع غطاء برميل حديدي على سطحه ونستحم. في ذلك اليوم كنت أريد أن أغسل الطفلين كانت سعادتي لا توصف وأنا أحمل الطفل الأول وأغسل رأسه الصغير وجسده الطري وهو ينظر إلي بعينيه البريئتين يتوسل إلي أن أنهي هذا الحمام، ويعلنها علي ثورة بصراخه، وبعدما أنهيت حمامه وأعطيته لأمه كي تلبسه ثيابه جانب المدفأة بدأت بتحضير الماء للطفل الثاني، وإذ برجلي تنزلق بين حفرة التواليت والغطاء الحديدي واقتطع الغطاء الحديد قطعة لحم من قدمي بان فيها عظم رجلي. أسرعت رفيقاتي في الغرفة وأخرجنني

وتمددت ورفعوا لي قدمي لإيقاف النزف. وبدأت السجينات يطرقن باب الغرفة ولكن الشرطة لم تلق بالاً للطرق وقامت جميع السجينات من جميع الغرف بطرق الأبواب لأنها كانت مقفلة وجاء عنصر من عناصر الشرطة وقالوا له يلزمها ذهاب للمشفى فالجرح عميق والآلة الحاده مجرثمة ولكنه ذهب وعاد بعد فترة طويلة ومعه ممرض، كان جسدي يرتجف من ثيابي المبللة ومن ألم الجرح وبدأ خياطة الجرح بدون معقم ولا مخدر كان يخيطه وكأنه يرقع ثوباً فيشد الجلد من الأعلى والجلد من الأسفل ويخيط كنت أصرخ من الألم الجسدي والروحي فنحن لا قيمة لنا بين البشر، حتى الحيوان في البلاد المتحضرة في مثل هذا الموقف يعاملونه أفضل منا، وانتهى من خياطة الجرح وذهب فتورمت قدمي بصورة كبيرة، ولم أكن أستطيع الذهاب لقضاء الحاجة إلا بمساعدة الأخوات، فكن يجمعن لي حبوب الالتهاب، كن يسمينني أم المصائب، لا أدري هل المصائب من صنع أيدينا فنحاول تفاديها أم قدر من الله نصبر ونحتسب الأجر عنده؟ أم أن الاثنين معاً؟ عندما أذكر تلك الحادثة أحمد الله تعالى أن شافاني. كان ممكن للحالة التي وصلت إليها أن يضطر الأطباء لبتر قدمي، كنت أقول للأخوات مازحة لا تخافوا علي فأنا مثل القطط بسبع أرواح فنضحك جميعنا ونبلع الألم بغصة وحرقة. استغرق شفائي عدة أسابيع وقد أحاطتني الأخوات بكل رعاية وعناية ومحبة فكان حزنهن على قعودي أكبر من حزنهن على ألمي، والحمد تماثلت للشفاء وعدت كما كنت أبحث عن شيء أفتقده ولا أعرفه إنه المعرفة بطبائع البشر وسبب انحرافهم ودور الأسرة والمجتمع في ذلك.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

الرابعة والثلاثون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

مضت الشهور والأيام اليوم مثل الآخر ولو باختلاف بسيط، وفي عصر يوم خريفي من أيام شهر تشرين جاء لزيارتي أحد إخوتي من مدينة حلب، ولكنهم لم يسمحوا له برؤيتي، فقط سمحوا بإدخال الأغراض، وخلال وجوده على باب السجن جاءت دورية من الفرع لاستدعائنا أنا وجميع الأخوات للفرع، جهزنا أغراضنا وكان في انتظارنا سيارة مغلقة ينقلون السجناء فيها، كان فرحنا ممزوجاً بالقلق، كنت السجينة الوحيدة غير المحكومة من بين الأخوات، لقد كانت أحكامهنّ تتراوح بين خمس سنوات وعشرين عاماً وكنت قد أمضيت تسع سنوات بدون محاكمة، ركبنا سيارة السجن كان لها نوافذ حديدية، لقد رآني أخي من بعيد وأنا أركب السيارة وأذهب لمصيرٍ مجهول، فحطّم كل الأشياء التي يحملها وإلى الآن يقول لم أنسَ ولن أنسى تلك اللحظة التي رأيتك فيها وأنت تركبين سيارة ينقل فيها المجرمون والمجرمات.

اتجهت السيارة بنا نحو دمشق لفرع التحقيق العسكري. كنا ثلاثين سجينة وضعونا في غرفة واحدة لم تتسع لنا جميعنا، فبقيت عدة أخوات لا مكان لهنّ للنوم، كنت أنا وثلاثة من الأخوات نتحدث ونامت الأخريات

قبلنا، فلم يبق لنا مكان لننام فيه، فبقينا نتكلم بصوت خافت وإذ بإحدى الأخوات من إحدى الزوايا يعلو شخيرها فتجيبها من الجهة الأخرى أخت بشخير يماثله ويعلو عليه، كانت سيمفونية رائعة، كنا نضحك بصوت عالٍ ولا نستطيع السيطرة على أنفسنا وإذ بإحدى الأخوات التي علا شخيرها تستيقظ فجأة ورأتنا ونحن نضحك لذلك، فعنفتنا بشدة ووصفتنا بأبشع الأوصاف، لقد كنا نستأهل ذلك الشتم ولكني لا أستطيع نقل الصورة فنحن نتكور بجانب بعضنا قرب الحمام، وسيمفونية الشخير تعزف، فلم نتمالك أنفسنا من الضحك، لا أدري أهي صاحبة الحق أم نحن؟؟ وفي اليوم التالي طلبنا من الضابط نقلنا لغرفة أكبر، فقال: إن هذه الغرفة نضع فيها سبعين رجلاً وأنتن لا تتسع لكن؟؟

ورفض طلبنا، وبعد عدة أيام أصبحوا يستدعوننا الواحدة تلو الأخرى لمقابلة رئيس الفرع، كان رئيس الفرع «كمال يوسف» مسيحي من الساحل ومحسن خليل» علوي لا أدري من أي محافظة هو.

كان «حسن خليل» يشتم كل سجينة بأبشع وأوسخ الألفاظ فهو «يعبر عن نفسه وذاته» وكان شتمه متفاوتاً بين سجينة وأخرى، وجاء دوري وأدخلوني لمقابلتهم معصوبة العينين وكانت هذه أول مرة توضع العصابة على عيني، جلست على كرسي بعيد عن طاولة رئيس الفرع، أما «حسن خليل» فكان تارة يجلس وتارة يسير بالغرفة ويدور حولي، قال لي: ارفعي عن عينيك العصابة، ورأيت أشكالهم لأول مرة. قال لي حسن خليل ساخراً وهو يلتفت

لكمال يوسف «رهينة» وضحكوا، «رهينة لشخص ميت» وبدؤوا بشتم زوجي وسألوني عدة أسئلة لم أعد أذكر عن ماذا ولكن السؤال الوحيد الذي اختصوني به دون غيري، هل كنت تتناقشين مع الشوعيات؟؟ أنكرت ذلك وعرفت أن تقارير من السجن تذهب إليهم، فالتفت أحدهم إلى الآخر قائلاً: لمن سنسلمها ؟؟ فاتصلوا بمصطفى التاجر رئيس الفرع العسكري وسألوه، التفت إليّ وقال: هل صحيح أنك زغردتي يوم قُتل بشير حماد، تفاجأت من هذا السؤال وجاوبته بحدة لا والله لماذا أزغرد؟ قال لأنه استشهد، هل تحلفين على القرآن؟ قلت: نعم أحلف، وجاء بمصحف وقال: احلفي، وضعت يدي على المصحف وحلفت بأني لم أفعل، نظر أحدهما للآخر ومن نظرتهما عرفت أنهما لم يصدقا كلام مصطفى التاجر وقال لي: سننظر في صدقك أو كذبك .

لقد كان كل الشتم من نصيب زوجي فهو الذي حمل عني كلّ العبء، خرجت من الغرفة وعرفت أن خيوط مؤامرة تحاك من خلفي وشعرت أن الأمل بالخروج من السجن انكسر بداخلي وحلّ محله خوف وقلق ويأس من الآتي.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام ...

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

بعد أن انتهى كمال يوسف وحسن خليل من مقابلة جميع النساء، أرسلوهن كل إلى مدينتها، وكنت من بين الأخوات اللواتي عدن إلى مدينة حلب، وصلنا للفرع العسكري وأجلسونا في غرف العناصر وليس السجن، واستدعونا جميعاً لمقابلة مصطفى التاجر، دخلنا لغرفته، كان قد ازداد ضخامة منذ رؤيتي له أول مرة، كان يرافقنا العميد خالد العلي وقال: سيخلى سبيلكنّ. ثم ألقوا علينا محاضرة معهودة وعند خروجنا من باب الغرفة أشار مصطفى التاجر إليّ وقال للعميد من هذه؟؟ قال له: سيدي هذه عزيزة ألم تعرفها، رمقني بنظرة من أعلى رأسي لأسفل قدمي، كنت ألبس عباءة كحلية تخفي كل معالم الجسم وأضع غطاء أسود وجورباً أسود وحذاءً أسود، يبدو أنه لم يعجبه لباسي فالسجن لم يكسرني ويبعدني عن ديني، والتقت نظراتي بنظراته، لقد فهمت منها أنه لم يشبع حقده مني وخرجنا من عنده وقلت للأخوات: الله يسترني من مصطفى التاجر، قلن لي: لا علاقة له ما زال العفو من رئيس الجمهورية، وخرجت الأخوات متتاليات وبقيت مرة أخرى وحيدة، لا أعرف عدد المرات التي حصل معي ذلك، كان أهلي عند سماعهم بالعفو ومجيئنا لحلب يحضرون لخروجي والأمل يحدوهم في ذلك وفرح

عارم عمّ الجميع ولكن بعد خروج آخر أخت فقدوا الأمل وعرف والدي أن محنتنا أكبر من الكل، لم يذق أحد الطعام ورموه بحاوية الأوساخ وبات والدي يجلس على رصيف الشارع لمنتصف الليل، وخيّم الحزن والقهر على أهلي وأولادي وعلى أثر تلك الصدمة أصيب والدي بالسكري وارتفاع الضغط ونقل لأحد المشافي، أما والدتي فكان حزنها كأنني اعتقلت اليوم، وأولادي هم إلى اليوم لا يستطيعون ذكر تلك الأيام إلا وينتابهم حزن وبكاء وألم وقهر، في تلك الأثناء شعروا بحقد كبير على والدهم لماذا ترك أمهم ولم يفكر بمصيرها؟؟ كان هذا ليس من أجلهم ولكن من أجلي أنا، لقد استطاع هؤلاء المجرمون أن يغيروا الرأي لصالحهم، لم يكن شعوري مثل أطفالي فحقدي على هؤلاء الظلمة وليس على الشهيد، فهو ضحى بحياته قبل غيره ولا أغلى من الحياة على الإنسان، مرّ شهر وشهران وثلاثة وأنا أقبع وحيدة في غرفة للعناصر، طلبت مقابلة العميد عدة مرات، وافق أخيراً فسألته لماذا أنا؟؟ وإلى متى؟؟ ولماذا أرسلتموني لدمشق ولم تحاكموني، فقال: إذا سألتك تقولين الصدق؟ قلت: نعم. قال: هل صحيح أنك زغردتي عندما قتل بشير حماد، قلت: لقد سألني حسن خليل، والله لم يحصل هذا، كنت أرى بعيونهم أنهم جميعهم يصدقوني ويعرفون أن مصطفى التاجر كاذب وحقير، لقد ابتدع تلك الكذبة ليبقيني في السجن، قلت له: اسألوا السجناء اسألوا العناصر، من سمع أني زغردت، سكت العميد ولم يجبني بشيء، رجعت لغرفتي وبكيت إلى ما شاء الله، لقد مضى على وجودي ثلاثة

أشهر بدون استحمام فلا وجود للماء الساخن في المكان ونحن بأواخر شهر كانون الثاني وأصبت بالجرب، لقد نقلت لي الأخت الأخيرة التي جاءت من دمشق المرض فهي خرجت وأنا أصبت به وأصبح أهلي كل يوم يأتون لي بالملابس النظيفة ويأخذون الثياب المتسخة بالدواء، وكل يوم أدخل دورة المياه وأقفل الباب وأستحم بالماء المثلج، بقيت خمسة أشهر لم أعد أحتمل حياة الفروع فلا وجود في الغرفة لدورة مياه ولا حمام، وبدأت إضراباً عن الطعام وأطرق الباب إما أن يخرجوني لمكان آخر أو أبقى على هذا الحال، لم تعد تهمني النتائج، بقيت طوال اليوم وأنا أطرق الباب وفي المساء قالوا لي: جهزي أغراضك ورجعت لسجن المسلمية وللغرفة التي خرجت منها من ثلاث سنوات، ومازالت الشظايا على جدرانها وآثار الدماء القديمة ملطخة بها، مازال السجناء هم أنفسهم والسجانون أيضاً وأرسلت إلى السجناء أسألهم من منكم سمع أني زغردت، تفاجأ الجميع بهذا السؤال وكذلك السجانون، أيقنت عندها أن مصطفى التاجر هو المجرم الوحيد في ذلك، كان كل السجانين متعاطفين معي، كانوا يقولون إن مصطفى التاجر تركني في لسجن ليكسر معنوياتي فأذهب إليه راجية مستعطفة فيطلب مني شرفي، كان الجميع يهمسون ذلك بسرية تامة وطلب مني أحدهم أن أحذر من ذلك.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

استطعت أن أخرج من تلك المحنة وأعيد توازني وتماسكي فالمصيبة هزت أركاني بعمق وعشت بيأس قاتل ولكن الله أمدني بالصبر وخرجت منها سليمة، حاولت أن أقتل الوقت بقراءة الكتب التي يجلبها لي السجين الذي يوزع الطعام من السجناء الشوعيين ومن سجناء البعث العراقي فكان الأمن السياسي يسمح لسجنائه بالكتب ليس كالأمن العسكري، وفي أحد الأيام اقترب من غرفتي خلسة عن السجانين سجين من سجناء السياسي متهم بالإنتماء للبعث العراقي وأعطاني أحد الكتب الإسلامية لئلا أجلب كتباً من الشوعيين وقال تفضلي ومتى انتهيتي من قراءته نرسل لك كتاباً آخر أعطاني الكتاب وبسرعة ذهب لئلا يراه سجانو الأمن العسكري لأن كل السجناء كانوا يخافونهم فتحت الكتاب لأقرأه فوجدت فيه ورقة مكتوب فيها الكثير من المديح والإطراء والآيات التي تصبرني وتشد من عزيمتي كانت كلماته تنم عن رجل متدين ومثقف وشاعر لم أكن أعرف من هو ولكني أعجبت بأسلوبه الشاعري وفرحت بأن هناك من يشعر بحزني وألمي ويواسيني، قرأت الكتاب وأرجعته مع الباحاتي « السجين الذي يوزع الطعام » كان قد كتب اسمه الأول بنهاية الورقة وبعد أيام أعاد الكرة واقترب من

غرفتي وأعطاني كتاباً آخر لم أشعر أبداً بسوء نية اتجاهه وخاصة أني سألت عنه الباحاتي فقال هذا شاب متدين جداً جاء إلى السجن باعتراف، لا علاقة له بذلك، ولا يؤمن بفكر البعث، وهو يختلف مع رفاقه في ذلك أثناء الحوارات، وكان يعيش منزوياً عن رفاقه، فتحت الكتاب فوجدت فيه وصايا من أخ متدين يغار ويخاف على أخته، فرحت بذلك الاهتمام وقدرت له حرصه وخوفه، وكنت كلما أنهيت كتاباً يرسل لي كتاباً آخر ويرسل معه بعض كلمات تواسيني وتشحذ همتي، كنت بحاجة شديدة لمن يقف معي لأني وصلت إلى أدنى درجات اليأس والحزن والقهر، فكان بشاعريته يجدد الأمل لي ويشحذ همتي، واستطعت بفضله أن أعود كسابق عهدي، وتطورت كلماته أكثر فأكثر مع طول الزمن ونال إعجابي وأشرقت بداخلي عاطفة نحوه، وكنت أكلم نفسي عنه وأقول لما لا فهو رجل متدين ومثقف وشاعر ومعجب بي، ولا يمكن لرجل مثله وهو سجين أن يحاول خداع امرأة أو يكذب عليها وهو المشهود له بالاستقامة والصدق. في البداية خفت من تلك العاطفة، وبدأت أرفض الكتب الآتية منه، وعرف أني أحاول قطع تلك الصلة لئلا تتطور أكثر، فسعى لحيلة جديدة يكتب ورقة ويجعلها بحجم كرة صغيرة وعندما تسنح له الفرصة ويمر من أمام غرفتي يرميها للداخل، لم أنتبه لذلك إلا عندما قمت بتنظيف الغرفة فرأيت الورقة وتعجبت فلا يوجد أحد معي في الغرفة ففتحتها وإذ بها رسالة طويلة منه، يتكلم فيها عن نفسه فهو من ريف حلب خريج كلية اللغة العربية يكبرني بقليل وهو يعرض علي أن

أكون زوجته في المستقبل، لم يفاجئني طلبه فلقد عرفت سابقاً من المديح، فهو ليس غزلاً ولكن أقل منه درجة، حاولت ألا أفكر بذلك فأنا يئست من الخروج من السجن في القريب ولست على استعداد لأتقبل أي صدمة جديدة، ولكن لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير به، لماذا لا فأنا مازلت شابة وأولادي يكبرون وتكبر معهم هوة كبيرة بيننا، كنت أشعر أني وأولادي أصبحنا متقاربين في السن «هذا شعور يعرفه كل من دخل السجن وترك أطفاله يكبرون في غيابه» وكأن العمر الذي نمضيه في السجن غير محسوب علينا، لأن الزمن يتوقف عند السجين منذ دخوله السجن. واستمر على تلك الحالة مدة غير قليلة يرمي لي الأوراق حتى بت أنتظرها ونشأت بداخلي عاطفة نحوه ولكن بخوف وحذر. وعندما نشبت حرب الخليج الأولى أرسل يسألني عن رأيي بها لقد كان يتشاجر مع رفاقه من أجل ذلك فكان رأيي موافقاً له وبعد تفكير طويل أعطيته موافقتي للزواج بعد الخروج من السجن وكلي ثقة ويقين أنه لن ينكث عهده، ولكن بعد ذلك بدأ يأمرني وينهاني وكأني أصبحت زوجته، هذا العنصر لا تكلميه، وهذا السجين لا تأخذي منه، ولاتأتي بالكتب من الشوعيين، ولا تخرجي من وراء الستار، كنت أقول له أنا سجينة ووحيدة لا يمكنني أن أنفذ ما تطلب، وشعرت أنه أصبح يضعني في سجن فوق سجني، وعندما رأى أني لا أمتثل لأوامره رمى لي رسالة ينعتني فيها بأقذر الأوصاف، والله لم يتجرأ المحققون والسجانة على شتمي بتلك الأوصاف، ولم أسمعها من أحد، كيف أكون أطهر النساء وأوسخها؟ وبأي

حق له عندي يطالبني بما لا طاقة لي بتنفيذه، رددت له الرسالة بما يستحق من رد، كانت صدمة كبيرة لي وبدأت أقارن بينه وبين السجان سابقاً، لقد كان السجان على استعداد أن يرمي بنفسه وأهله بالتهلكة من أجلي، رغم كل ذلك لم أثق به، كان ما حصل جرحاً عميقاً لن أنساه طوال حياتي، وبعد أيام عاد يرمي لي الأوراق وهب مليئة بالإعتذار، ولكني لست من النساء اللاتي يفرطن بكرامتهن، ويرضين الذل من أجل عاطفة، لقد سقط من عيني أيما سقطة، وشعرت أني وقعت بخديعة بعد أحد عشر عاماً من السجن لم يستطع خلالها أن يخدعني أي أحد، كان شعوراً أليماً وإلى الآن أعتبره نقطة سوداء في حياتي وذكرياتي، وأيقنت أن المرأة مهما كانت قوية يلزمها رجل يكون بجانبها حامياً وراعياً لها.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام

السابعة والثلاثون

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف والعصر والأوان لما كان تقول شهرزاد:

كنت أشعر أن جرحاً عميقاً وسجناً آخر حكم علي به، لقد أرسل لي رسائل عديدة يعتذر فيها ولم أعد أستطيع أن أخرج من تحت حكمه فطلبت من الضابط أن أخرج للتنفس في سجن النساء القضائيات فسمح لي بساعة أذهب لباحة النساء للتنفس ولكن العناصر كانوا متعاطفين معي فيأخذوني من الصباح حتى المغرب وبهذا ابتعدت عن جو السجن والسجانة والعناصر، صحيح أن النساء القضائيات بغالبيتهن منحرفات ولكن يبقى العيش بينهن أفضل لي من العيش بين الرجال وحيدة، كان الحزن والقهر واليأس يتملكني ولاشيء يمكن أن يخرجني منه، كنت أشعر أني أعوم في بحر الحياة دون ربان ولا مجاديف، بعيدة عن بر الأمان، لقد فقدت الثقة بكل من حولي، وبت أنظر بريبة لكل من يحاول أن يقدم لي أي مساعدة، كان شعوري بعدم الأمان يصيبني بانهيار عصبي، فأبكي ويسمع كل من حولي بكائي، وفي أحد الأيام استيقظت على حلم أعاد الله لي به الهدوء، رأيت أني في مدرسة وتوزع صحائف النتائج كانت صحيفتي بيضاء ومتفوقة وناجحة استبشرت بهذا الحلم خيراً وذهبت لسجن النساء كالعادة، رحبت بي صديقاتي وحكيت لهن الرؤيا وفسرن لي ذلك بأني سأخرج من السجن،

فرحت لهذا التعبير وأشرق في داخلي أمل كنت قد فقدته، وبعد لحظات وإذ بباب سجن النساء يطرق ورئيس المفرزة يستدعيني، خرجت إليه مسرعة وإذ بوجهه يتهلل فرحاً ويقول لي تعالي جهزي أغراضك إخلاء سبيل، لم أصدق في بداية الأمر، ولكن وجهه كان يجيب أكثر من لسانه، بدأت صديقاتي يزغردن، ودعتهن ولكني كنت خالية من أي شعور بالفرح أو الحزن، لقد حانت ساعة الحقيقة خرجت من سجن النساء ودخلت لغرفتي أنظر إلى جدرانها فهي تحوي بداخلها تسع سنين من عمري، سمعت أناتي وبكائي وفرحي كيف سأتركها وأترك سنين حياتي بين جنباتها، كنت أجهز أغراضي وأدور وأبحث بين الجدران على أشياء لا يمكن أن أجدها وأحدث نفسي لماذا أنا؟ وماذا استفادوا من قهري كل تلك السنين؟ وجاء السجان وفتح باب الغرفة وخرجت وأنا أودع السجن لأنه أصبح جزءاً مني، وأصبحت جزءاً منه، ورجعت للفرع ولكن الخوف الدفين الذي يعشعش بداخلي سيطر على الفرحة وجاء عنصر وأخذ عنوان أهلي ليستدعوا والدي لأني لا أعرف رقم هاتف أهلي الجديد، طرق العناصر باب البيت ولكنهم لم يجدوا أحداً في البيت طرقوا باب الجيران ولكن الجيران عرفوا أنهم عناصر مخابرات فلم يعطوهم جواباً ولكن بعد مغادرتهم ذهبت جارة أهلي مسرعة لمنزل أخي القريب وأعلموهم أن يذهب والدي للفرع، خيم جو من الفرح والخوف والقلق على أهلي قال لي أحد العناصر هل تعرفين عنواناً آخر لنذهب إليه؟ قلت لا أعرف فمن تزوج من إخوتي بغيابي لا أعرف أين يسكن وفي المساء جاء والدي، مهما حاولت أن أصف هذا الوجه الرصين الحزين القلق لا

أستطيع «اللهم اجعل كل عذاب لاقاه والدي ووالدتي في ميزان حسناتهما يوم القيامة» واستدعانا رئيس الفرع علي حمود وقال لي نحن لن نطلب منك أن تكتبي تقارير بالناس، نعرف أنك لن تفعلي، ولكن إذا جاء أحد يقدم لك مالاً نطلب منك أن تقولي لنا، ولن نأخذ المال وسوف نعطيك أكثر منه، وأوصى العناصر أن يوصلوني لبيت أهلي بسيارة الفرع، كان إخوتي ينتظروننا في سيارتهم على باب الفرع بقلق بالغ، ورأونا نخرج وساروا بسرعة جنونية وصلوا المنزل قبلنا، توقفت السيارة أمام عمارة أهلي كان كل الجيران على النوافذ والأبواب ينتظرون عودتي، صعدت الدرج ورأيت أمي مغمي عليها لا تصدق أني خرجت، لقد أكل الانتظار قلبها وأحرقه بنار الألم، أما أولادي فكانوا عند بيت جدتهم لحضور عرس أحد أعمامهم في مدينة الرقة، استقبلنا الأهل والجيران بالزغاريد والبكاء، كنت أنظر إلى الجميع وأقول لنفسي ما الذي يفرحهم كل هذا الفرح؟ وما الذي يبكيهم كل هذا البكاء؟ خرجت من السجن متبلدة المشاعر، وكأني في عالم آخر، أنظر في عيون الكل وأقرأ بها كل ما يريدون قوله. وفي آخر الليل وصل أولادي وأخي من مدينة الرقة، واستقبلتهم وأنا أمثل عليهم العاطفة، وشعرت أنهم يمثلون علي كذلك، هكذا شعرت فأنا تركت أولادي وأعمارهم خمس سنوات وأربع وثلاث، لقد أصبحت فردوس شابة وياسر رجلاً واسماعيل يافعاً، لم ننم تلك الليلة فخروجي من السجن عمل هزة كبيرة لكل العائلة، كيف سيتعامل الكل معي، وكيف سأعاملهم فالصغير كبر والكبير تزوج ولكني في داخلي أشعر أني مثلما كنت قبل سجني، أصبحت ابنتي تريد أن تعتني

بي وتلبسني وتسرح شعري، لأن جميع الناس سيأتون لرؤيتي، وهي تتباهى بأمها، كنت أرى أناساً يأتون للسلام علي لا أعرف أحداً منهم، حتى أهلي لا يعرفون من هم، فالكل يود رؤية هذه السجينة التي قضت أحد عشر عاماً في السجن. كان منزل والدي مفتوحاً على مصراعيه، والكل يدخل ويخرج والزغاريد والرقص والحلوى توزع، ولكني كنت في عالم آخر وفي دنيا غير دنياهم، لقد جاءت ساعة الحقيقية وأي حقيقة مؤلمة، كان شعور الهزيمة والانكسار يسيطر علي، حاولت أن أتصنع الفرحة ولكني لم أنجح، كنت أسمع النساء يتهامسن علي، ويقلن مسكينة لا بيت ولا زوج ولا أولاد، فمنذ ثلاثة أشهر أخذهم عمهم ليعشوا في بيت جدتهم، ويا ليته لم يأخذهم، لقد حاول أن يكون على قدر المسؤولية ولكنه لم يستطع ذلك، فكان ذهابهم نقمة لا نعمة عليهم، وامتحاناً لي ولهم.

بعد ذلك مضت عدة أيام وإذ بطارق يقف أمام باب المنزل المفتوح وإذ بالأخ السجين جاء لزيارة أهلي، رآني أحمل ابنة أخي الصغيرة استقبله والدي وأنا لم أصدق زيارته، شعرت أن زيارته ليثبت لي ولكل السجناء الذين كانوا معه أنه كان جاداً في طلبه، لم أصدق ولكني أردت أن يستمر بتمثيليته، وقال لوالدي سنزوركم مرة أخرى وفهم والدي ذلك وقلت له يطلبني للزواج، وتعرف على أخي وأصبح يزوره بين الحين والآخر ليقول له أحاول إقناع أهلي بالموافقة فكل أخوتي وأولادهم ضباط في الجيش والشرطة ولا أريد أن أتزوج بغير رضاهم ورضا والدتي، لا أعرف لماذا كنت على يقين أنه كاذب، ومازال رأيي فيه إلى الآن، ولكن ليخلي مسؤوليته أمامي ظاناً أني

من الممكن أن أصدق تلك التمثيلية السخيفة، وبعد خمسة أشهر خرج أخو الشهيد من سجن تدمر وطلبني للزواج، ومازال الأخ السجين يتردد على أخي يعلله بالزيارة، كنت أنتظر الزيارة لأقول له لست موافقة عليك، لأني لم أنسى بعد كلماتك واهانتك لي، كنت أشاركه التمثيلية كان يجب علي أن أختار زوجاً من بين ثلاثة، وتذكرت أستاذي ومعلمي حينما أوصاني صباح استشهاده قائلاً وموصياً كأب لا كزوج إذا استشهدت يجب أن تتزوجي فأنت مازلت صغيرة ولا أسامحك إن لم تكوني مخلصة لمن ستتزوجيه كما كنت مخلصة لي، وإن طلبك أحد إخوتي فأتمنى أن توافقي عليه، فهو أفضل من الغريب، ولكن يبقى الخيار لك في ذلك. عندها بكيت لوصيته، فقال لي سوف تنسين، وكان أخر يوم له في الحياة، وتزوجت أخا الشهيد، ولملنا شتات العائلتين وأسسنا عائلة ملأناها بالحب والصدق والوفاء للشهيد الرمز، فكلنا يعتبره رمزاً لا أخاً ولا زوجاً، فهو أكبر من ذلك بكثير، وأما الأخ السجين فبعد زيارات لأخي أدى واجبه وأقنع نفسه أنه صادق ولم يستغل سجينة وأن أهله السبب وليس هو، وبهذا أنهيت فصلاً من فصول حياتي راجية الله تعالى أن يكتب لي الأجر في ذلك ويغفر لي زلاتي إنه سميع مجيب.

ونام شهريار السجان وسكتت شهرزاد عن الكلام.

ولكن شهريار عاد لشهرزاد أخرى سوف تروي لنا لياليها الحزينة

كنا بثكنة هنانو وعددنا كبير ومعنا في الغرفة أطفال لا نستطيع النوم، وكنا نتكلم ونضحك لنمضي أيام سجننا، ولكن هذا كان يقلق السجانة ولايستطيعون النوم من الضوضاء، فيضرب السجان الباب، فنقول له هؤلاء الصغار لا ينامون ولا يتركوننا ننام، كان السجانة يعرفون أن كلامنا فيه جزء من الحقيقة ولكننا نكذب متعللين بالأطفال. وفي إحدى الليالي جاء السجان وقال وقسمنا لقسمين وهكذا أصبحنا في غرفتين، الأخت أم حسن وأطفالها الخمسة في غرفة، وأنا وصفيري وعدة أخوات في غرفة، ولكن الأمر لم ينتهِ بتوزيعنا على غرفتين، فقد كان صوت صفيري اسماعيل يضحك ويصرخ عندما يسمع صوت أطفال الأخت أم حسن في الغرفة الأخرى، لأنه متعود عليهم، والطفلة سمية أخته بالرضاعة، ونضحك نحن من الغرفتين حتى أصاب السجانة هيستيريا منا، اتفقنا أنه عندما ينام السجان وفي أول نومه تطرق إحدانا الباب من أجل إخراج أحد الأطفال للحمام، فالطفل لايعرف الإنتظار لموعد الخروج لقضاء الحاجة، ويضطر السجان للاستيقاظ ليفتح الباب ونتركه حتى ينام ثم تقوم الأخرى بطرق الباب وهكذا كل ليلة. كان هدفنا هو أن نشعرهم بثقل وجود الأطفال في السجن، وبالفعل أخذ السجانة يطلبون من الضباط ويقولون أرسلوا لنا مئة رجل سجين ولا نريد طفلاً واحداً، وفي أحد الأيام جاء السجان وقال

للأخت أم حسن تفضلي واخرجي أنت وأطفالك من باب السجن، أخرجوها دون الرجوع للفرع، وأعطوها إجرة تاكسي لأنه لا يوجد لديها مال، وهكذا خرجت أم حسن هي وأطفالها الخمسة من السجن. كان فرحنا عظيماً لخروجها، صحيح أن طفلي بقي وحيداً، لكنه لم يترك الضحك والشغب، وألقى الله محبته في قلوب السجانة فكانوا لايرون في شغبه مشكلة.

من الأساليب التي اتبعها النظام مع عائلات المجاهدين والشهداء والملاحقين أنه قام بمصادرة بيوتهم بما فيها وترك العائلات مشردة بلا مأوى، وصادر أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، وكان يستدعون العائلات ليحققوا معهم، ويسألونهم من يقوم بالإنفاق عليكم، يحاربونهم بلقمة عيشهم، كأنه يجب أن يموتوا جوعاً. هكذا كان النظام.

كان العقيد رئيس الفرع العسكري بالرقة يستدعي والدة زوجي وأطفالها ويسألها من يقوم بإعالتكم وعندما يذهب أولادي في الصيف لزيارة جدتهم كان يستدعيهم ويحقق معهم لعنه الله وأخزاه في الدنيا والآخرة، يفعل هذا ليخيف الناس كي لا يساعدهم أحد وبالفعل يخاف الناس حتى من الاقتراب إلى البيت لا للزيارة، ولكن يبقى هناك أناس خيرون يحاولون في الليل وضع بعض المساعدات على باب البيت دون أن يراهم أحد.

لم تقم جماعة الإخوان بواجبها اتجاه أبناء شهداء الجماعة لا أقول شهداء الطليعة فهم قد تبرؤوا منهم ولا يتحملون وزر أعمالهم ولكن عائلات المعتقلين والشهداء ألم يكن واجبهم أن يقوموا بمساعدتهم؟ وهناك ألف طريقة مثلما كان يفعل الطيبون لمساعدة اليتامى والأرامل وعائلات المعتقلين، كانوا كفوهم ذل السؤال والجوع والحرمان ولما رأيت الآن نار الحقد عليهم من هؤلاء.

أقول هذا لئلا تتكرر مأساة الثمانين ويظهر عندنا أجيالاً تكره التضحية والجهاد أو تحقد على القادة والجماعات والأحزاب.

قد يقول قائل القادة في الغربة لا يملكون من أمرهم شيئاً، قد يكون هذا صحيحاً لبعض الأشخاص ولكن ليس بحق الآخرين، فأخبار الإسراف والتبذير كانت تصل للداخل، وليس زوراً أو بهتاناً وعليهم ألف شاهد ودليل.

ما حدث في الثمانين يندى له جبين الإنسانية، ووصمة عار يجب أن تسجل على هذا النظام المجرم الذي حاول بكل جبروته أن يحطم جيلاً كاملاً من أبناء الشهداء والمعتقلين، وعار أيضاً على كل من بيده أن يساعد ولكنه قصر، وسوف يحاسبه الله على هذا التقصير.

حدث هذا في كل سوريا.

بما أن قصصي الأولى «من حدث بالثمانين» كانت مؤلمة جداً أحببت الآن أن أخفف عنكم بسرد قصص مضحكات في ظاهرها ولكنها في الحقيقة مبكيات.

عاقبنا الفرع فمنع عنا الزيارات لأن الشكاوى كثرت علينا بسبب الضوضاء والتذمر من كل شيء وانقطع شريان الحياة عنا وبدأنا نعاني نقصاً في كل حاجياتنا وبقينا على هذه الحال ثلاثة أشهر، ولكن بما أن أخي كان طبيباً في مشفى الرازي أصبح طبيب كل عائلات وعشيرة ضابط وعناصر الأمن العسكري، وكان مقابل خدماته يساعد في إخراج ورقة زيارة أو في كثير من الأحيان حسب الخدمة التي يقدمها، المهم جاء أهلي لزيارتي وهم يحملون حاجيات تكفي للجميع، كنا كل ساعة نضع نوعاً من الطعام ونأكل وبقينا طوال اليوم ونحن على هذه الحالة، كأن جوعاً قديماً نعانيه لا تكفيه وجبة ولا وجبتين أو أننا مثل الأطفال فرحنا لوجود أنواع كثيرة من الطعام، ولكن لم نحسب العواقب الوخيمة لهذا، وفي المساء ظهرت النتائج كل لحظة تطرق إحدانا الباب لتخرج للحمام والسجان يصرخ ويكفر ويطرق الباب لقد أمضينا ليلة من أسوأ الليالي التي مرت علينا وعلى السجانين وبعد يومين جاء السجان وأخذ كل الطعام الموجود في الغرفة ورماه في برميل الأوساخ.

أدخلوها لغرفة رئيس الفرع العسكري بحلب لعند مصطفى التاجر وأغلقت الأبواب، كان يجلس وراء طاولته ويسألها وإذ به يقوم كالوحش المفترس ويبدأ بخلع ملابسه أمامها وهي خائفة ترتجف وتستعطفه، ولكنه أصر إما أن تقول ما يريد أو أنه سيغتصبها انكبت على يديه تقبلهما فهي فتاة ولا تملك المعلومات التي يطلبها، وهددها بأنها مهما صرخت فلن يدخل أحد لنجدتها فسكتت لتواري فضيحتها، ووقعت بيد المجرم المفترس ولكنه خاف الفضيحة، أو أنه شاذ، فقام باغتصابها لواطة ولم يفض عذريتها. (حدث هذا بفرع حلب العسكري لإحدى الفتيات المعتقلات)

من المشاكل التي كانت من نتائج ثورة الثمانين وجود النساء اللواتي اعتقل أزواجهن ومازلن في مقتبل العمر لقد انتظرت هذه النساء عشرات السنين خروج أزواجهن من المعتقلات ولكن لم يحصل ذلك ففكرن بالزواج لأن المرأة لها عمر محدود للإنجاب وقد يكون لديها طفل واحد وحتى في كثير من الحالات لا يوجد، لكنها كانت محاربة من أهل الزوج ومن المجتمع لأنها تريد الزواج ولا تريد انتظار زوجها ليخرج من السجن، كانت بنظر المجتمع امرأة لا تعرف وداً أو إخلاصاً، وعانت الأمرين في ذلك لو كان شهيداً كانت في حال أفضل، منهن من لم تستطع أن تواجه المجتمع بمثل هذا الطلب وبقيت إلى الآن تنتظر الغائب الذي لن يعود، ومنهن من انتظرت حتى فاتها قطار الإنجاب ولما خرج هذا الزوج طلب حقه في أن يكون له أولاد فبادلها الإخلاص بالنكران وتزوج هو وأنجب، بينما بقيت هي دون أطفال أو بطفل واحد، ومنهن من طلبت الطلاق من القاضي وحصلت عليه وتزوجت، وأرى أن هذه المرأة هي العاقلة، فعندما يخرج السجين بإمكانه أن يتزوج من يشاء ويعوض تلك الخسارة. هذا على صعيد الأزواج المعتقلين. أما عن زوجات الشهداء فكانت المصيبة أصغر فمن فضلت البقاء دون زواج آخر وربت أطفالها ولكنها عانت مرارة الفقر والذل وتدخل الأعمام والأجداد في كل صغيرة وكبيرة في حياتها لتصل حد الظلم في الكثير من الأحيان، ومنهن من تزوجت قريباً للزوج يرعى الأطفال ويرعاها، ومنهن من تركت الأطفال في رعاية الأجداد أو الأعمام وعانى الأطفال من الحرمان العاطفي والكثير

من الظلم والتعسف والوالدة ذهبت لتعيش حياتها الشخصية وتركت أطفالها، كما كان الناس يحاضرون بأطفالها ليلاً ونهاراً .

وهناك من سيطر على أموال المعتقل، (سواء أبوه أو أخوه) بحجة الحفاظ عليها حتى خروجه، ورمى بالفتات للزوجة والأطفال ليعشوا به، وهم يرون مال أبيهم ينفق هكذا ويعمل به مشاريع لا تعود عليهم بنفع، ويرون غيرهم يتنعم بها فتشتعل نار الحقد في قلوبهم الصغيرة المعذبة المحرومة.

ومن العائلات من رضي بابنته تعود إليه ولكنه لم يرض أن يربي أطفالها فرماهم لبيت جدهم من أبيهم، ومن عائلات الشهداء من اقتسم الأطفال مناصفة أو اختياراً كل طفل تربى في بيت أحد الأعمام أو الأجداد أو الأخوال، ومنهم من وضع الأطفال في دار للأيتام ورفض تربية أولاد أخيه أو أخته، ومنهم من طردهم في الشارع لمصير مجهول يتكفل الله بهم.

لقد نشأت مشاكل اجتماعية كبيرة وخطيرة في المجتمع لأنه لم يوجد أحد يساعد على حلها، بل كان النظام يساعد في تفاقمها لأنه لم يصرح بأسماء الشهداء المعتقلين لديه، وإلى الآن ترك الأمر طي الكتمان، ولأن النظام حارب الناس في لقمة عيشهم ليجعل جيلاً كاملاً منحرفاً كما كان يتمنى أن يراهم، ولكنه خاب وخسر في ذلك. منذ يومين كلمتني إحدى الصديقات على الفيس وهي ابنة أحد المعتقلين إلى الآن هي تنتظر رجوع والدها من السجن.

من أجل عيون أطفال الشهداء والمعتقلين يجب أن تنتصر الثورة لأننا تعلمنا من نكسة ثورتنا أنه مهما كانت تضحياتنا لننتصر ولكنها تبقى أقل إن خسرناها. حدث ذلك في كل سوريا

كنا بثكنة هنانو ولاوجود لحمام في الغرفة ويسمح لنا بطهي الطعام، كانوا يقدمون لنا طعاماً عسكرياً «الذي يقدم للجيش» فكنا نأكل منه لنسد جوعنا فقط، فكرنا بطريقة لتزداد قابليتنا لتناول هذا الطعام فقالت إحدانا يوجد بين أشياء العناصر بصل يابس ما رأيكم أن نسرق كم بصلة؟ منا من وافقت ومنا من رفضت، المهم غالبيتنا وافقنا وعند خروجنا للحمام استطعنا سرقة بصلتين صغيرتين جداً، وجاءت الأخت اللصة وهي تضحك ونحن نضحك معها، وعند الغداء أخرجنا الخروفين وذبحناهما واقتسمناهما، كل واحدة لها قطعة بحجم رأس الإبهام، لقد ساعدنا ذلك على تناول الطعام وأصبحنا كلما خرجنا للحمام تسرق إحدانا بصلة، واكتشف أحد السجانين أننا نقوم بأمر ما ولكن ما هو؟؟ دخل غرفتنا فرآنا نضحك وننظر لبعضنا وعيوننا تقول هل اكتشف سرقتنا؟؟

سألنا لماذا تضحكن؟ قلنا لا شيء وأصبح يضحك معنا لضحكنا من دون أن يعلم ما الأمر، ولكنه أصر وقال سأبقى واقفاً هنا حتى تقولن ما الأمر، ومن أجل أن يخرج ولايبقى واقفاً في غرفتنا قلنا له سرقنا بصلات من بين أغراضكم، قال بصلات؟؟ لماذا لم تطلبن مني ذلك؟ قلنا له متعلات السرقة أطيب. وهكذا تعودنا في كل وجبة طعام نسرق بصلة! لو ترون حجم تلك البصلة لقلتم حرام عليكن أن تصبحن لصات من أجل تلك البصلة، ولكننا كنا نضربها بكف يدنا ونتقاسمها ويشع الفرح والضحك بعد كل سرقة.

حدث هذا الآن على خلفية كتابة ((حدث أيام الثمانين))

هناك من أرسل لي رسالة يرجوني أن أمتنع عن كتابة هذه الذكريات فهي تؤلم الجميع وتبكيهم.

ما المانع أن نبكي الآن على هؤلاء المساكين الذين ابتلعوا جروحهم وآلامهم بصمت ولم يشعر بهم أحد؟

قال الأخ قد يقرأ هؤلاء ما أكتب وأنكأ جروحهم.

وجهة نظر أحترمها وفيها شيء من الحقيقة. ولكن عندما يعرفون أن هناك من لم ينس تلك الآلام ويسطرها للتاريخ وللعبرة فسيكونون في فرح وغبطة ولو أن أسماءهم لم تذكر.

وهناك أمر آخر لم يلتفت إليه أحد، أنا صاحبة كل تلك الذكريات نسيت والله الكثير من ذكرياتي الشخصية ولكن بقيت محتفظة بتلك الذكريات، ولقد حان الوقت لأخفف عني هذا الحمل الثقيل، وأحملكم بعضاً منه.

عشرات السنين وأنا أحمله ولقد تعبت من حمله. إن مسؤولية نشر تلك الأحداث مسؤولية تقع على عاتق كل من يقرأها لتكون عبرة. لأن الثورة إذا لم تنجح لا قدر الله فستكون النتائج وخيمة على عدة أجيال قادمة، وسوف تلعننا جميع هذه الأجيال، كما تحمل الآن الأجيال الماضية الجيل الذي خذل المجاهدين الأوائل المسؤولية. أقول للأخ صبراً يا أخي على الجراح والألم فالغاية نبيلة وهامة.

المكان سجن ثكنة هنانو، اليوم للتحقيقات، كان المحقق «لم أعد أذكر اسمه» يخرج الشباب ويحقق معهم، كنا نسمع أن اخلع ملابسك، كنا نظن أنهم يتركوهم عراة إلا من ملابسهم الداخلية، لكني طرقت الباب لأن طفلي الصغير يبكي وأريد ماءً، فوعاء المال سكبه على الأرض. لم يفتح لي أحد الباب ولم أسمع صوت أحد، وظننت أن التحقيقات انتهت وقفت أنظر من بين ثقوب النافذة الصغيرة وإذ بأحد الشباب عارٍ تماماً من كل لباس، يقف أمام المحقق وهو يكتب وينظر إليه، كان موقفاً يدمي القلب وارتميت على الأرض وأنا أبكي لذلك الإذلال الذي وصل إليه شبابنا، أقول بصوت خافت سامحني يا أخي فلم أكن أعرف أنك في هذا الموقف، لا تؤاخذني إن كنت حياً أو ميتاً، وقاتل الله جلاديك وفضحهم الله في الدنيا والآخرة.

حدث هذا في سجن ثكنة هنانو

كل يوم كانت تبكي والكل يحاول تهدأتها فالكل سجينات مثلها ولكنها تبكي بصمت يحرق القلوب امرأة خمسينية اعتقلت من أجل زوجها، امرأة قروية بسيطة لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا تعرف السياسة ولا السياسين، ذات مرة تكلمت لماذا تبكي كل هذا البكاء المر قالت:

جاء أحد السجانين وقيد يدي ووضع الطماشة على عيني وقال لي تعالي للتحقيق، دخلت غرفة من صوت الهمس فيها رجال كثر ضربني أحد الرجال ورماني على سرير وخلع ملابسي واغتصبني أمام الجميع وأنا مقيدة اليدين إلى الخلف، كان الكل يضحك في الغرفة، وبعد أن انتهى رجعت إلى غرفتي مذهولة من هول الصدمة، فهم لا يخافون من افتضاح أمرهم، فهي لن تحمل وليست عذراء يخافون الفضيحة بسببها.

«حدث هذا لزوجة شهيد في فرع الأمن العسكري بحلب»

شابة في التاسعة عشر من عمرها تزوجت أحد المجاهدين لتكون له ولعدة شباب غطاءً لقاعدة فهي من عائلة مجاهدة اعتقلت هي وزوجها وكانت حاملاً، كان الرائد محمود اسطنبولي والعقيد خالد العلي كل يريدها له ليقضي معها ليلة ولكن برضاها، هذا يخرجها ويساومها على شرفها ومن ثم ذاك لأنها حامل لا يخافون فضيحة، وهي تنام بخوف وقلق وتستيقظ برعب كلما نادوها، ذات مرة قال العقيد خالد عندما ستذهبين للسجن ستري واحدة اسمها عزيزة يخرب بيتها كم هي قوية، لا يستطيع المرء أن يكلمها كلمة واحدة، ولكنها تعجب الكل. عرفت الشابة أنها يجب أن تكون قوية فهم يخافون الفضيحة، فأرسلت لزوجها مع أحد السجناء ماذا تفعل فقد تعبت من المساومة، فقال لها قدمي شكوى لرئيس الفرع، وفعلت مثلما قال، واستشرف مصطفى التاجر ومنعهم من مساومتها، ولكن محمود اسطنبولي لم ينس ذلك لها، وعندما سفروا زوجها لتدمر أطلق عليه رصاصة برجله، وذهب لتدمر وهو مصاب بتلك الرصاصة، ولكن الله سلمها من أيدي الوحوش المفترسة.

«حدث هذا بالفرع العسكري بحلب»

كل يوم يخرجونه ويعذبونه أشد التعذيب وينكلون به أبشع التنكيل كنت أحاول أن أسترق النظر من خلال ثقوب الباب لأرى هذا المجرم، كانت أصوات التعذيب تصل لزنزاتي فأنا أعرف مذاق هذا الألم، وفي إحدى المرات كنت قريبة من غرف التحقيق واذ بي أسمعهم يسألونه، كان الأخ طبيباً وقد جاء لعيادته أحد الجرحى وداواه واعتقل أحدهم واعترف بذلك فتحوا سجلات المرضى فلم يروا اسم المريض فكانت هذه إدانة له لماذا مسح الاسم لو لم يكن يعرف من المريض؟ وهكذا وعندما رجعت لزنزانتي رأيته يقف يغسل فمه فوق المغسلة وينزف دماً كان محني الظهر من الألم إنه الطبيب مصطفى عبود.

«حدث هذا في الفرع العسكري بحلب»

كنت أنا والأخت أم حسن زوجة الشهيد أحمد كريز غطاء لشباب المركز وكان عدد الأطفال الموجودين ثمانية أطفال كان ياسر وحسن يلعبان وقتها، وكان حسن يحفر مخبأً وياسر يشرف عليه، ويقول حسن أنا الغطاء لك وأنت المجاهد، فيرد عليه ياسر بتوجيهات. كل منهما يأخذ دور والده. في إحدى المرات سمع الأخ أبو حسن حديثهما فقال لابنه حسن يا بني لن تكون غطاء ستكون مجاهداً يكفي أن والدك غطاء، وضحكنا لحديث الأطفال وقلنا للأخ أبو حسن لولاك لم يستطع المجاهدون عمل أي شيء.

ودارت الأيام والسنين وقامت ثورة عظيمة فكان حسن مع المجاهدين مع ابنه الذي لم يبلغ عمره عشر سنوات ليرافقه ويرى بأم عينه كيف يكون الرجل المجاهد مثلما رأى هو أباه، ويرابط مع المجاهدين حول أحد المطارات تاركاً عائلة يقول لها لكم الله لقد كان الله في عوننا بعد استشهاد أبينا وأنتم لكم الله الآن ومن بعدي.

أما ياسر فكان أيضاً من الثائرين ومن ثم المجاهدين ولكنه يشعر أن عليه واجباً أكبر يجب أن يؤديه. حفظ الله الأخت أم حسن التي ربت أولادها الستة على الدين والتقوى فكان الآن من أحفادها وأصهارها ثلاثة شهداء وخمسة مجاهدين مرابطين على الجبهات. هذه هي المرأة المجاهدة الصابرة المحتسبة وأظن أن ما كتبته قليل جداً في وصف ما تتمتع به من عطاء وتضحية.

عندما سمعت أول مرة الهتاف في المظاهرات يلعن روحك ياحافظ بكيت بكيت وأنا أسمعه، لقد شعرت أن حقي وصلني هل تعرفون أي حق؟؟

كنا بسجن تكنة هنانو كانوا يجبرون السجناء ويجبروننا أن نقف كل يوم وكل بغرفته يهتف وينشد يا شباب العرب هيا وانتفض يا موكبي وارفع الصوت قوياً عاش البعث العربي.

يفتح السجان حبيب أو علي كل نافذة ليتأكد أن الكل واقف ويغني كنا نحاول أن نفتح فمنا ونغلقه بدون صوت ولكن السجانون يطرقون الباب ويقولون لا نسمع صوتكم كنا نمتثل له خوفاً من أن يعاقبنا، فينقص من مدة الزيارة، أو يلغي السماح بالخروج للحمامات بغير الوقت المحدد. أي مقايضة تلك؟؟

لهذا لا تطربني أي أنشودة أو أغنية ثورية أكثر من يلعن روحك يا حافظ ويلعن روحك يا بشار.

أحد الجرحى مصاب بطلق في بطنه ولكنه مازال حياً أتوا به، كانوا يخيطون الجراح ثم يفتقونها كما تفتق خياطة الملابس ويقولون له أين عدنان عقلة؟ أين إبراهيم اليوسف؟ أين حسني عابو؟ فيغمى عليه، ثم يصحو، وهم يكررون العملية حتى اعترف على منزل وهو متأكد أن أصحابه أخلوه، واستشهد الأخ ولكن نجى باقي الأخوة.

«هذه القصة سمعتها ولكن لم أكن شاهدة عليها»

هكذا كانوا هؤلاء الأبطال جاهدوا بصمت واستشهدوا بصمت وماتت ذكرى بطولاتهم وأسمائهم لنعيد معاً تذكر أسمائهم لنخلدهم للأجيال القادمة وللتاريخ ليشهد أننا لم نسكت أو نذل لحكم الكافر حافظ الأسد.

قالت له وهي تكلمه خلسة عندما خرجت لقضاء الحاجة، ماذا حصل معك؟ كيف عرفوا قاعدتك؟ من هو الرجل الذي اشترى لك البيت؟ قال لها وهو يقبع بزنزانته «السجين التي تكلمه هو محمود مونة الذي اشترك في عملية اغتيال حافظ الأسد التي لم تنجح لأن مرافقه من دير الزور رمى نفسه على القنبلة وافتدى قائده وقتل ونجى حافظ الأسد» والله يا أختي إنه صديق قديم للشهيد عبد الله زيتوني، وكنت مرافقاً للشهيد وأراه دائماً معه، هو اشترى لي البيت ليكون قاعدة للشباب، وشعرت أن هناك من يراقبني ولكني استطعت أخذ الحيطة والحذر، والرجل الذي اشترى البيت قال إنه هو وزوجته سيكونون غطاء لنا، وكنت أنوي الصيام فقال لي هل تشرب كأس لبن؟ قلت له لامانع ونادى زوجته وآتى لي بكأس لبن شربته ولم أشعر إلا وأنا بين أيدي المخابرات. تحملت العذاب عدة ساعات عسى أن يأتيكم خبر ولكن لم أعد أحتمل أكثر فقلت لهم مكان المركز القديم.

لم تكن صاحبة المنزل زوجة الرجل ولكن كانت امرأة مأجورة لقد استشهد شباب المركز كلهم والأخت «ثريا طحان وزوجها أحمد طحان اعتقلا والزوج أعدم بتدمر لقد شاهده الكثيرون وهو معلق على حبل المشنقة وثريا اعتقلت عدة سنوات»

أما الشاب محمود مونة فكانوا يخرجونه كلما أراد أحد العناصر أن يتسلى أو أن يثبت ولاءه للقائد ويعذبونه عذاباً لا تطيقه الأرض ولا الجبال.

يبقى لدينا سؤال من هو صديق الشهيد عبد الله زيتوني القديم الذي خان الله ورسوله وصديقه وجميع شرائع السموات والأرض .

حدث هذا في الفرع العسكري وتدمر ومدينة حلب في السبيل.

ملاحظة: الشهيد عبدالله زيتوني من جماعة الإخوان المسلمين والتحق بالعمل العسكري مع الطليعة.

حدث في الثمانين ١٥

كنت في زنزانات الفرع العسكري وكلما حان وقت الصلاة يقوم شاب بالآذان بصوت عال، كان عناصر الفرع يحاولون إسكات الصوت بشتى الشتائم، وفي مرات عدة يدخلون الزنزانة ويقومون بضرب المؤذن داخل الزنزانة ثم يخرجون، فيعود المؤذن ويكمل الآذان، كنت أحاول انتظار خروجه حتى أرى من هذا الفدائي الشجاع، وخرج ورأيته شاب في الثلاثين من عمره أبيض اللون أحمر الشعر واللحية وجهه وضاء ما شاء الله مثل البدر، نادوا اسمه إنه الشيخ محمد خير زيتوني.

«حدث هذا عام ١٩٧٩ في شهر حزيران»

امرأة في الأربعين من عمرها اعتقلوها من أجل ابنها وهي لا تعرف أين هو وضعوها في الدولاب وبدؤوا بتعذيبها بالضرب بالكهرباء حتى أغمي عليها، وبعد وقت غير قليل لا تعرف تقديره استعادت وعيها، ولكنها رأت نفسها عارية من الملابس الداخلية وآثار الجريمة على كل أنحاء جسدها فعرفت ماذا حصل أثناء غيبوبتها.

«حصل هذا في الفرع العسكري بحلب»

الخاتمة

مضت اثنتان وثلاثون عاماً وأنا أحلم كل يوم بثورة تخلصنا من هذا النظام المجرم.

كل عام كنا نرى الفساد والانحطاط الأخلاقي يهوي بنا إلى أدنى درجات السقوط.

الظلم الإجتماعي، الرشوة، المحسوبيات، قطع الرحم، السرقة المبررة، تفشي الزنا، كثرة المراقص عوضاً عن الجامعات، انتشار السفور وجعله علامة الرقي والثقافة، والكثير مما يدل على سقوط القيم الأخلاقية الأصيلة في ديننا ومجتمعنا.

لقد كان كل ما حولي ينبؤني أن ثورة ستشتعل، ولكن متى؟؟ وكيف؟؟ وأين؟؟

سألت زوجي وكنا نحكي عن مأساتنا في السجن وعن الشباب الذين أعدموا في تدمر: معقول كل هذا الظلم الذي حصل ولم يعد أحد يذكره أو يأخذ لهؤلاء الأبرياء حقوقهم؟؟ حاشا لله.

رد علي قائلاً ومتيقناً من عدالة الله سبحانه وتعالى: الله هو المنتقم الجبار وسوف يأخذون حقهم يوم القيامة.

لم أرض بتلك الإجابة، الله عز وجل قال للمظلوم لأنصرنك ولو بعد حين.

وكأن الله قال لي لقد حان الوقت... واشتعلت الثورات في تونس ومصر وليبيا ومن ثم سوريا.

سئلت في بداية الثورة بعد عدة أيام من قيام المظاهرات كم ستستمر الثورة لتنتصر؟

كنا في جلسة عائلية هذا قال عام وتحدى في ذلك ذاك قال عامين وكان متشائماً وعندما حان دوري قلت خمس سنوات وأنا خائفة من ردة فعل الحاضرين.

صعق الجميع وصرخوا كيف؟

قلت لهم عسى أن أكون مخطئة وتنتصر الثورة اليوم قبل غداً.

لقد عرفت هذا النظام عن قرب شديد وعرفت أنه لن يستسلم بسهولة وأن وراءه دول تعتبر مصالحها الاستراتيجية أهم من كل دم يسيل.

وعشت مع الثورة من خلال التلفاز ومن ملاحقة ابني الذي لم يبلغ السادسة عشر وهو يركض من مظاهرة لمظاهرة وأخفي أمره عن والده ولكن وقع المحظور واعتقل.

كانت صدمة للجميع وحزناً فهو وحيد أبيه الذي اعتقل مظلوماً ثلاثة عشر عاماً.

بينما كنا نسكن في الرقة كان الشباب أولاد الشهيد إبراهيم يعملون بصمت ويخرجون ويشعلون المظاهرات في مدينة حلب، حتى جاء اليوم الذي استدعت المخابرات ابني ياسر هل يذهب أم يهرب؟ كان قراراً صعباً ولكنه استفاد من تجربة والده في الماضي فخرج لتركيا ولحقت به عائلته.

لقد كان سجني جرحاً عميقاً في نفوس الأولاد، كانوا يلومون والدهم، كيف يترك أمهم ويتركهم في مهب الريح، كان هذا تقصيراً برأيهم من والدهم لم يستطيعوا أن يغفروه له .

وبعد أن انتقلت الثورة من طور السلمية للتسليح ترك ياسر عائلته في تركيا ونزل لحلب كباقي الشباب الثوار ليشارك في تحرير وطنه، عندما عرفنا ذلك وخلال أربع وعشرين ساعة حملنا بعض لوازمنا وتركنا منزلنا وكل شيء وخرجنا اتجاه تركيا لقد خفنا أن يعيد التاريخ نفسه.

لم أكن أملك جواز سفر فأنا ممنوعة من السفر خارج حدود الوطن لهذا عبرنا الحدود بشكل غير شرعي .

كنت جالسة تحت شجرة على الحدود التركية ـ السورية قامت بناتي بتصويري وسؤالي بماذا تشعرين؟؟

قلت لهم الآن أنا حرة نعم حرة فلا هاتف ولا بيت مراقب.

نعم شعرت بالحرية وأنا على التراب التركي.

هنا تعلمت أول حروف الكتابة على النت، وأنشأت صفحة أسميتها جرح الماضي ينزف من جديد، وبدأ قلمي يكتب وذاكرتي تنفث ما خبأت طوال تلك المدة.

ومن ثم أنشأت صفحة شخصية بدأت خطواتي الطفولية على جدرانها وهكذا كبرت مع استمرار الثورة وتمكنت من قلمي فقد بدأ ينسق مع فكري.

وبعد أن شفيت من عملية جراحية قررنا الرجوع لأرض الوطن، حاولنا أن نسكن على الحدود لنكون مركزاً للأولاد وقريبين من عائلاتهم، لكن تلك الفترة لم تدم طويلاً ، عدنا للرقة لبيتنا وحارتنا وجيراننا فليس هناك أجمل من الوطن.

وبدأت رحلتي الثانية بعد إعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام شعرت أن هذا الإعلان مصيبة وطعن في ظهر الثورة وشق للصفوف فليس هذا هو الوقت المناسب لطرح المشاريع.

لم أسكت عن الخطأ ولا الظلم ظناً مني ويقيناً أن الإسلام يحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن كانت هذه الجماعة تقول أنا فقط والطوفان من بعدي صورة أخرى للنظام المجرم.

وبدأت تأتيني التهديدات وأقول إن الأعمار بيد الله، ولا يمكن أن يفكروا بقتلي فأنا امرأة وفي عمر الشيخوخة ومجاهدة قديماً وحديثاً وزوجة شهيد ولكن حسن الظن هذا كان بغير محله.

ففي ذات مساء كنت أسهر مع بناتي وصديقاتهن من جيراننا وإذ بخبر يأتيني أن اخرجي، الليلة سيقومون بقتلك فقد حكموا عليك بالردة وأنك علمانية وتتكلمين عليهم.

كان الخبر متوقعاً ولكن كنا نكذب أنفسنا وخرجنا من البيت كما كنا نهرب عندما تلاحقنا مخابرات النظام.

وفي الصباح سافرت باتجاه منبج قبل أن يضعوا اسمي على الحواجز.

ولكن بما أن غالبية البوابات مغلقة لأنه يوم الانتخابات للحكومة التركية فقد اضطررت للجوء للمهربين ليستطعوا إدخالي لتركيا.

كان يوماً لن أنساه فقد اجتمعت نساء ورجال وأطفال في بيت في إحدى القرى الحدودية، كان الشباب المهربين ينتظرون تبديل نوبة الحرس لنقل هؤلاء الناس، وعبرنا من تحت جسر وبدأ الجميع بالركض، أطفال صغار يحملون أشياءهم مع أهلهم نساء يحملن أطفالهن رجال... الكل يركض وبدأت بالركض مثل الآخرين ولكني كنت وراء الجموع، كان أحد الشباب واسمه أحمد يساعدني ويمسك يدي ويحثني على السرعة قائلاً يا الله يا خالة قبل أن تذهب السيارة فهي تقف لمدة دقيقتين فقط تحمل من يستطيع أن يسرع بركوبها وتترك الباقي على قارعة الطريق.

كان الطقس بارداً جداً وعواصف من الرياح تدفعني للوراء وكأنها تقول لي ارجعي للوطن.

كنت أشعر أن قلبي سيتوقف عن الخفقان في أي لحظة، قلت لأحمد اتركني هنا فلم أعد أحتمل أكثر، ولكنه رد علي قائلاً أنت أمانة في عنقي ولن أتركك أبداً حتى لو قبض علي البوليس التركي.

لقد غاب جمع الناس عن عيني ووصلوا وأنا مازلت أركض وأتعثر بالحصى وأقع ومن ثم أنهض ووصلت وإذ بالناس ويبلغ عددهم أكثر من مئة شخص مع أغراضهم يحشرون في سيارتين لا تتسعان لعشرين شخص، حاولت أن أركب فلم يبق لي مكان إلا أن أقف على الباب خفت أن أقع فنزلت منها حاول أحمد أن يجد لي مكاناً في السيارة الثانية ولكن كانت محشوة بالبشر أكثر من الأولى كان السائق التركي يصرخ بأنه تأخر ويجب أن يمشي وهكذا غابت السيارتان عن عيني ورميت جسدي المتهالك على قارعة الطريق فليأتي كل بوليس العالم يمسك بي فالسجن أرحم مما أنا فيه.

توسل إلي أحمد ونزلنا نختبئ تحت الجسر كان الهواء البارد يعصف بنا من جهتي الجسر ونحن نحاول أن نكتم أنفاسنا فقد جاءت نوبة الحرس الثاني.

حاول أحمد ورفيقه أن يستدعيا سيارة على حسابنا ولكن لا يمكن لأي سائق تركي أن يقوم بمثل هذه المغامرة.

كنا نرتجف أنا وأحمد ورفيقه من البرد كورقة شجر خريفية تريد الرياح أن ترميها.

وبعد أن فقدنا الأمل بمجئ سيارة تنقلنا عدنا أدراجنا للقرية كانت الرياح تدفعنا من الخلف أن عودوا لأرض الوطن ولكن ماذا أفعل لقد طردني الوطن ولم أجد مكاناً آمناً أعيش فيه بحرية .

دخلنا داراً كبيرة فيها غرفة واسعة يجلس ويرتاح من يريد أن يدخل الأراضي التركية بشكل غير قانوني.

كان فيها أكثر من عشرين شاباً ينتظرون ليعبروا وكنت المرأة الوحيدة فيهم.

كل واحد منهم يخجل من نفسه ويريد أن يطمئني قائلاً خالة أنتي بمثابة أمنا وخالتنا وأختنا لا تخافي .

كل منهم وضع اسقاطاً على ذاته ماذا لو كانت هذه أمي أو أختي.

كنت أجيبهم أني لست خائفة وأنتم مثل أولادي واخوتي فأنا عشت بأسوأ من هذا المكان لم أشعر بخوف من أحد أبداً، لقد كانوا ثواراً من الجيش الحر ولكن بعد سيطرة داعش على المنطقة جردوهم من سلاحهم فصاروا يعملون بالتهريب.

من يصدق أني كنت لا أشعر بالأمان عندما أرى أحد جنود داعش، ومع هؤلاء وجدت الأمان، دارت حوارات وأحاديث وسألوني رأيي فيها وشاركتهم.

وبصدفة الأقدار عرفت طريق إحدى صديقاتي كانت معي في سجن دوما للنساء، فرحي بسماع أخبارها أنساني ما أنا فيه وأرسلت لها تحياتي وسلامي مكتوبة على قصاصة ورق صغيرة .

وانتظرنا ليحل الظلام الدامس لئلا يرانا الحرس فيطلقوا علينا النار.

كنا عشرين رجلاً وأنا ونفس الطريق وقفنا أمام فتحة الجسر العتيق الذي كان قديماً لتهريب الدخان.

كان الشباب المهربون يتقاسمون غلة اليوم وكل يعرف بضاعته.

كنت أشعر أني مصيبة حلت على أحمد فقد تعهد لزوج ابنتي أنه لن يتركني لأركب السيارة.

كان يقول لي والله يا خالة لن تطأ رجلي ما بعد السلك حتى تصلي لأنك أمانة في عنقي.

ودقت ساعة الصفر كان قلبي يخفق خوفاً من الركض فركبتي اصطناعية لا تقوى على ذلك الجهد.

وبدأ الشباب بالركض وأنا أركض خلفهم ابتعدت المسافة بيني وبينهم يحاول أحمد مساعدتي لألحق بهم ولكن بعد دقائق غابوا عن عيني وبقيت تحت السماء في ظلمة حالكة وطرق وعرة وحصى وأحجار وهواء يدفع بي ويركلني فأقع ثم أنهض ويقول لي أحمد يا الله يا خالة أرجوك ساعديني قبل أن ترحل السيارة وتتركني.

غابت أصوات رفاقي عني وأنا أنهض وأركض وأقع كنت أتمنى أن يجدني الحرس ويطلق النار علي.

لا أستطيع أن أقدر المسافة التي كان المطلوب منا قطعها ولكن في الغالب أكثر من أربع كيلومترات.

ما هذا الحظ؟ يقول لي أحمد اليوم التشديد كثير وهناك اشتباك في مكان أقصر من هذا الطريق.

كنت أدعو الله وأنا ألهث وأنحني وأحمد يمسك يدي ويشد أزري يا الله يا أمي، يا الله ،أمي وأرد عليه بصوت مبحوب اتركني هنا وارجع فلم أعد قادرة على المسير.

يتركني منحية الظهر وآخذ نفساً عميقاً ويمسك بهاتفه ويخبر الذين سبقونا لا تتركوا السيارة حتى تصل الخالة انتظرونا مهما كانت الظروف وبصوته المبحوح الخافت لئلا يسمعه أحد الحراس فينكشف أمرنا.

ونتابع السير ونتيه في الظلام ولا نعرف بأي اتجاه يسير الآخرون ومن ثم يسألهم على الهاتف بأي اتجاه أنتم فيردوا نحن عند شجرات الزيتون

يقول لي خالة انظري لتلك الشجرات الله يوفقك شدي همتك لقد اقتربنا وسوف نسير محاذاة النهر وتغوص قدماي بالطين وشجيرات القنب وأقع أرضاً ثم أنهض، حب الحياة حب البقاء هل هما اللذان يدفعاني لتحمل كل تلك المشقة، أم هي روح التحدي والصمود لمحاربة الظلم بكل أشكاله وألوانه؟ قد تكون كل تلك الأسباب مجتمعة.

ويصرخ أحمد لرفيقه عبر الهاتف تعال وساعدني ويأتي مليفه من بعيد وصوت خطواته وهي تهز نباتات النهر ويمسك كل منهما بيدي ويركضان بي لئلا أقع على الأرض فتكسر قدمي.

أناجي ربي في سري وأتمم وأقول هذه ضريبة يجب أن ندفعها ما دمنا حملنا راية رفع الظلم.

كنت ألتقط أنفاسي وأدعو قائلة عليكم من الله ما تستحقون أيها المجرمون الجدد.

اللهم لا ترفع لهم راية واجعلهم لمن خلفهم آية.

وأكرر دعائي، حروف ألتهما وحروف تختفي مع شهقات الزفير والشهيق ولكن مازال فيني رمق من حياة.

ورأينا ضوء سيارة آتية من بعيد بعيد ويصرخ أحمد أمي أرجوك أرجوك، أمي ساعديني جاءت السيارة ها هو ضوؤها من بعيد وارتقيت التّلة وهما يجرّاني، ووصلت للطريق مع وصول السيارة وساعداني في الصعود، شكراً يا أحمد كيف أستطيع أن أشكرك؟ رد علي قائلاً: بالسلامة يا أمي ادعي لي، وأرخيت جسدي المتهالك على الكرسي وصعد جميع الشباب كانت الفرحة تغمر الجميع ونقول لبعضنا الحمد لله على السلامة.

استدرت إليهم وقلت ألا تتساءلون في سركم لماذا أسير في طريق المهالك وأنا بهذا العمر؟ قالوا نعم قلت لهم داعش حكمت علي بالقتل وإذا غالبية هؤلاء الشباب من أحرار الشام هاربون من داعش.

عليهم من الله ما يستحقون من أين أتوا؟ ومن أرسلهم؟؟ وكيف يفكرون؟

وأخيراً وصلت كاراج السيارات وكان ابني ياسر وبراء في انتظاري

وضممتهم والفرحة تغمرهم وهم يقولون أمي لم نعد نحتمل ونحن ننتظرك ونشعر بعجز وقهر يكاد يقتلنا.

وصلت البيت ولكن ياسر أصّر أن يصور حذائي المملوء بالطين لينشره على النت ويقول هذا الحذاء أطهر من ذقونكم يا ظلام يا مجرمي سوريا الجدد.

اليوم وأنا أنهي مسيرتي مع الطليعة موعد زفاف ابنتي براءة والألم يعتصر فؤادي أنني بعيدة عنها في هذا اليوم الذي تحتاجني فيه أكثر من أي يوم أخر.

ولكن عزائي أننا ننتظر نصراً من الله لينهي كل تغريباتنا إما بالحياة أو الموت أو الشهادة .

مجموعة من الأسئلة و الأجوبة

١ -لماذا كل هذا التغييب للشهيد ابراهيم اليوسف لا نجد أي توثيق لسيرته؟!

ج١: لقد حاول النظام بكل وسائل الإعلام والكتب تشويه سمعة الشهيد وذلك شيء طبيعي من نظام تجاه من يحاربه أما التغييب غير المبرر فهو من الذين يحسبون على الشهيد وهو يحسب عليهم، ألا وهم الأخوان فقد أنكروا معرفتهم به بعد العملية، ومعهم الحق في ذلك لأنه لم يكن ضمن صفوفهم ولكنهم يعرفون الذين شاركوه العملية، فهم أبناؤهم العاقون ومنهم كان ومازال في صفوفهم مثل (عبد العزيز) وهم يعلمون قبل غيرهم أن عبدالله طنطاوي هو من اعترف وكشف تنظيم مروان ومن غير الضروري أن يعرفوا كل عناصر التنظيم فيه.

ومع ذلك وبعد نجاح العمل العسكري اعترفوا بالطليعة وبالشهيد والتقى عدد من القيادات معه منهم عبد الله طنطاوي وأخو علي البيانوني الأكبر، هؤلاء من أعلم ومن أذكر.

ولكن بعد استشهاده أنكروا كل صلة لهم به وأدانوا العملية.

لقد تعمدوا تغييب سيرته وعملوا على تزوير الحقائق، ونشروا بين الجيل من أبنائهم أن عملية المدفعية كانت السبب لتشردهم ولمجزرة حماة التي

حصلت بعد عامين من استشهاده، وهكذا نشأ جيل يضمر الكره والحقد للشهيد فكان بنظرهم كما ينظر النظام له عدو.

أظن وبرأيي الشخصي أنهم فعلوا ذلك ليدفعوا عن أنفسهم تهمة التخاذل والتولي يوم الزحف والخيانة للطليعة.

◄ ٢- ابراهيم اليوسف هل هو طائفي أم ثائر وطني؟!

ج٢:من ينظر لعملية المدفعية بظاهرها يراها عملاً طائفياً، ولكن الحقيقة لم يكن الاستهداف للطائفة كأناس عاديين ولكن كطائفية سياسية، ورداً على تهميش وإقصاء الضباط السنة أو إعفائهم من رتبهم لصالح الضباط الجدد العلويين، وكرد على طائفية النظام الذي كان يعتقل كل من يصلي ومن هو متدين من أهل السنة، ولو أنهم أرادوا أن لا يحصل العمل بتلك الصورة بل إنهم سعوا ليكون طلاب المدفعية رهائن ليبادلوا بهم سجناء، وليسمعوا العالم بما يحصل في سوريا، وانتقاماً للتعذيب والموت للسجناء في سجون المخابرات، ورسالة للنظام أننا نستهدفك كما تستهدفنا، ولكن العملية لم تجر كما خطط لها، ونفذت على عجل، ولم تكن الغاية قتل كل الضباط.

قال إبراهيم اليوسف حين سئل عن العلويين قولته المشهورة: «نريدكم بيننا ولانريدكم سادة علينا»

وبعد العملية لم يكن قتالهم موجه للعلويين، ولكن لكل المؤسسات الأمنية ولمن يتعامل أمنياً معها من سنة ومن علويين.

لقد كان ثائراً شعبياً ووطنياً والدليل أنه كان وحيداً مع بضعة شباب ملاحقين، وبدعم الشعب أصبحوا قادة. لقد هتفت باسمه الجماهير الغاضبة في المظاهرات التي كانت تجري في حلب، وبضع قصاصات من ورق تطلب من التجار العصيان المدني كانت كافية ليلتزم كل التجار وأصحاب المحلات به، مع العلم أن المخابرات كانت تقوم بتكسير أقفال المحلات، ولكن العصيان يستمر حتى يطلبوا الثوار من التجار إنهاءه فيلتزمون بذلك

كان الشهيد يظهر بكل المظاهرات وبكل حارة وشارع ويلهب وجوده حماسة الجماهير المتظاهرة ويهتفون مطالبين به وزيراً للدفاع وبعدنان عقلة رئيساً.

٣- ما دوافع ابراهيم اليوسف للعمل العسكري؟!

ج٣:لقد توصل لنتيجة من خلال عمله كضابط في الجيش أن هذا النظام لا يقبل بالرأي الأخر وأنه يستأصل كل من هو متدين ولا يمكن إصلاحه أبداً بالطرق السلمية، ولا يمكن إسقاطه إلا بالعمل المسلح وبحرب تحرير حقيقية، تحرر الناس من طغيانه وظلمه.

٤- كان ملازم أول مدفعية ميدان، تم نقله إلى حلب مع ترفيع إلى نقيب؟! ما سبب ذلك؟!

ج٤:لقد كان سبب نقله لمدينة حلب ولمدرسة المدفعية أنه قدم لمحاكمة حزبية لأنه يصلي فقالوا له نحن بمعركة وأنت تصلي وتضيع الوقت فقال

لهم أنا أصلي في وقت راحتي، ومن ثم هل الصلاة ممنوعة؟ الرئيس نفسه يصلي! فحاولوا أن يلملوا الموضوع، ولكن بعد هذه المحاكمة نقلوه، دون ترفيع، ومن قال إنهم قاموا بترفيعه رتبة؟، هذا الكلام عار عن الصحة فبعد نقله بعام جاء ترفيعه بشكل روتيني وليس مكافأة.

- ٥- حلب كيف كان ينظر إليها؟! وهل تجاوبت معه؟!

ج٥: لقد كانت حلب الحاضنة الشعبية له من نخب وعلماء دين وتجار وأهالي مدنيين فقد كان كل الدعم المالي من أغنياء حلب وتجارها وفقرائها، لقد آمنوا به كمناضل صادق، ووجدوا في جهاده فرصة ليتخلصوا من حكم البعث لهذا قدموا كل أشكال الدعم له.

- ٦- ما ملامح ثورية ابراهيم اليوسف؟!

ج٦: وجوده بين الناس وبين المتظاهرين وعدم تعرضه لأي من الأهالي بالظلم أو الإعتداء على الأموال والأملاك، سواء كانت للناس أم للدولة، على العكس كان ناصراً لكثير من المظلومين من الأهالي.

- ٧- ما الذي جمع بين عدنان عقلة وابراهيم؟!

ج٧:لقد التقى إبراهيم بعدنان في مدارس الرقة، لأن والد عدنان كان يخدم في سلك الشرطة في الرقة، فكانا رفيقي دراسة، وجمعهما أن الإثنين كانا نازحين، عدنان من القنيطرة، وابراهيم من قرية تادف، والجو العشائري والتعصب للغريب الذي كان يسود الرقة جعل منهما أصدقاء مقربين ونصيرين لبعضهما.

• ٨- بعضهم يرى أن إبراهيم كان سباقاً في التعرف على طبيعة النظام وتركيبته الطائفية وأن الخيار الأمثل هو المواجهة العسكرية لماذا خلص إلى هذا وكيف وصل إلى هذه النتيجة؟!

ج٨: التمييز الطائفي الذي كان سائداً وعدم العدل أثناء قبول الضباط في الجيش بين سنة وعلويين بالنسبة للتعداد السكاني وتسريح الكثير من الضباط السنة ووضع ضباط علويين في أماكنهم كل هذه الأمور جعلته يصل لنتيجة أن هذا نظام عنكبوتي يتوغل في كل مفاصل الدولة والجيش ليسطر على كل شيء ولا يمكن لمثل هذا التخطيط أن يُهدم سوى بالقوة المسلحة فالنظام يستخدم القوة وليس القانون لتحقيق أغراضه.

• ٩- ما هي الطليعة؟! هل من منهاج فكري وثوري؟!

ج٩:الطليعة هي تنظيم مسلح على خلفية فكرية إسلامية يتخذ المقاومة المسلحة وسيلة لتحرير سوريا من النظام الفاسد الطائفي ولها خلفية فكرية وثورية.

• ١٠- الاختراقات التي حصلت للطليعة؟! ما سببها؟! هل هي بسبب فقدان الحس الأمني؟!

ج١٠: الاختراقات سببها النظام الأمني المخابراتي الذي زرع في كل بيت عميلاً للنظام، إما خوفاً أو بالمال، واستطاع النظام أن يجند الكثير من العملاء حتى من ضمن أعضاء التنظيمات، إما تهديداً بالتعذيب أو ترغيباً بالعفو، والوضع الجغرافي لحلب لا يسمح بالتخفي.

• ١١- لماذا يتبرأ الأخوان من الطليعة عندما يريدون التأكيد على تسامحهم، ويمدحونه عندما يريدون التأكيد على أسبقيتهم في الثورة؟!

ج١١: الإخوان ليس لهم سياسة محددة ولا وحدة قرار فكل قيادي يصرح بتصريح قد يناقض الآخر وهم عندهم انفصام ما بين الشعارات والتطبيق فشعاراتهم فضفاضة تحتمل الكثير من التأويل فمثلاً الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا هذا أحد شعاراتهم ولكن يبقى السؤال أي جهاد وأي موت يقصدون بذلك، عندما تحاورهم يقدم كل منهم تفسيره لك.

وأيضاً يتبعون سياسة المصالح فحسب مصلحة الجماعة يكون قرارهم وحسب الظرف والمكان والأشخاص لهذا ترى تصريحاتهم مذبذبة ومتلونة فهم يستخدمون اسم الطليعة حسب مصالحهم .

• ١٢ - ألم يورط اليوسف العمل الديني والسوري في سوريا في معركة غير محسوبة ومحسومة النتائج؟!

ج١٢:عملية المدفعية كانت رداً على استهداف الهوية للمسلمين السنة واستئصال المتدينين وكان النظام هو من بدأ الحرب وذلك قبل المدفعية بشهور فقام بتسريح المعلمين المتدينين والمعلمات المنقبات والمحجبات وكذلك الضباط السنة المتدينين هو من بدأ منذ استلام البعث للسلطة وليس الطليعة.

لقد كان نشوء الطليعة رداً على تلك الممارسات الاستئصالية للمسلمين السنة المتدينين.

١٣ - ماذا كانت النتائج لعملية مدرسة المدفعية؟!

ج١٣: كانت لعملية المدفعية نتائج منها إيجابية ومنها سلبية عندما استلم حافظ الأسد السلطة كان كل علوي في موقعه رئيس وعنصر مخابرات يحاول إذلال الآخرين بعد المدفعية أصاب الطائفة الخوف من ردات الفعل تلك فخفت حدة هذه التصرفات ولكن بقي استئصال المتدينين كما هو.

أما من الناحية السلبية فالنظام لا يحتاج مبرراً لأفعاله فهو قبل المدفعية كما بعدها ولكن ازداد شراسة واستئصالاً لطبقة الشباب المتدين.

١٤ - بعد استشهاد اليوسف ماذا حصل معك؟! ولماذا لم تتم تصفيتك؟!

ج١٤: بعد استشهاد إبراهيم بقيت في البيت مع بقية أفراد التنظيم حتى اعتقلت. ولماذا لم يقم النظام بتصفيتي فأنا لم أقم بأي مهمة مع الطليعة سوى أنني كنت زوجة أحد القادة، يكفي أنهم اعتقلوني أحد عشر عاماً بدون محاكمة، لقد قتلوا داخلي أشياء أكبر وأقوى من القتل الجسدي لقد خرجت من السجن وأنا بعمر أولادي ولا أملك بيتاً ولامالاً ولا أي شيء من مقومات الحياة فلا أستطيع أن أكمل دراستي ووجدت صعوبة كبيرة بالتعامل مع أولادي فأنا بالنسبة لهم أم في الخيال وليس في الواقع وتوقفت مداركي عند طفولتهم الأولى لهذا بقيت علاقتي مع أولادي علاقة ندّية كالأخوة لا كالأم والأبناء.

١٥٩. الى أي مدى تجدين حضور فكر الشهيد ابراهيم اليوسف؟

ج١٥:لو كانت الطائفة العلوية تدرك خطورة التصرفات التي يجرها لها النظام لكانت بعد المدفعية انقلبت عليه ولكن استطاع الجهاز الأمني أن يجرهم لملعبه.

لو حللوا لماذا قام الشهيد إبراهيم باستهداف أولادهم خاصة وكم كان عدد ضباطهم بالنسبة لعددهم لعرفوا أن النظام يجر أولادهم لمحرقة ولمواجهة الطائفة السنية لقد حصلت تلك المواجهة الآن ولو أنها تأخرت كثيراً، كان متوقعاً حصول تلك المواجهة.

أما الشهيد فقد وجه لهم نداء بأن يكونوا كباقي أفراد الشعب وكانت مقولته المشهورة (نريدكم بيننا ولا نريدكم سادة علينا).

لقد طمس النظام أيضاً فكره لأنه لا يمكن أن يبقى متمترساً وراء طائفته إلا إذا أشعرهم بالخوف من السنة .

وأما بالنسبة للإخوان فقد حاولوا طمس وجود كل الثورة لئلا يظهر جبنهم وخذلانهم للثوار وللمقاتلين فهم شجعوا كل الشباب على الخروج من سوريا ولم يكن لهم استراتيجية لقتال النظام أبداً ولا لحماية عناصرهم من التنظيم فلقد نصح الشهيد البيانوني الأخ الأكبر عندما التقاه في بساتين حلب أن خذوا حذركم النظام يقوم باستئصال كل من هو متدين فكيف بمن هو إسلامي سياسي ولكن جماعة البيانوني لم تفعل شيئاً، وبالفعل لاحق النظام ٨٠٠ فرد من عناصرهم، منهم من صار في السجون ومنهم من انضم للطليعة (وهنا بدأت الإختراقات) ومنهم من استشهد.

وأخيراً أقول رأيي الشخصي في ذلك قد أكون متطرفة، ولكن لو قمنا بدراسة موضوعية لما حصل في سوريا وفي مدينة حلب خاصة لعرفنا أن الثورة كان يقودها الشهيد إبراهيم بنجاح وهو من استطاع أن يحشد الجماهير وراءه ببطولاته وشجاعته وإخلاصه وتخطيطه ولولاه لما استطاعت الثورة أن تستمر وتنتشر والشاهد على رأيي أنه بعد استشهاده تراجع كل شيء وحصلت الإختراقات وانهار كل شيء.

لقد نال الشهيد ظلم كبير، وتهميش متعمد من كل الأطراف حتى من الطليعة نفسها، فلم أسمع أي واحد من الطليعة أو من إخوان تكلم عنه بخير أو دفع اتهاماً عنه أو ذكر فضله.

وأتمنى من مراكز البحث العلمية أن تقوم بتقييم لتلك المرحلة وللشهيد لمعرفة تأثير الشهيد على كل الثورة فقد كان حسب رأيي هو ثورة بشخصه وذاته وهو رجل بأمّة ثار وضحى ضد الطغاة في وقت كانت الأمة تغط في سبات عميق.

المحتويات

سوريا بفضل آل الاسد تحولت إلى مجتمع يسلم بكثير من الاستثناءات الظرفية التي أصلها حزب الأب القائد والنظام الشمولي الواحد...

لم يكن أمام الناس أي خيار، فالتخلف الشديد يتجلى في كل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصناعية والزراعية وفي نظافة الشعور والأفكار بل حتى في بنية السلطة القمعية ...

إبراهيم اليوسف شهيد ظلم مرات عديدة، من بعض المحبين، ومن المبغضين أيضاً...

كنت في العاشرة من عمري عندما اصطدم قلبي، بصورة اليوسف مقتولاً...لماذا قتل الرجل ؟ ومن قتله؟ وهل هو من الصهاينة كما يقول نظام حافظ أسد؟...

صوره البعض بأنه طائفي بعد حادثة المدفعية والتي وقعت في مدينة حلب السورية بتاريخ **16** حزيران **1979**م،هذه الحادثة تعد علامة فارقة في تاريخ سوريا وعلى الرغم من حدوثها إلا أن ملابسات ما حصل ظل في طي الكتمان .

اليوسف قال مرة: نرحب بالعلويين بيننا لا سادة علينا...

لماذا قال ذلك؟ ولماذا وقعت حادثة مدرسة المدفعية؟ .

اليوسف رحمه الله شردت أسرته من بعده واعتقلت زوجته...

وهاهي اليوم هذه المصابرة ام الأبطال ترصد بلغة واقعية ما حصل وتكتب بإيمان ووعي خفايا قصة اول من قاوم النظام الأسدي في سوريا ...

تجربة تستحق وضعها تحت أشعة البحث والمدارسة ...

كتبتها العزيزة عزيزة بكل صدق وعاطفة وتجرد وعزة ايضاً فلعل لها من اسمها نصيب!!!

هي عزيزة وعاشت عزيزة ...

د. علاء الدين ال رشي.

رئيس المركز التعليمي لحقوق الإنسان

أن المسافة بين
لحظة الميلاد
ولحظة الممات
تحددها كلمة الحرية...
تحرر كي لا تتدمر...
2016

ISBN: 978-3-946113-00-3
9 783946 113003